هجمات الروم البحرية

على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى

للدكتورة علية عبد السميع الجنزوري

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
بكلية البنات جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

بســـم الله الرحمن الرحيم

قـــال تعـــــالى :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ،
وان الله لمـــع المحســـنين »

صدق الله العظيم

الأستاذ الدكتور
اسمت غنيم

(هجمات الروم)

تقـــــديم

كان المجاهدون المسلمين أشداء فى الحرب ، صـــامدين للعدو صمود الجبال ، وكيف لا يكون ذلك حالهم وقد كان القرآن شعارهم والتقوى لباسهم حتى شهد لهم أعداؤهم بذلك (١) ٠

واذا كنا سنتعرض فى موضوعنا هذا لجانب من جوانب جهاد المسلمين فى سبيل الله فى جزء هام من أجزاء الوطن العربى الاسلامى كله ، ألا وهو مصر ، مصرنا الغالية الحبيبة ، فاننا سنتعرض لجهاد مصر فى مواجهة عدو هددها باستمرار من جهة البحر لا البر ، فمـــاذا كان مصيره وماذا كان موقفها ؟ ثم لماذا هذا الاصرار على الهجمات البحرية بالذات على الشواطىء المصرية طوال العصور الوسطى ؟

هل كان ذلك راجعا الى أن هذا العدو الممثل فى الروم (٢) «البيزنطيين» أدركوا أن العرب قوم مراكبهم الخيول وأنهم يجهلون ركوب البحر ، وأن العبرة ليست بامتلاك شواطىء طويلة تمتد بحذاء البحر فى بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا ، وانما العبرة بالقدرة على الدفاع عن هذه الشواطىء وبعبارة أخرى هل استغل الروم نقطة الضعف فى حركة التوسع العربية ابان الدور الأول من أدوارها وهى عدم وجود أسطول قوى يحمى فتوحات العـــرب

---

(١) وصف أحد بطارقة القبط العرب الذين قدموا لفتح مصر فكان مما قاله عنهم انهم « أقواما قد هجروا الدنيا ، فمنهم القارىء ، ومنهم الذاكر ، لباسهم الصوف ، صغيرهم يوقر كبيرهم وكبيرهم يرحم صغيرهم وصوت أحدهم لا يعلو على الآخر ، الذكر كلامهم والقرآن شعارهم والتقوى لباسهم والخوف من الله انيسهم » الواقدى : فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ٨٠ ـ ٨١) ٠

(٢) يعرف الروم ببنى الاصفر ، والاصفر هو روم بن العيص بن اسحاق (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٩ مادة الروم ، أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ج ١ ، ص ٩٢) ٠ وسوف نلتزم فى معالجتنا للموضـــوع الذى بين أيدينا بتســمية البيزنطيين باسم الروم وهى التسمية التى وصفوا بها فى ظل الاسلام وفى القرآن الكريم، خاصة وأن موضوعنا يتناول هجماتهم على شواطىء مصر الاسلامية ٠

البرية ، لذا شددوا هجماتهم البحرية خاصة على مصر (٣) ؟ وربما أيد هذا الرأى ما قيل عن الخليفة عمر بن الخطاب عندما ألح عليه معاوية بن أبى سفيان فى غزو قبرس أنه كتب الى عمرو بن العاص فاتح مصر وأول ولاتها المسلمين « أن صف لى البحر وراكبه فكتب اليه : انى رأيت خلقا كبيـــرا يركبه خلق صغير ، إن ركد خرق القلوب وان تحرك أراع العقول ، ٠٠ وهم فيه كدود على عود ، ان مال غرق ، وان نجا فرق ، فلما قرأ عمر الكتاب كتب الى معاوية « والله لا أحمل فيه مسلما أبدا » (٤) ٠

أم ان ذلك يرجع الى اهتمام الروم بالبحر المتوسط « بحر الروم » (٥) والى أن يظلوا دائما سادته ؟

والراجح أن العاملين تضافرا فى اصرار الروم على استمرار هجماتهم

---

(٣) د٠ عبد الرحمن الرافعى ـ د٠ سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٧١ ٠

(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٥ ٠ بل ان أحد المراجع الحديثة ذكر أن عمر أضاف قائلا : ان أى جندى مسلم أعز الى نفسه من كنوز اليونان جميعا ٠

"How can I permit my soldiers to sail upon this unfaithful and cruel sea ! By God a single Muslim is dearer to me than all the treasures of the Greeks "

Aly Mohamed Fahmy : Muslim Sea-Power in the Eastern Mediterranean, p. 73.

(٥) بحر الروم أضيف الى الروم لسكنى أممهم عليه من شماليه ، ويعبر عنه بالبحر الرومى أيضا ، وقد يعبر عنه بالبحر الشامى ، لوقوع سواحل الشام عليه من شرقيه، ومخرجه من المحيط من بحر أوقيانوس بين الاندلس وبر العدوة من بلاد المغرب ، ويسمى هناك بحر الزقاق ، وربما قيل زقاق سبتة لمجاورته لها ، وهو هناك فى غاية الضيق (القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١) ٠ وليس فى البحار أحسن حاشية من هذا البحر فان العمارات فى الجانبين ممتدة غير منقطعة وسائر البحر يعرض فى شطوطها المفاوز والمقاطع وتتردد فيه سفن المسلمين والروم يعبر كل فريق الى جانب الاخر سواء ٠ فيغنمون وربما اجتمع فيه الجيوش من المسلمين والروم فى السفن فيجتمع لكل فريق مائة سفينة حربية واكثر من ذلك فيكون حربهم فى الماء (الاصطخرى : مسالك الممالك ، ص ٧١) وببحر الروم عدة جزر ذكرها القلقشندى فى كتابه صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٧٠ ـ ٣٧٥ فقال (جزيرة قبرس ـ جزيرة رودس ـ جزيرة اقريطش ـ جزيرة المصطكى ـ جزيرة التغريب ـ جزيرة لمريا ـ جزيرة صقلية ـ جزيرة سردانية ـ جزيرة فرسقة ـ جزيرة انكلطرة ـ جزيرة السناقر ـ جزيرة ميورقة ـ جزيرة يانسة وجزيرة قادس ٠

على شواطىء مصر ، ولو أن تلك الهجمات الدائبة كانت تعنى لدى الروم شيئا آخر أهم وأعمق وهو أنهم كانوا يعتبرون مصر « أغنى أقاليم الامبراطورية امدادا بالقمح » (٦) وبمعنى آخر « مخزن قمح القسطنطينية » (٧) بل انها كانت أغنى أقاليم الامبراطورية على الاطلاق وأكثرها قيمة من النـــاحية الاقتصادية (٨) ٠

وهذا ما عبر عنه عمرو بن العاص عندما حاول اقناع الخليفة عمر بن الخطاب بفتح مصر حين قال : « يا أمير المؤمنين تأذن لى فى أن أصير الى مصر فانا ان فتحناها كانت قـــوة للمســـلمين ، وهى من أكثـــر الأرض أموالا ٠٠٠ » (٩)

لذلك قيل أنه بعد أن فقدت دولة الروم مصر بعد فتح العرب لها « فقدت مصدر الثروة والقوة واضطرت أن تنكمش داخل حدود منطقة النفـــوذ الجغرافى للقسطنطينية » (١٠) ٠

فاذا أضفنا الى ذلك أن مدينة الاســـكندرية كانت تلى فى المــكانة

---

6. G. Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 95.

والمقصود هنا الامبراطورية البيزنطية ٠

7. Cam. Med. History. V. IV. Part 1. p. 19.

ويضيف نفس المرجع ص ٣٩ أنه بعد فتح العرب لمصر كشف أمر الاساطيل المحملة بالقمح التي كانت تحمل من الاسكندرية كمصدر أساسى لامداد العاصمة البيزنطية ٠

8. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

(٩) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٤٧ ــ ١٤٨ ٠ ولهذا فعندما فتح عمرو بن العاص مصر وأتى خطابه الى الخليفة عمر ، خر ساجدا وكتب الى عمرو « أن يحمل طعاما فى البحر الى المدينة يكفى عامة المسلمين حتى يصير الى ساحل الجار فحمل طعاما الى القلزم ثم حمله فى البحر فى عشرين مركبا ، فى المركب ثلاثة آلاف أردب وأقل وأكثر حتى وافى الجار » (اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٥٤) ومنذ ذلك الوقت استمرت مصر فى امداد الحجاز بالقمح ٠

(Aly Mohamed Fahmy : Op. Cit., p. 16).

10. Louis Brèhier : Vie et Mort de Byzance, p. 57.

القسطنطينية مباشرة ، وربما تكون قد فاقتها فى أهميتها كمركز تجارى (١١) وأنها كانت بها أعظم كنائس الروم حتى أن هرقل (١٢) امبراطور الروم (٦١٠ - ٦٤١ م) عندما علم بتوجه العرب بقيادة عمرو بن العاص لفتح مصر قال « لئن ظفرت العرب على الاسكندرية ان ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية » (١٣) .

كذلك كانت مصر « تصنع السفن الحربية لها وللدولة البيزنطية » (١٤) وذلك بعد انتهاء الدور الأول من الفتوحات .

وحتى عندما استولى المسلمون على مصر وعلى بلاد الشام « لم تعترف الامبراطورية البيزنطية بضياع هذين الاقليمين بل اعتبرتهما واقعين تحت

---

(١١) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، ص ٥٢ ، د. وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، ص ٢٥٦ . هنا تذكر الاستاذة الدكتورة سعاد ماهر أن تأسيس القسطنطينية أدى الى اضعاف الملاحة المصرية والتجارة الخارجية ، اذ تحولت صادرات الشرق الاقصى اليها عن طريق الخليج الفارسى ، ثم جزيرة العرب والشام على ظهر القوافل بدلا من عبورها البحر المتوسط . الا أن ذلك لم يطل أمره ، اذ اضطر الامبراطور جستنيان فى القرن السادس الى العودة الى طريق البحر الاحمر والثغور المصرية بعد أن قطع الفرس طريق القوافل الاتى من الخليج الفارسى ، وهكذا عادت للاسكندرية مكانتها الاولى وأصبحت أعظم مدن البحر المتوسط ، وفاقت أهميتها كمركز تجارى أهمية القسطنطينية عاصمة الدولة .

(١٢) اسمه بالرومية أوقليس (القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤١٧)

(١٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(١٤) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ... ، ص ٧٤ . ويضيف نفس المرجع أن الاسكندرية كانت مقر تلك الصناعة ، وأن هذه السفن الحربية كانت على نوعين ، نوع كبير الحجم ويمكن أن نسميه البوارج ، وتسع السفينة منها ألف رجل ، ونوع صغير ويمكن تسميته الطرادات وكانت الواحدة منها تسع مائة رجل كما كانت مهمتها السير السريع واللف حول السفن الكبرى . وقد ساعد على ازدهار صناعة السفن هذه أن مصر كانت تنبت نوعا من الكتان تصلح أليافه صلاحية تامة لعمل الحبال وأدوات السفن فقد ورد فى كتاب البلدان لابن الفقيه « ومن عجائب مصر نوع من الكتان اسمه (الدقس) كانت تصنع منه حبال السفن وكانت تسمى (القرقس) .

احتلال عربى مؤقت . وظلت تلك السياسة البيزنطية مطبقة حتى ٦٩٣ م / ٧٤ هـ وكان من آثارها أن بيزنطة لم تقم أى تمييز جمركى ضد مصر والشام لأن التمييز الجمركى يعنى الاعتـــراف بأن مصر والشام بلاد أجنبيــــة عنها » (١٥) .

---

(١٥) د. وسام عبد العزيز : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاموية ... ص ٢٦٣ .

البـــاب الأول

الروم والشواطيء المصرية حتى موقعة ذات الصوارى

الفصل الأول : الروم والاسكندرية ·

الفصل الثاني : موقعة ذات الصوارى ·

الروم والاسكندرية

عندما فتح العرب حصن بابليون (١) فى ابريل ٦٤١ م (٢) / ٢٠ هـ (٣) كانت الاسكندرية العاصمة (٤) ، هى الجزء الوحيد الذى تبقى للروم فى مصر (٥) ، وهو ما عبر عنه الواقدى على لسان المقوقس عندما قال للعرب الفاتحين عندما تقدموا نحو الاسكندرية « ... وقد ملكتم منا مصر والصعيد وأكثر الريف ، وقد بقى فى أيدينا هذه الجهة وما نحن منازعوكم فيما أخذتموه منا .. » (٦)

وقد مر بنا كيف كانت الاسكندرية تتمتع بمكانة دينية واقتصادية هامة بالاضافة الى انها كانت « المركز الأكثر تألقا للحضارة الهلينية والنمط العريق للحياة المصرية الدائم والخالد دون أى تغيير فى وادى النيل » (٧) .

وكانت حتى القرن السابع الميلادى تعتبر المدينة الأولى فى العالم ـ اذا استثنينا قرطاجة القديمة وروما ـ فقد كان فن البناء بها لا مثيل له فى أى مكان آخر فى ذلك الوقت ولا قبله (٨) . هذا الى أن الاسكندرية كانت كبرى

---

١) يسميه الطبرى فى تاريخه ، جـ ٤ حوادث سنة عشرين (باب اليون)

(٢) كان ذلك يوم عيد الفصح يوم الاثنين ١٩ ابريل (د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤١٨) .

(٣) اختلف فى السنة التى تم فيها فتح مصر فبينما يذكر ابن عبد الحكم أنها فتحت عشرين (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨٠) يذكر الطبرى أنها فتحت اما سنة « ست عشرة أو عشرين » ويؤكد الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ٩ وابن الجوزى : تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ١١١ فتح مصر فى سنة عشرين هجرية .

(٤) د. السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ٤١٢ ، د. ابراهيم العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٤٩ ،

Aly Mohamed Fahmy : Op. Cit., p. 78.

5. Bernard Lewis : The Arabs in History, Hutchinson of London, p. 54.

(٦) الواقدى : فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٨٣ .

7. Christopher Dawson: Le Moyen-Age et les Origines de L'Europe, p. 146.

8. Alfred J. Butler : Arab Conquest of Egypt, p. 291.

المدن المصرية والمركز الأول للنشاط السياسى والاقتصادى والثقافى طـــوال عصرى البطالمة والرومان (٩) ٠

والواقع أن الروم كانوا يدركون جيدا أهمية الاسكندرية التجـــارية والحربية والبحرية ، ويعرفون جيدا أيضا أنه ان لم يتم استيلاء العـــرب على الاسكندرية فلا فائدة من استيلائهم على مصر كلها اذ تظل الاسكندرية شوكة فى جانبهم (١٠) ٠

بدأ الروم يشعرون بخطورة الفتوحات العربية بصورة أكثر جدية عندما نجح عمرو بن العاص فى دخول مصر وبدأ يتقدم نحو الاسكندرية وقد تجسم ذلك الخطر فى قول ملكهم هرقل « ما بقاء الروم بعد الاسكندرية » (١١) وذلك عندما أمر بالاستعداد حتى يخرج لقتال المسلمين بنفسه اعظاما للاسكندرية، ولذا أمر ألا يتخلف عنه أحد من الروم مؤكدا أنه « ما بقى للـــروم بعـــد الاسكندرية حرمة » (١٢) ٠

وبمعنى آخر أدرك الروم أن الاسكندرية ـ وليس حصن بابليون ـ هى مفتاح مصر الحقيقى ، فحشدوا فيها قواهم (١٣) ٠

واذا كانت المصادر العربية المختلفة قد أفاضت وأسهبت فى الحـــديث عن فتح المسلمين للاسكندرية ، فاننا نجد أنفسنا مضطرين للتوقف قليلا أمام أقدمها وهو الواقدى ، فنعثر على رأى فريد له فى كتابه « فتـــوح الشام » مؤداه أن قائد فتح الاسكندرية كان خالد بن الوليد (١٤) ، والراجح

---

(٩) د٠ عبد الرحمن الرافعى ، د٠ سعيد عاشور : مصرفى العصور الوسطى ، ص ٢٧ ٠

(١٠) د٠ سيده كاشف . مصر فى فجر الاسلام ، ١٩٧٠ ، ص ١٢ ـ ١٣

(١١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ ٠

(١٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٩ ٠

(١٣) د٠ عبد الرحمن الرافعى ، د٠ سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ٠

(١٤) الواقدى : فتوح الشام ، جـ ٢ ، ص ٧٤ : ٨٦ ٠

يقول الواقدى ما ملخصه ان ابن المقوقس ـ ويسميه أرسطوليس ـ لما انهزم أمام

=

أن هذا الرأى به شيء من التحريف فى الكتابة أو النسخ ، لذا نجد أنفسنا مضطرين الى عدم الاعتماد عليه مطلقا ، خصوصا وأننا لم نعثر فى أى

=

المسلمين توجه الى الاسكندرية ثم بلغه فتح مصر فعز عليه ذلك · وبعث عدة مراكب من الاسكندرية شحنها بالرجال وطلب منهم أن يباغتوا سواحل بلاد الشام وينقضوا بهجوم على المسلمين · وبالفعل ساروا الى سواحل الرملة وباغتوا المسلمين بهجوم وقتلوا منهم رجالا وأخذوا عددا من الاسرى ، وعدة غنائم أخرى ، ويقال أن عدد الاسرى بلغ حوالى ألف ومائة ، فوضعوهم فى المراكب وعادوا الى الاسكندرية · عندئذ أرسل أبا عبيدة بن الجراح لعمرو بن العاص يخبره بذلك ويحذره من صاحب الاسكندرية ، فلما وصل الخطاب الى عمرو صعب عليه وأرسل الكتاب الى خالد بن الوليد وكتب اليه يحثه بالمسير الى الاسكندرية · أما عن أسرى المسلمين فقد أرسلهم ابن المقوقس الى أحد الاديرة ويسمى « دير الزجاج » وبعث معهم قوة تتكون من ألفين من الرجال · لكن خالد عرف أخبارهم فتوجه اليهم ومعه شرحبيل بن حسنه وعامر بن ربيعة ويزيد بن ابى سفيان وهاشم بن سعيد القعقاع وغيرهم وتمكن هو ورفاقه من تخليص الاسرى المسلمين وقتلوا من أعدائهم سبعمائة وأسروا الفا وثلثمائة ثم توجهوا الى الاسكندرية ومعهم أسراهم من القبط ·

وفى نفس الوقت كان ارسطوليس قد أرسل الى ملك برقة المسمى (كيماويل) وطلب منه النجدة بعد أن حذره من العرب ، وبالفعل أرسل ملك برقة لنجدته جيشا مكونا من اربعة الاف ·

كذلك أرسل ملك برقة كبير البطارقة عنده والذى كان يسمى سطيس الى المقوقس يبشره بقدوم النجدة اليه ، فلما وصل هذا البطريرك الى الاسكندرية طلب منه ابن المقوقس أن يتدخل فى الصلح بينهم ·

فلما وصل البطريرك عند خالد بن الوليد دار بينهما حديث جدد سطيس على اثره اسلامه على يد خالد ثم حذرهم من شقيق ملك برقة الذى سيأتى بعده لمحاربتهم وأن ملك الاسكندرية يريد صلحهم على أن يعطيهم شيئا من المال ويسلم اليهم قوما من أصحابهم كانوا قد أخذوهم من ساحل الرملة ، فما كان من خالد الا أن أخبره بأنهم قد فك الله أسرهم وجمع بهم شملهم ··· عندئذ أسقط فى يد ابن المقوقس وطلب من أرباب دولته الاستعداد لحرب العرب حتى تصلهم نجدة ملك برقة ·

وما أن التحم ابن المقوقس بالعرب الفاتحين حتى ارتعدت فرائصه ، ففر هاربا الى جزيرة كريت وأخذ معه أمواله وحريمه وأولاده ·

وعندئذ توجه أهل الاسكندرية الى خالد فقال لهم « خير الناس من قدر وعفا ونريد منكم مائة ألف مثقال ذهبا صلحا عن أنفسكم وأهاليكم وندعوكم بعد ذلك الى الاسلام ، فمن أجاب منكم كان له ما لنا وعليه ما علينا ومن عدل عن ذلك أخذنا منه

=

مصدر (١٥) آخر على أية اشارة تعضد هذا الرأى ٠

فابن عبد الحكم مثلا يذكر أن عمرو بن العاص كان قد أرسل الى الخليفة عمر بن الخطاب - أثناء حصار حصن بابليون - يطلب المدد « فأمده بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف » وهم الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد (١٦) ٠

فلما تقدم عمرو لفتح الاسكندرية (١٧) حاصرها بنفسه شهرا ، فلما أبطأ فى فتحها بعث اليه عمر بن الخطاب من يستحثه على فتحها « ٠٠٠ قد كنت وجهت اليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف الا أن يكونوا غيرهم ما غيرهم ، فاذا أتاك كتابى هذا فأخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم فى الصبر والنية وقدم أولئك الأربعة فى صدور الناس وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تتنزل الرحمة ووقت الاجابة » ٠ ففعل عمرو ذلك ونصره الله (١٨) ٠

=

الجزية عن السنة التالية من كل رجل وغلام بلغ الحلم أربع دنانير ، فوافقوا على ما شرطه عليهم ٠

وجمع أهل الاسكندرية المال ومضوا به الى خالد وبنى فيها المساجد وأخذ كنيستهم العظمى فجعلها جامعا وترك لهم اربع كنائس وكتب الى عمرو بن العاص يخبره بفتح الاسكندرية ففرح وركب وترك موضعه ابا ذر الغفارى وذهب الى الاسكندرية وبنى فيها جامعا فى الربض ٠

وهكذا نستنتج من رواية الواقدى هذه أن الاسكندرية فتحت على يد خالد بن الوليد تحت امرة عمرو بن العاص ، لكن بقية المصادر والمراجع تعطينا رأيا مخالفا تماما لذلك ، بل انها لم تذكر على الاطلاق اسم خالد بن الوليد ٠

(١٥) على سبيل المثال لا الحصر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦١ - ٧٢ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ ، الطبرى : تاريخه، أحداث سنة ٢٠ هـ ، ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الصحابة ، القسم الثانى حرف الخاء ، ص ٤٢٧ ، ابن الاثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، المجلد الثانى، ص ١١٠ - ١١١ ، ابن حجر العسقلانى : تهذيب التهذيب ، جـ ٨ ، ص ٥٧ ٠

(١٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦١ ٠ وهنا يذكر أن البعض يضعون خارجة بن حذافة بدلا من مسلمة بن مخلد ٠

(١٧) تقدم اليها من الفسطاط (ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٧٣) ٠

(١٨) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٧٩ ٠

ويفهم مما سبق أن القادة الأربعة السابق ذكرهم هم الذين تولوا فتح الاسكندرية تحت امرة عمرو . ثم يعود ابن عبد الحكم فيعطينا رواية أخرى وهى أن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد فأشار عليه بأن يختار رجلا من أصحاب رسول الله له خبرته وتجاربه ، فيكون هو قائد المسلمين فى فتح الإسكندرية « أرى أن تنظر الى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله صلعم فتعقد له على الناس فيكون هو الذى يباشر القتال ويكفيك » وأشار عليه باختيار عبادة بن الصامت . وبالفعل استدعى عمرو عبادة وعقد له وولاه قتال الروم ، فتقدم عبادة مكانه فصاف الروم وقاتلهم ففتح الله على يديه الاسكندرية » (١٩) .

أما البلاذرى (٢٠) فقد فصل لنا الحديث عن كيفية دخول عمرو بن العاص الاسكندرية عندما ذكر أن عمرو سار حتى انتهى الى الاسكندرية (٢١)، فوجد أهلها مستعدين لقتاله « وكان القبط يحبون الموادعة » فأرسل اليه :

---

(١٩) ابن عبد الحكم : المصدر السابق نفس الصفحة .

هنا يذكر ابن عبد الحكم ، ص ٦٦ أن عبادة بن الصامت كان قد اختاره عمرو بن العاص للتفاوض باسم المسلمين الفاتحين قبل عقد الصلح بين المسلمين والمقوقس وفتح مصر . وكان عبادة أسود اللون ، فلما ركبوا السفن الى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده ، فقال نحوا عنى هذا الاسود وقدموا غيره يكلمنى فقالوا جميعا ان هذا الاسود افضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وانما نرجع جميعا الى قوله ورأيه وقد أمر الامير دوننا بما أمره به وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله . فقال وكيف رضيتم أن يكون هذا الاسود افضلكم وانما ينبغى أن يكون هو دونكم قالوا كلا انه وان كان أسود كما ترى فانه من أفضلنا سابقة وعقلا ورأيا وليس ينكر السواد فينا .. فقال المقوقس لعبادة تقدم يا أسود وكلمنى برفق فانى أهاب سوادك وان اشتد كلامك على ازددت لذلك هيبة . فتقدم اليه عبادة فقال قد سمعت مقالتك وان فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا منى وأفظع منظرا ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لى .. وأنا قد وليت وأدبر شبابى .. ان غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته لليله ونهاره وشملة يلتحفها ، فان كان أحدنا لا يملك الا ذلك كفاه وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله .. فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله ، لقد هبت منظره وان قوله لاهيب عندى من منظره .

(٢٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

(٢١) كان ذلك سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م (د. ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٤٩) .

المقوقس (٢٢) يطلب المهادنة الى مدة فرفض عمرو بن العاص « فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات بوجوههن الى المسلمين ليرهبهم بذلك » .. فما كان من عمرو الا أن أرسل له قائلا : « انا قد رأينا ما صنعت وما بالكثر غلبنا ما غلبنا ـ فقال المقوقس لأصحابه .. قد صدق هؤلاء القوم ، أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى ادخلوه القسطنطينية ـ فنحن أولى بالاذعان ، وأغلظوا له القول وأبو الا المحاربة ... » فما كان من المقوقس الا أن تصالح مع عمرو بن العاص فبلغ ذلك هرقل ملك الروم « فسخط أشد السخط وأنكر أشد الانكار وبعث الجيوش فأغلقوا أبواب الاسكندرية وآذنوا عمرا بالحرب » (٢٣) .

هنا نتوقف عند خطاب هرقل الذي أرسله كتعبير مباشر ورد قاطع على موقف المقوقس من المسلمين وكيف أن هرقل كان يستبعد أي تصرف من المقوقس ينتج عنه التنازل ولو عن شبر واحد من أرض مصر ، الى جانب ما تضمنه

---

(٢٢) المقوقس أو كيرس (د . سيده كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٨ ، وهو نفسه (قره) الذي يشار اليه في
Agapitus : Kitab Al-Unvan : Patrologia Orientalis, V. VIII. p. 471.
كان كيرس أسقفا لفاسيس Phasis الواقعة بالقرب من القوقاز . وربما كان ذلك هو سبب تسميته بالقوقازي ، وهو أيضا الاصل الحقيقي للفظة المقوقس وهو الاسم الذي نقرأه في النصوص العربية والقبطية وفي سنة ٦٣٢ م أقر هرقل صورة التوفيق التي تقضي بأن يمتنع الناس عن الخوض في الحديث عن كنه طبيعة المسيح وعما اذا كان له صفة واحدة أو صفتان ، ولكن عليهم أن يشهدوا أن له ارادة واحدة ، لذلك ولى هرقل كيرس بطريركية الاسكندرية وأمره أن يجمع المذهبين المونوفيزيتي والخلقدوني في المذهب الجديد وهو المذهب المونوثوليتي (د . السيد الباز العريني : مصر البيزنطية ، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ـ ٤٠٤) وبذلك أخطأ الامبراطور هرقل ووقع فيما وقع فيه الامبراطور جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) من اسناد الرئاسة الدينية والسياسية لشخص واحد هو قيرس أو المقوقس (د . سيده كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٨) .

(٢٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٢ ، المقريزي : الخطط ، ج ١ ص ٣٠٣ . كان عمرو بن العاص قد فرض على الروم الذين يرغبون في البقاء في الاسكندرية مثلما فرض على القبط ، أي دينارين على كل منهم (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٧٠) .

من استخفاف بقوة المسلمين . وفى نفس الوقت نحس فيه بمـــدى صدق أحاسيس المقوقس وبعد نظره فى الحكم على المسلمين الفاتحين الذين باعوا الدنيا بالآخرة . فقد جاء فى خطاب هرقل للمقوقس : « ... ان عنسدك من الروم بالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة .. فعجزت عن قتالهم » (٢٤) . فما كان من المقوقس الا أن عقب على هذا الخطاب بقوله : « والله انهم على قلتهم وضـــعفهم أقوى وأشـــد منا على كثرتنا وقوتنا .. » (٢٥) .

والحقيقة أن المقوقس كان قد طلب من عمرو ثلاثة أمور : الأول ألا ينقض الصلح مع القبط لأن رأيهم مثل رأيه « قـــد جعلت كلمتى وكلمتهم على ما عاهدتك فهم متمون لك على ما تحب . والثانى ألا يصالح الروم بعـد ذلك وأن يجعلهم « فيئا وعبيدا فانهم أهل لذلك » وأنه برىء منهم . والثالث أن يأمر بدفنه بالاسكندرية فأجابه عمرو على ما طلب (٢٦) . على أن يقيموا له

---

(٢٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧١ ، السيوطى : حســن المحاضرة ، جـ ١ ص ١١٧ . ومما جاء فى خطاب هرقل : « انما أتاك من العرب اثنا عشر ألف وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك بمصر من الروم بالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة ، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط أذلاء، ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فانهم فيكم على قــدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة . تناهضهم القتال ولا يكون لك رأى غير ذلك . وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابا الى جماعة الروم .

(٢٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧١ . كان رد المقوقس : « والله انهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا ، ان الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا وذلك أنهم قوم الموت أحب الى أحدهم من الحياة ، يقاتل الرجــل منهم وهو يستقتل ويتمنى ألا يرجع الى أهله ولا بلده ولا ولده ويرون ان لهم أجــرا عظيما فيمن قتلوا منا ويقولون أنهم ان قتلوا دخلوا الجنة وليس لهم رغبة فى الدنيا ولا لذة الا قدر بلغه العيش من الطعام واللباس ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها فكيف نستقيم نحن وهؤلاء ... ويحكم أما يرضى أحدكم أن يكون أمنا على نفسه وماله وولده بدينارين فى السنة .. »

(٢٦) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٧٣ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ، ص ١١٨ .

الجسور والانزال والضيافة والأسواق من الفسطاط الى الاسكندرية ففعلوا ذلك « وصار القبط معهم يعاونونهم على قتال الروم » (٢٧) ٠

والواقع أن (كيرس) بعد أن عقد الصلح مع عمرو بن العاص قرر أن يبعث الى الامبراطور هرقل بشروط الصلح فان أقره نفذه ، وبمقتضى هذا الصلح قبل البطريرك كيرس الاستسلام ودفع الجزية ، وأن تتوقف الأعمال العدائية ، غير أن بيزنطة تلقت الرسالة لقاء بالغ السوء ، ودعا هرقل كيرس الى القسطنطينية ليشرح له موقفه الذى بلغ فى نظره حد الخيانة ٠ وأساء الامبراطور استقبال كيرس ، وجعل الأخير يدافع عن نفسه قائلا ان ما عرضه من دفع الجزية لهم - أى للعرب - يمكن تدبيرها بما يقرره من ضريبة على متاجر الاسكندرية وسلعها ٠ ولوح بأنه عرض على عمرو بن العاص أن يتزوج ابنة الامبراطور المسماه Eudocia أملا فى أن يؤدى هذا الى اعتناق عمرو للمسيحية ، غير أن الامبراطور اشتد فى لوم (كيرس) ، لأنه فرط فى ذهب مصر الى المسلمين واتهمه بالخيانة وأمر بعزله وسلمه الى حاكم القسطنطينية فأنزل به المهانة ثم نفاه من البلاد (٢٨) ٠

أما الطبرى فيعطينا رأيين عن كيفية اتمام عمرو بن العاص فتح الاسكندرية ، أولهما نقله فى الأصل عن أحد جنود الجيش الذى اشترك مع عمرو فى فتح مصر والاسكندرية ، ذكر فيه انه بعد فتح بابليون وصل الجيش الى بلهيب ، وهى قرية من قرى الريف يقال لها قرية الريش ، وكانت سبايا المسلمين قد بلغت المدينة ومكة واليمن ٠ فأرسل صاحب الاسكندرية الى عمرو يقول : « انى قد كنت أخرج الجزية الى من هم أبغض الى منكم معشر العرب، لفارس والروم ، فان أحببت أن أعطيك الجزية على أن ترد على ما أصبتم من سبايا أرضى فعلت » ٠

---

(٢٧) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٧٣ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١١٨ ٠ وبذلك يكون القبط قد ساعدوا عمرا أثناء تقدمه من الفسطاط الى الاسكندرية ، ولم يقفوا ضده مع الروم كما ذكر ابن خلدون : العبر ، ج ٢ ، ص ١١٥ « سار عمرو الى الاسكندرية فاجتمع له من بينها وبين الفسطاط من الروم والقبط فهزمهم واثخن فيهم » ٠

(٢٨) د٠ السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤١٥ - ٤١٧ ٠

فاستأذنه عمرو فى أن يأخذ رأى الخليفة عمر فى ذلك الأمر « أن ورائى أميرا لا أستطيع أن أصنع أمرا دونه » وبالفعل جاء رد عمر بأن يرد لهم سباياهم ويأخذ منهم الجزية « لعمرى لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب الى من فىء يقسم » وأن يخيروا ما بأيديهم من السبى بين الاسلام وبين دين قومهم ، فمن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه ٠ أما من وصل الى مكة والمدينة واليمن من السبى فلن يستطيع رده ٠ فوافق صاحب الاسكندرية على تلك الشروط وفتحت الاسكندرية (٢٩) ٠

أما الرأى الثانى فيقول أنه عندما وصل عمرو بن العاص الى بابليون ولحق به الزبير « لقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف ٠٠ بعثه المقوقس لمنع بلادهم » فقال لهم عمرو « أنتما راهبا أهل هذه البلدة فاسمعا ٠ ان الله عز وجل بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق وأمره به وأمرنا به محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠ ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته وقد قضى الذى عليه ٠٠ وكان مما أمرنا به الاعذار الى الناس فنحن ندعوكم الى الاسلام فمن أجابنا اليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية ، ٠٠ ومما عهد الينا أميرنا : استوصوا بالقبطيين خيرا ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصانا بالقبطيين خيرا ٠٠ » فطلبوا أن يعطيهم عمرو مهلة خمسة أيام ليردوا عليه ٠ فلما رجعا الى المقوقس وأراد أن يجيبهم الى طلبهم رفض أرطبون « وأمر بمناهدتهم » فلما مرت المهلة دون رد أرسل عمرو الى الاسكندرية عوف بن مالك فطلب منهم النزول على رأى عمرو فى مقابل الامان فوافقوا وقال لهم ما أحسن مدينتكم يا أهل الاسكندرية ! فقالوا ان الاسكندرية قال: انى أبنى مدينة الى الله فقيرة ، وعن الناس غنية ـ أو لأبنين مدينة الى الله فقيرة وعن الناس غنية فبقيت بهجتها (٣٠) ٠

وبذلك يعتبر الطبرى فاتح الاسكندرية هو عمرو بن العاص نفسه أو قائده عوف بن مالك ٠

---

(٢٩) الطبرى : تاريخه ، أحداث سنة ٢٠ هـ ٠

(٣٠) الطبرى : تاريخه ، أحداث سنة ٢٠ هـ ٠

بينما تذكر (Patrology Orientalis) رأيا آخر هو أن « قرة (٣١) أسقف الاسكندرية صالح عمرو بن العاص على أن يؤدى كل سنة مائتى ألف دينار على ألا يدخل المسلمين مصر « ولا صعدوا حدودها » على أن يعد الأموال ويرسلها لهم ، وأن (قرة) ظل مواظبا على ذلك مدة ثلاث سنوات لم يدخلها أحد من العرب (٣٢) ٠

والواقع أن هذا أمر بعيد عن الصحة ، لأن العرب لم يرحلوا عن مصر بعد مصالحة عمرو بن العاص لأهلها ٠

ثم تضيف (البترولوجيا) أيضا أن قوما من أهل مصر توجهوا الى هرقل وأوغروا صدره على (قرة) وأنه « يأخذ الأموال من مصر ويدفعها الى العرب ٠٠ ويدفع اليهم خراج مصر الذى هو واجبه له » فغضب هرقل من ذلك ووجه الى مصر بطريق يدعى منويل وأمره بعزل قرة من تدبير مصر وأن يتولى ذلك ويقوم بالذب عن أهلها ٠

فلما كان فى أواخر السنة نزل العرب الى مصر على العادة يريدون الأموال « فألفوا منويل نازلا على مصر مع جيوش الروم » فأخذوهم وأدخلوهم اليه وسألهم عن أمرهم وحاجتهم فأخبروه بالقصة فلما علم أنهم يريدون الأموال انتهرهم بغضب شديد وصرفهم بهوان وقال : « انى لست قرة الأسقف الذى كان يعطيكم الأموال خوفا منكم لأنه راهب متعبد وأنا رجل صاحب سلاح وحرب وشجاعة كما ترون من حالى ومالكم عندى الا الخزى والهوان ٠ وانصرفوا من البلد ولا تعودوا اليه والا أتيت على أنفسكم وقد أعذر من أنذر » ٠

عندئذ رجع القوم الى عمرو بن العاص فأخبروه بما حدث « فسار حتى وافا مصر ولقى بها منويل فهزمه وقتل عامة أصحابه ولحق منويل بالاسكندرية مع من بقى من أصحابه ثم استولى العرب على مصر » (٣٣) ٠

---

(٣١) المقصود كيرس

32. Agapitus : Kitab Al-Unvan : Patrologia Orientalis, V. VIII, p. 471.
33. Agapitus : Kitab Al-Unvan : Patrologia Orientalis, V. VIII, pp. 472-473.

هنا تنفرد البترولوجيا أيضا فى اعطاء صورة لموقف هرقل من قـره أو كيرس وكيف أنه عاد يتلطف معه ويعتذر له عما بدر منه نحوه ، وطلب منه أن يناور المسلمين لأنهم أرسلوا الى الناس كافة ٠٠ كما أنه عاد فقلده أمر مصر » ٠٠٠ ان قوما أعطونى فيك العشوا ورفعوا التى عنك الباطل ٠٠ ان هؤلاء أرسلوا كافة على الناس ٠٠ فان قدرت على مداراة القوم ودفعهم عن مصر بما عز وهان فافعل ٠٠ » (٣٤) ٠

وتستكمل (البترولوجيا) روايتها فتذكر أن (قرة) قال « كيف أستطيع دفع القوم وقد صرت عندهم كذابا » وما كان منه الا أن توجه الى عمرو بن العاص واعتذر له أنه لم يكن سبب نقض العهد ، وأن هرقل هو الذى صرفه عن رأيه وطلب منه التفاوض معه من جديد لأنه لا يثق به « فانصرف قـــره الى الاسكندرية بغير قضاء حاجة » (٣٥) ٠

وبذلك خالفت (البترولوجيا) بقية المصادر فى أن عمرو وصل الى اتفاق مع كيرس وأن ذلك كان سببا فى غضب هرقل وتصميمه على الخروج بنفسه على رأس جيش الى الاسكندرية للدفاع عنها ضد المسلمين ٠ وبالفعل تـم ارسال قوات كبيرة من الروم الى الاسكندرية فقد « قدمت مراكب كثيـــرة من أرض الروم فيها جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح » (٣٦) ٠

كانت حامية الاسكندرية تقدر بحوالى خمسين ألف رجل (٣٧) ٠ وكانت المدينة غاية فى الحصانة « حصون متينة لا ترام حصن دون حصن » (٣٨) بالاضافة الى أن الروم كانوا مسيطرين على البحر بأساطيلهم وكان المدد يأتى

---

(٣٤) ملحق رقم (١) ٠

35. Patrologia : Op. Cit., p. 474.

(٣٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٧٣ ٠

(٣٧) د٠ السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٠ ، د٠ العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٤٩ ، مقدمة المحقق د٠ عبد الله أنيس الطباع لكتاب عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : فتوح افريقيا والاندلس ، ص ٨ ويذكر الاخير أن عدد قوات الجيش الاسلامى الزاحف على الاسكندرية كان عشرين ألفـــا ٠

(٣٨) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١، ص ١١٨ ٠

اليهم عن هذا الطريق (٣٩) « كانت رسل ملك الروم تختلف الى الاسكندرية فى المراكب بمادة الروم » (٤٠) ٠ وبذلك توافرت المؤن بالمدينة (٤١) ٠

كذلك كانت المدينة محمية من ثلاث جهات ، من ناحية البحر المتوسط شمالا وبحيرة مريوط جنوبا وقناة الثعبان غربا ، ولم يتيسر الوصول الى الاسكندرية الا من جهة الشرق والجنوب الشرقى ٠ على أن المحاصرين لم يكن بوسعهم أن يقتربوا من الأسوار من هذه الناحية ، نظرا لوقوعهم هدفا للرماه من فوق الأسوار ، وزاد من مناعة المدينة ما يحيط بها من أسوار ضخمة تحميها الآلات القوية (٤٢) ٠

والحقيقة ان أحوال الاسكندرية نفسها ساعدت على فتح المسلمين لها وذلك بسبب سوء حالة جيش الروم بها لتنازع القواد ولانقسام الرأى الاسكندرى أثناء حصار العرب للمدينة ٠ وكانت كراهية الناس لبيزنطة السبب الرئيسى للتخاذل والضعف فتخلوا عنها ، اذ اشتد سخط السكان لما جرى من فساد الحكم وثقل وطأة الضرائب وكثرة أنواعها ، والاضطهاد الدينى والاضطراب والفوضى الناشبة فى البلاد (٤٣) ٠

يضاف الى ذلك كله اضطراب أمور دولة الروم نفسها بعد موت هرقل فى ١١ فبراير ٦٤١ م / ٢٠ هـ (٤٤) « صرعه الله فأماته وكفى المسلمين

---

(٣٩) د٠ سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٣ ٠

(٤٠) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٨ ٠

(٤١) د٠ السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٠ ٠

(٤٢) د٠ العرينى : المرجع السابق نفس الصفحة ٠

(٤٣) د٠ العرينى : المرجع السابق ص ٤٢٨ ٠

(٤٤) د٠ سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٣ ، د٠ السيد الباز العرينى٠ مصر البيزنطية ، ص ٤١٧ ٠ اختلف فى تاريخ وفاة هرقل فالبعض يذكر أنها سنة تسع عشرة هجرية والبعض الاخر يذكر أنها كانت سنة عشرين هجرية (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٩

Agapitus : Kitab Al-Unvan : Patrologia Orientalis, V. VIII, p. 478.

ويذكر الاخير أنها كانت سنة ٩٥٢ لذى القرنين ، ١٩ للعرب ، ٧ لعمر ٠

مؤنته » (٤٥) · وبذلك كسرت بموته شوكة الروم (٤٦) ووهن أمرهم « فقد رجع جمع كثير ممن كان قد توجه الى الاسكندرية » · (*)

ظل العرب محاصرين للاسكندرية مدة ثلاثة أشهر (٤٧) ، بل قيل ان حصارها امتد الى أربعة عشر شهرا « تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك » (٤٨) ·

أثرت أوضاع دولة الروم الداخلية على قوات الروم المحاصرين فى الاسكندرية وسهلت سقوط المدينة فى يد العرب · فبوفاة هرقل تولى ابنــاه قسطنطين وهرقل الثانى ونصبت الامبراطـــــورة مارتينة أم ولده هرقل أو هرقلونس شريكة لهما فى الحكم ، فعملت هذه الامبراطورة على انهاء الحرب لانشغالها وساسة الروم بالفتن الداخلية التى قامت من أجل النزاع على العرش وصادفت سياستها هوى لدى المصريين وبعض الحكام الروم المسيطرين على سير الأمور فى مصر ، وعلى وجه الخصوص دومنتيانوس Domentianus الذى كان مواليا للامبراطورة مارتينا ، لذا اجتمعوا واتفقوا مع قيــرس ــ الذى كان قد أعيد الى مصر (٤٩) ــ على انهاء الحرب بعقد صلح مـــع

---

(٤٥) ابن عبد الحكم · فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١١٩ ·

(٤٦) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٥ ·

(*) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١١٩ ·

(٤٧) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٠ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٣٠٧ ·

(٤٨) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١١٩ ·

(٤٩) مات الامبراطور قنسطنطين فى ٢٥ مايو ٦٤١ م فتولى العرش هرقلونس ابن هرقل من مارتينا التى ظلت تشاركه فى الحكم ، وتوجه سياسة البلاد وظل هرقلونوس يحكم حتى سبتمبر ٦٤١ حينما شاركه قنسطانز فى الحكم · وذلك بعد رحيل كيرس الى مصر مصحوبا بعدد كبير من القساوسة وتكليفه بعقد صلح مع العرب لوضع نهــاية لكل المقاومات المستقبلة فى البلاد وليعيد تنظيم الادارة فى مصر ·
(Alfred Butler : The Arab Conquest of Egypt, p. 305).

على أن كيرس حمل الامبراطور والامبراطورة والسناتور ورجال البلاط على الانصياع الى رأيه الذى يقضى بأنه لا سبيل الى المقاومة ولابد من الاذعان للعــرب (د· السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٣) ·

المسلمين ٠ وبالفعل انتهت تلك المساعى بعقد معاهدة بابليون الثانية أو معاهدة الاسكندرية (٥٠) وذلك فى ٨ نوفمبر ٦٤١ م (٥١) ٠

بل قيل أن من أهم العوامل التى ساعدت على عقد معاهدة بين المسلمين والروم أن الفوضى التى سادت العسكريين أدت الى تفكك قيادة الجيوش الرومية المدافعة عن مصر ، وغدا الاستبسال فى الدفاع عن البلاد المصرية ضد الجيوش الاسلامية الغازية حركات فردية يقوم بها هذا القائد أو ذاك ٠ وكان من بين القواد الذين قاوموا الجيوش الاسلامية مقاومة عنيفة القائد مانويل الذى صمد لحصار عمرو بن العاص للاسكندرية ، وكاد يبعث الضجر فى نفوس المحاصرين العرب ٠ وما أن توفى هرقل حتى عم الاضطراب فى القسطنطينية ويئس مانويل من وصول امدادات تشد أزره فى الدفاع عن الاسكندرية وانسحب منها بحرا ٠ فى الوقت الذى منحت فيه مارتينا ــ صاحبة النفوذ الأعلى فى دولة الروم آنذاك ــ للمقوقس سلطة مفاوضة العرب فى مصر (٥٢) ٠ وبالفعل قام بعقد المعاهدة التى عرفت بمعاهدة الاسكندرية٠ وكانت أهم شروط تلك المعاهدة ما يلى :

١ ــ أن يدفع الجزية كل من تنطبق عليه المعاهدة ٠

٢ ــ عقد هدنة بين الطرفين مدتها احدى عشر شهرا تنتهى فى أول شهر بابه القبطى الموافق الثامن والعشرين من شهر سبتمبر ٦٤٢ م ٠

٣ ــ أن يكف العرب والروم فى أثناء تلك الهدنة عن القتال ٠

٤ ــ أن ترحل حامية الاسكندرية فى البحر ، ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم ٠ على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزءا معلوما ما بقى فى أرض مصر فى رحلته ٠

٥ ــ ألا يعود جيش من الروم الى مصر أو يسعى لردها ٠

---

(٥٠) د٠ سيدت كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٣ ــ ١٤ ٠

(٥١) د٠ الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٥ ٠

(٥٢) د٠ ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥١ ٠

٦ ـ أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا فى أمورهم ٠

٧ ـ أن يتاح لليهود الاقامة فى الاسكندرية ٠

٨ ـ أن يبعث الروم رهائن من قبلهم ، مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من المدنيين ضمانا لتنفيذ المعاهدة (٥٣) ٠

كان لابد من اقرار تلك المعاهدة من جانب الخليفة عمر بن الخطاب وامبراطور الروم ٠ وفى انتظار ذلك كان على كيرس (المقوقس) أن يقنع أهل الاسكندرية بضرورة الموافقة على هذا الصلح حتى قيل أنه كان يبكى « وهو يطلب من الناس أن يصدقوا أنه انما بذل جهده فى أمرهم وأن يرضوا بالصلح الذى عقده من أجلهم » وبالفعل عاد الناس الى رأى الجيش ورضوا بالنزول عن مدينتهم للعرب وأخذوا يجمعون قسط الجزية وهو ثلث المقدار المطلوب وأعطوه للمسلمين فى ١٠ ديسمبر ٦٤٩ م / المحرم سنة ٢١ هـ (٥٤) ٠ وكان المبلغ يقدر بحوالى ثلاثة عشر ألف دينار (٥٥) ٠

وفى نفس الوقت أخذ العرب يخضعون البلاد ريثما يتم التصديق على المعاهدة فاستولوا على مدن كثيرة بالدلتا مثل رشيد والبرلس ودمياط وتنيس (٥٦) ٠

وقد اختلف فى فتح الاسكندرية الأول على يد العرب ، فالبعض يذكر

---

53. Butler : The Arab Conquest of Egypt, p. 320. عن حنا النقيوسى (John of Nikiou)

د٠ السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٦ ، د٠ سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٤ ٠

(٥٤) د٠ السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ عن Diehl Butler ٠ على أن البطريرك كيرس لم يعش حتى يشهد الجلاء النهائى للروم لانه مات فى ٢١ مارس ٦٤٢ م (د٠ الباز العرينى : المرجع السابق ص ٤٣٠)

(٥٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٠ ٠

(٥٦) د٠ السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ٤٢٩ ٠

أنه كان « سنة عشرين » (٥٧) والبعض الآخر يذكر أنه كان « سنة احـــدى وعشرين » (٥٨) ورأى أخير يذكر أنه كان « سنة اثنين وعشرين » (٥٩) ·

وهكذا استسلمت الاســـكندرية للعرب الفاتحين عن طـريق معــاهدة الاسكندرية السابقة الذكر · وتم للعرب بذلك الاستيلاء على « أعظم موقـــع استراتيجى ، مفتاح الشمال الافريقى بأسره ومركز حضارة ومدنية عمـــل الزمن وساعدت الظروف السياسية على اقامتها فى الطرف الشمالى الشرقى من القارة الافريقية » (٦٠) · ولكن بالرغم من ذلك وبالرغم من ارتفاع مكانة الاسكندرية بتلك الصورة فان المسلمين لم يستخدموا تجاهها أى ضغط أو قوة فى بادىء الأمر (٦١) ·

ويقال انه لما هزم الله الروم وفتح الاســـــكندرية هرب الروم فى البر والبحر ، فخلف عمرو بن العاص بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى هو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر فرجع من كان هرب من الروم فى البحر الى الاسكندرية ، فقتلوا من كان فيها من المسلمين الا من هرب منهم · وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعا ، ففتحها وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب أن الله فتح عليهم الاسكندرية « عنوة بغير عقد ولا عهـــد » (٦٢) ·

وعندما دخل عمرو بن العاص الاسكندرية فى ٢٩ سبتمبر ٦٤٢ م (٦٣)

---

(٥٧) اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٩ ، ١٢٩ ·

(٥٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٧٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٧ ، ٣١٤ · ويذكر الاخير أن ذلك كان فى مستهل المحرم من السنة ·

(٥٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٧٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٤ ·

(٦٠) مقدمة المحقق عبد الله أنيس الطباع لكتاب عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : فتوح افريقيا والاندلس ، ص ٨ ـ ٩ ·

61. Alfred Butler : Op. Cit., p. 322.

(٦٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٢١ ·

63. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115,

د· الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٠

وجد بها « ألف مركب من مراكب الروم الكبار » (٦٤) فجلا عنها الروم الذين كانوا يقدرون « بمائتى ألف » (٦٥) وغادرها الأسطول الرومى فى الثانى عشر من سبتمبر (٦٦) أو السابع عشر منه ٦٤٢ م / ٢١ هـ « بعد أن استمرت قواته بها عشرة قرون من الزمان » (٦٧) · وقد اتجه الأسطول بعد مغادرة الاسكندرية الى جزيرة رودس (٦٨) · وقدر عدد الروم الذين غادروا الاسكندرية عندئذ بثلاثين ألفا حملوا معهم ما استطاعوا حمله من المال والمتاع والأهل ، أما من بقى فقد اعتبر أسيرا ، « وبقى من الأسارى من بلغ الخراج فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان » (٦٩) ·

استخلف عمرو بن العاص على الاسكندرية « عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم بن عمر بن هضيض بن كعب بن لؤى » (٧٠) وترك بالمدينة ربع القوات التى معه وجعل الربع الثانى بالسواحل ، أما النصف الباقى فكان معه · وكان الربع الذى يقيم بالاسكندرية يقيم لمدة ستة أشهر فى

---

(٦٤) ابن اياس . بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢ · أما السيوطى · حسن المحاضرة جـ ١ ، ص ١٢٢ فيذكر أن عدد المراكب كان مائة لا ألف · كذلك يضيف ابن اياس أن عمرو عبر فى رسالته للخليفة عمر بن الخطاب عن مدى عظم المدينة « ···· وجدت بها اثنى عشر الف بقال يبيعون صنف البقولات فى جوانب المدينة بعد العصر ··· »

(٦٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨٢ ، المقريزى · الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٠٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٢٢ ·

66. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115,

د· الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٠

67. Paul Lemerle : Le monde de Byzance, Histoire et Institutions, p. 354.

68. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

د· الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٠

(٦٩) ابن عبد الحكم · فتوح مصر واخبارها ، ص ٨٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٢٢ · ويقال أن بيوت الاثرياء التى كانت حول الاسكندرية وقعت غنيمة فى يد المسلمين الذين حصلوا على غنيمة هائلة فاقتلعوا من معظم المنازل الاخشاب والحديد وأرسلوها فى مراكب نقل البضائع فى النيل الى حصن بابليون ليستخدموها فى عمليات اقامة الجسور
(Butler : The Arab Conquest of Egypt, p. 296).

(٧٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٠ ·

الصيف ثم يعقبهم ربع آخر ستة أشهر فى الشتاء (٧١) ٠

وكان عمر بن الخطاب « يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية فكانت الولاه لا تغفلها وتكشف رابطتهـــا ولا تأمن من الروم عليها » (٧٢) ٠ وكان المرابطون فى الاسكندرية من المجاهدين ينزلون دورا خصصت لهم وكانت الدار الواحدة أحيانا ما تسكنها قبيلتين أو ثلاث (٧٣)٠

---

(٧١) المقريزى : الخطط ، حـ ١ ، ص ٢١٠ ـ ٢١١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ، ص ١٦٣ ٠ هنا تذكر الدكتورة سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ٠٠٠ ، ص ٨٠ « ان حامية الاسكندرية أو رابطتها كانت تقيم فى المدينة ستة اشهر تبدأ من شهر أبريل ، فقد ذكر المقريزى أن احتراس البحر بالاسكندرية يبدأ من خميس العهد أو خميس العدس وينتهى بشهر اكتوبر ، وفى اكتوبر تنهى الحـــــامية اعمالها فتغادر الاسكندرية الى داخل البلاد ، حيث تقضى فصل الشتاء فى أعمال أخرى تقتضيها احوال البلاد بينما تحل محلها حامية أخرى أقل عددا وعدة وتبقى فى الثغر حتى أخر شباط (فبراير) » ٠

(٧٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٣ ٠

(٧٣) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١١ « كان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه ، واتخذوا فيه أخائذ فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه فى منزل فيها ، ثم يأتى الاخير فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار ، فكانت الدار تكون لقبيلتين وثلاث » وهنا تعقب الاستاذة الدكتورة سـعاد ماهر فى كتـــابها : البحرية فى مصر الاسلامية ٠٠٠ ، ص ٨٠ ـ ٨١ على ذلك بقولها (ان الظروف كانت غير مواتية فى ذلك الوقت لبناء رباط أو نكنات لاقامة الحامية فقد خصص لها عمرو الدور والقصور التى تركها الروم عند جلائهم عن المدينة مفضلا هذا عما اقتضته شروط الصلح التى تنص على أن ينزل العرب ضيوفا على أهل المدينة يقدمون لهم الطعام والعلوفة لخيلهم ٠٠ وكانت الدور تعطى فى أول الامر للعريف ورجاله عندما يأتون للمرابطة ، حتى اذا ما انتهت دورتهم الصيفية حلت محلهم حامية الشتاء ، وقد أدى نظام الشيوع هذا الى خراب الدور لتركها دون ترميم أو صيانة ، ولكن عمرا لاحظ هذا العيب وعمل عـلى تلافيه فرأى أن تؤول المنازل لساكنيها ولبنيهم لذلك قرر عند ذهابه من الفسطاط الى الاسكندرية « أن الرجل يدخل الدار فيركز رمحه فى منزل ثم يأتى الاخر فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار ، فكان الدار تكون لقبيلتين أو ثلاثة حتى اذا نقلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها ٠ وبهذا كان يسمح للروم بسكنى الدور فى الوقت الذى تخلو فيه من حاميتها الصيفية والشتوية على أن يقوموا بترميمها وصيانتها بدلا من الكراء لانهـا كانت وفقا لشروط الصلح ملكا عاما للعرب) ٠

هنا نود أن نشير الى نقطة هامة ، هى أن عمرو بن العاص بعد أن أتم فتح الاسكندرية طلب منه أن يقسمها بين الفاتحين فاعتذر بأنه لن يفعل ذلك الا بعد أن يأخذ رأى أمير المؤمنين « لا أقدر على قسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين » وبالفعل كتب اليه فى هذا الشأن فرد عليه عمر بألا يقسمها وأن يتركها ليكون خراجها « فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم » (٧٤) فتركها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج (٧٥) ٠

واذا كانت مصر كلها بعد فتح العرب لها تدفع للفاتحين جزية عن الرأس تقدر بدينارين « لا يزاد على أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من دينارين الا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع » فان أهل الاسكندرية كانوا يؤدون الخراج والجزية « على قدر ما يرى من وليهم » لأن الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة (٧٦) ٠

والحقيقة أن هذه النقطة كانت احدى الأسباب الهامة التى أدت الى نقض أهالى الاسكندرية لما عاهدوا عليه العرب الفاتحين ٠ فقد قيل ان (صاحب اخنا) قدم على عمرو وقال له أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فرد عليه عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة : « لو أعطيتنى من الركن الى السقف ما أخبرتك انما أنتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم » لذا غضب صاحب اخنا وخرج الى الروم وأثارهم ضد المسلمين فقدموا الى الاسكندرية لمحاربتهم وبذلك نقضوا العهد الذى كان بينهم (٧٧) ٠

---

(٧٤) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٩ . السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٢٢ ٠

(٧٥) السيوطى : المصدر السابق نفس الصفحة ٠

(٧٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨٢ ـ ٨٣ . المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٩ ٠

(٧٧) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٣ . السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٩ ٠ (هنا يذكر ابن عبد الحكم أنه بعد مجىء الروم الى الاسكندرية بعد استثارة صاحب اخنا لهم وبعد أن تمت هزيمتهم أسر صاحب اخنا (النبطى) وجىء به الى عمرو فقال له الناس اقتله فقال : لا بل انطلق فجئنا بجيش اخر) ٠

فاذا كان موقف صاحب اخنا هذا هو أحد الأسباب التى جعلت الروم ينقضون عهدهم مع عمرو بن العاص ويعاودون القدوم الى الاسكندرية مره آخرى لاستعادتها ، فان المصادر والمراجع المختلفة أعطتنا عدة أسباب آخرى يمكننا أن نضيفها الى هذا السبب منها :

انه بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان عـزل عمرو بن العاص عن مصر سنة ٢٥ هـ فانتهزت دولة الروم تلك الفرصة لتقوم بهجوم مضاد ضد مصر (٧٨) ٠

بل قيل أنه فى ٢٥ هـ / ٦٤٥ م خالف أهل الاسكندرية ونقضوا صلحهم وكان سبب ذلك « أن الروم عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية وظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الاسكندرية عن ملكهم فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح ، فاجابوهم الى ذلك » (٧٩) ٠ فى حين يذكر رأى آخر أن أهل الاسكندرية نقضوا العهد سنة ٢٥ هـ « لان ملك الروم بعث اليهم (معويل) الخصى فى مراكب فى البحر ، فطمعوا فى النصـرة ونقضوا ذمتهم » (٨٠) ٠

كما ذكر أيضا أن جماعة من زعماء الاسكندرية أنفـذوا كتبـا الى الامبراطور قنسطانز الذى انفرد بالحكم بعد وفاة هرقلونس يسألونه النهوض لمساعدتهم ، وشرحوا له أنه ليس بالاسكندرية الا حامية ضعيفة لا تقـوى على دفع جيش الروم ٠ فأثرت تلك الكتب فى الامبراطور الذى لم ينس ما لحق بدولته من الضرر من ضياع مصر (٨١) ٠

ومهما اختلفت الآراء فقد حدثت انتفاضة فعليه من جانب الروم ومحاولة جادة لاستعادة الاسكندرية ٠ وذلك سنة ٢٥ هـ أشارت اليها بعض المصادر

---

78. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

(٧٩) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨١ ٠

(٨٠) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٦٥ ٠ والمقصود بمعويل هنـا منـويل ٠

(٨١) د٠ السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٣٢ ٠

اشارات موجزة (٨٢) ، وأسهبت بعض المصادر الأخرى فى ذكر تفاصيلها (٨٣) ٠

فقد أرسل الامبراطور قنسطانز الثانى فى ٢٥ هـ / ٦٤٥ م أسطولا كبيرا هدفه اجلاء العرب عن مصر اجلاء تاما (٨٤) ٠ ورست قطع الأسطول الرومى بقيادة (منويل الخصى) (٨٥) بالاسكندرية « وأجابهم من بها من الروم ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث » (٨٦) ٠

والواقع أن الروم توخوا السرية التامة فى ارسال تلك الحملة ، وكانت دولة الروم الى ذلك الحين لا تزال على سلطانها فى البحر « غير مدافعين ولا معاندين » وعلى العكس من ذلك كان العرب ، فلم يكن لهم فى ذلك الوقت سفينة واحدة فى البحر المتوسط تأتيهم بأخبار أسطول الروم الذى بعث به الامبراطور للاستيلاء على الاسكندرية ، فما شعر العرب الا وأسطول الروم يدخل ميناء الاسكندرية فى ثلثمائة سفينة ، وألقى فيها مراسيه غير مدافع ،

---

82. Agapitus: Kitab Al-Unvan: Patrologia Orientalis, V. VIII, p. 479.

اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٦٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ١ ، ص ٣٥ ٠

(٨٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٧٥ ـ ١٧٧ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١، ص ٢١١ ـ ٢١٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٥٩ ـ ١٦٢ ، ابن الاثير: الكامل ، جـ ٣ ص ٨١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢٠ ٠

(٨٤) د٠ سيده كاشف : العرب والبحار ، الكتاب السنوى الثانى للعام الجامعى ٩٥ / ١٣٩٦ هـ ـ الرئاسة العامة لتعليم البنات ـ كلية البنات بالرياض ، ص ٨٠ ٠ هنا أخطأ كل من ابن الاثير والسيوطى فى التحديد الزمنى لتلك الحملة وفى ذكر اسم الامبراطور الذى أرسلها ٠ فذكرا ان السنة كانت (سنة ٣٥ هـ) وأن الامبراطور كان (قسطنطين بن هرقل) ٠ ومن المرجح أن الخطأ وقع فيه ابن الاثير أولا ثم نقله عنه السيوطى فى كتابه ٠ (ابن الاثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٢) ٠ أما ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢ فيذكر أن امبراطور الروم فى ذلك الوقت كان قسطنطين بن هرقل وأنه هو الذى خرج بنفسه الى الاسكندرية فى ألف مركب مشحونة بالرجال المقاتلين ٠

(٨٥) هو القائد البيزنطى (الرومى) الذى استبسل فى الدفاع عن الاسكندرية فى حصارها الاول ودافع عنها دفاعا مجيدا (د٠ ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥١)

(٨٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٧٥ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٠ ٠

ولم يكن بالمدينة الا ألف رجل من العرب للدفاع عنها فتغلب عليها العـــرب وقتلوهم الا عددا قليلا (٨٧) ٠

وبالفعل تم استيلاء جيش الروم على الاسكندرية فى نهاية ٦٤٥ م / ٢٥ هـ وزحف من بعدها الى ما يليها من بلاد الدلتا ينهب فيها ويغتصب من السكان ما لديهم من القمح والنبيذ والمال (٨٨) ٠ عندئذ تحرج مركز العـرب فى مصر وكان الوالى اذ ذاك عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان (٨٩) ٠

والحقيقة أن انتصار الروم فى ذلك الوقت كان « نصرا مؤقتا » (٩٠) فقد طلب أهل مصر عندئذ من الخليفة عثمان بن عفان أن يقر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم ، فان له خبرة ودراية بمحاربة الروم فنفذ طلبهـم (٩١) ٠ وبالفعل أعيد عمرو الى مصر ، فكانت اعادته عملا هاما وخطوة موفقة، حيث أتيح فيها لقاء فاتح مصر الأول والخبير بشئونها بالقائد مانويل البيزنطى العنيد الذى كان كل هدفه أن يعيد مجد دولته فى مصر » (٩٢) ٠

---

(٨٧) د٠ سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٧٧ ، د٠ ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥١ ٠

(٨٨) د٠ السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٣٣ ٠

(٨٩) د٠ سيده كاشف : العرب والبحار ، المرجع السابق ، ص ٨٠ ـ ٨١ ٠ كان عمر بن الخطاب قد توفى سنة ٢٣ هـ وخلفه عثمان بن عفان رضى الله عنهما فعــزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح مكانه ٠ وكان عمر بن الخطاب قد ولى عبد الله بن سعد من الصعيد الفيوم ، فلما استخلف عثمان بن عفان طمع عمرو ابن العاص أن يعزل له عثمان عبد الله بن سعد عن الصعيد فرد عليه عثمان بقـوله لقد ولاه عمر بن الخطاب الصعيد وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة « وهو أخى فى الرضاعة فكيف أعزله عما ولاه غيرى ، فغضب عمرو فعزله عثمان وولى عبد الله على مصر كلها » وكان ذلك سنة خمس وعشرين للهجرة وقبل عودة الروم لغزو الاسكندرية (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ٠

90. Bernard Lewis : The Arabs in History, Hutchinson, p. 54, G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

(٩١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ص ١٧٥ ، الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه، ص ١١ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٠ ٠

(٩٢) د٠ العدوى ٠ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٢ ٠

سار عمرو لملاقاة عدوه بجيش مكون من « خمسة عشر ألفا » (٩٣) وانضم الى المقوقس من اطاعه من القبط أما الروم فلم يطعه منهم أحد . فأشار البعض على عمرو بن العاص أن يسرع فى مهاجمتهم قبل أن يكثر عددهم وأنه لا يأمن « أن تنتفض مصر كلها » فرفض عمرو قائلا دعهم حتى يسيروا الى فانهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض » (٩٤) .

وبالفعل خرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينهبون ما مروا به فلم يعترض لهم عمرو حتى بلغوا نقيوس فلقوهم فى البر والبحر ودارت بين الجانبين معارك شديدة طاردهم المسلمون فيها حتى الاسكندرية وانتهت بانتصار المسلمين ومقتل قائد الروم منويل الخصى (٩٥) ، أو هروبه للقسطنطينية (٩٦) ، ولو أنه يرجح أنه قتل ، وذلك فى صيف ٦٤٦ م (٩٧) .

وقد قتل مع قائد الروم أعدادا غفيرة منهم ، وفى النهاية تدخل البعض وطلبوا من عمرو أن يرفع السيف عنهم . وبالفعل تم ذلك ، وبنى فى ذلك الموضع الذى رفع فيه السيف مسجدا وهو المسجد الذى يعرف فى الاسكندرية بمسجد الرحمة ، والذى سمى بذلك لرفع عمرو السيف هناك (٩٨) . أما من

---

(٩٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٠ .

(٩٤) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، السيوطى : المصدر السابق، ج ١ ، ص ١٦٠ .

(٩٥) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١١ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٢ ، د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٢ ، د. سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٦ ؛

Aly Mohamed Fahmy : Op. Cit., p. 78.

96. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115,

د. السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤١

97. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 115,

د. السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، نفس الصفحة ، د. العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٣٣ .

(٩٨) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦١ . وهنا تضيف الدكتورة سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٧٩ (لعل مكانه الان حديقة الشلالات مكان ضريح سيدى عمر بن يحيى) .

(هجمات الروم)

نجا من القتل من الروم فقد لجأوا الى السفن وهربوا بها بحرا (٩٩) ٠

وهكذا تشدد عمرو بن العاص فى موقفه من الروم فى الاسكندرية هذه المرة ٠ وقد عبرت المصادر والمراجع المختلفة عن ذلك بصور شتى ، فمثلا البلاذرى يذكر أنه « دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية » (١٠٠) أما اليعقوبى فيقول أن عمرو فتح الاسكندرية سنة ٢٥ هـ « وسبى الذرارى ووجه بهم الى المدينة فردهم عثمان الى ذمتهم الأولى » (١٠١) ٠ بينما يذكر ابن عبد الحكم والمقريزى أن عمرو فتح الاسكندرية فى هذه المرة « عنوة وقسرا » (١٠٢) فى حين يكتفى الكندى بالقول بأن الاسكندرية « فتحت الفتح الثانى عنوة سنة خمس وعشرين » (١٠٣) بينما يذكر ابن كثير أن عمرو بن العاص غزا أهل الاسكندرية « فى ربيع الأول سنة ٢٥ هـ فافتتح الارض عنوة وافتتح المدينة صلحا » (١٠٤) ٠ أما ابن العماد فيذكر أن عمرو « قتل وسبى » (١٠٥) فى الوقت الذى اكتفى المؤرخ (الفريد بتلر) بالقول بأن الاسكندرية تم الاستيلاء عليها نهائيا بالقوة (١٠٦) ٠

والواقع أنه مهما اختلفت الآراء فان الاسكندرية فتحت فى المرة الثانية بالقـوة ٠

وكان الروم عندما خرجوا من الاسكندرية وتوجهوا الى الوجه البحرى قد أخذوا الأموال من أهل القرى التى مروا بها سواء من أيدهم أو عارضهم فلما انتصر المسلمون عليهم جاء الفريق المعارض للروم وطلبوا من عمرو أن

---

(٩٩) د٠ السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٣٣ ٠

(١٠٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١١ ٠

(١٠١) اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ ٠

(١٠٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٠٠ ، جـ ١ ، ص ١٧٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٤ ٠

(١٠٣) الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ١١ ٠

(١٠٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٦٥ ٠

(١٠٥) ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ١ ، ص ٣٥ ٠

106. Alfred Butler : Op. Cit., p. 323.

يرد عليهم أموالهم ودوابهم لأنهم لم يخالفوهم « فرد عليهم ما عرفوا من أموالهم بعد اقامة البينة » (١٠٧) .

هذا وقد هدم عمرو سور الاسكندرية وتركها بغير سور لأنه كان قد حلف أنه اذا نصره الله على الروم وأجلاهم عن الاسكندرية فى تلك المرة ، أن يهدم سورها ويجعلها « مثل بيت الزانية يؤتى من كل جانب » (١٠٨) .

وقد ساعد الأقباط العرب الفاتحين ضد الروم واستسلموا لحكمهم مما يثبت أنهم « فضلوا الخضوع للعرب عن الخضوع لبيزنطة » (١٠٩)

أما عمرو بن العاص فلم يستمر فى ولاية مصر بعد فتح الاسكندرية الثانى سوى شهرا واحدا عزله بعده عثمان بن عفان وولى عبد الله بن سعد (١١٠) .

وبالنسبة لحركة الفتوحات الاسلامية فانها سارت قدما فى طريقها الطبيعى واستولى العرب بعد فتح الاسكندرية الثانى على السواحل « فيما بين الاسكندرية والفرما » (١١١) . بل ان الخليفة عثمان بن عفان تشـــدد بعد ذلك فى توصياته بضرورة الحفاظ على الاسكندرية والسهر على حراستها، وهذا ما عبر عنه عندما كتب لواليه على مصر ـ عبد الله بن سعد بن أبى سرح يقول « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية ، وقد نقضت الروم

---

(١٠٧) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١، ص ١٦١ .

(١٠٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٧٥ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ٨١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ . ص ١٦٠ .

109. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115,

د. السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤١

فقد قاد البطريرك المونوفيزيتى بنيامين الشعب السكندرى فى مظاهرة ضد الروم وأعلن الخضوع لحكم المسلمين .

(١١٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٧٨ .

111. Agapitus : Kitab Al Unvan : Patrologia Orientalis, V. VIII, p. 479.

مرتين . فالزم الإسكندرية مرابطيها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم في كل ستة أشهر (١١٢) .

والواقع أنه بعد فتح العرب الاسكندرية للمرة الثانية ، استمرت مصر بصفة دائمة تحت الحكم الاسلامي (١١٣) .

ولقد كانت أهمية مصر بالنسبة لدولة الروم ، وعدم قدرة الأخيرة على التسليم بضياع مصر هو الدافع وراء المحاولات الدائبة التي قامت بها دولة الروم لاستعادة تلك البقعة الشديدة الأهمية بالنسبة لاقتصادها . وقد تمثلت أولى تلك المحاولات بعد حوالي تسع سنوات من استيلاء العرب النهائي على الاسكندرية ونقصد بها موقعة ذات الصواري البحرية الشهيرة .

---

(١١٢) المقريزي : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١١ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٣ ، والمقصود بأمير المؤمنين هنا عمر بن الخطاب .

113. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

موقعة ذات الصوارى (*)

اختلفت المصادر والمراجع فى تحديد تاريخ تلك المعركة ، فالبعض يذكر أنها كانت سنة « احدى وثلاثين للهجرة » (١١٤) ، والبعض الآخر يذكر أنها كانت سنة « أربع وثلاثين » (١١٥) فى حين يذكر فريق ثالث أنها كانت سنة « خمس وثلاثين » (١١٦) قبل مقتل عثمان بن عفان » (١١٧) ٠

يرجع السبب البعيد لتلك الموقعة الى أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح لما أصاب الروم « بافريقية » خرجوا لمحاربته (١١٨) أو أنه لما أصاب من الفرنج والبربر ببلاد افريقية والأندلس « حميت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل » (١١٩) ـ والمقصود هنا قنسطانز الثانى (٦٤١ ـ ٦٦٨ م (١٢٠)/

(*) سميت تلك الموقعه بموقعة ذات الصوارى ، « لكثرة صـــوارى المراكب واجتماعها » (الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ١٢ ٠

(١١٤) الطبرى : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٢٨٨ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١١٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ص ١٧١ ، د٠ على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٤٤ ٠

(١١٥) الطبرى : المصدر السابق ، ص ٢٨٨ ، الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ١٣ ابن الاثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١١٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٧ ، ص ١٧١ ،د٠ سيده كاشف ٠ العرب والبحار ، المرجع السابق ، ص ٨٢ ، د٠ العدوى : الامبراطورية البيزنطية ٠٠٠ ، ص ٥٣ ، د٠ سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ٠٠٠ ص ٨٠ ٠

(١١٦) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٢ ٠

(١١٧) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ ٠ وقد قتل عثمان « فى ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذى الحجة » سنة خمس وثلاثين (المسعودى : مروج الذهب ومعـادن الجوهر ، جـ ٢ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الثالثة ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ م) ، ص ٣٥٥ ٠

(١١٨) الطبرى : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٢٩٠ ٠

(١١٩) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٧٢ ٠

120. G. Ostrogorsky : Op. Cit., pp. 114, 580,

د٠ الباز العرينى : الدولة البيزنطية، ص ٩٨٥

٢١ ـ ٤٨ هـ) ـ وساروا لمحاربة المسلمين · وثمة رأى آخر يذكر « أن الروم انتهزوا فرصة انشغال عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى محاربة (سبيطلة) من أرض تونس سنة ٢٧ هـ وجاءوا بأسطول كبير لمحاربته » (١٢١) ·

أما السبب المباشر لتلك الموقعة فيقال أنه لما استولى العـــرب على الاسكندرية « جاءت الروم الى قســـطنطين بن هرقل وقالوا له : أنترك الاسكندرية فى أيدى العرب وهى مدينتنا الكبرى ؟ » (١٢٢) ثم طلبوا منه أن يخرج بهم لاسترداد الاسكندرية « فأخرج على أنا نمـــوت فتبايعوا عـلى ذلك » (١٢٣) وخرجوا بأسطول بحرى كبير اختلفت المصادر فى تعداده · فبينما ذكر الطبرى أنه كان مكونا من « خمسمائة مركب » (١٢٤) ، نجـد الطبرى قد ذكر فى موضع آخر ، وأيده ابن الأثير فى هذا الرأى ، وهو أنه كان يتراوح بين « خمسمائة أو ستمائة » (١٢٥) بينما ذكرت بعض المصادر الأخرى أنه كان حوالى « ألف مركب » (١٢٦) بل قيل ان ملك الروم خرج

هنا يذكر استروجورسكى ص ١١٤ انه بناء على قرار اتخذه السناتو فى بيزنطة سنة ٦٤١ تقرر عزل مارتينا وهرقلونس وذلك بعد قطع لسان مارتينا وقطع انف هرقلونس تم نفيهما الى جزيرة رودس · واعتلى العرش ابن قنسطنطين الثالث الذى لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره والذى اتخذ اسم هرقل عند تعميده ، وهو اسم أبيه ، وعند تتويجه اتخذ اسم قنسطنطين وأطلق الناس عليه اسم قنسطانز (الثانى) وهو مصغر قنســطنطين ، وهو الذى أصــبح يعرف فيما بعد بالملتحى Pogonatus لاطلاق لحيته كلما تقدم فى السن · وربما كان اتخاذه اسم قنسطنطين عند تتويجه هو الذى جعل غالبية المصادر العربية تخطىء وتسميه (قنسطنطين بن هرقل) وعلى سبيل المثال لا الحصر · الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١١٧ ·

(١٢١) د· سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ··· ، ص ٨١ ·

(١٢٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٢ · وقد خلط ابن اياس هنا ايضا بين اسم قنسطنطين بن هرقل وقنسطانز ·

(١٢٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٢ ·

(١٢٤) الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ ·

(١٢٥) الطبرى : المصدر السابق ، ص ٢٩١ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٤ ، ص٢٨٨

(١٢٦) الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ١٣ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٦٢٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢ ·

« فى جمع لم يجتمع للروم مثله قط » (١٢٧) . بينما كان عـــدد مراكب المسلمين يقدر « بمائتى مركب ونيفا » (١٢٨) .

وثمة رأى يذكر أن سبب تلك الموقعة هو أنه فى سنة ٣٤ هـ / ٦٥٥ م أبحر الامبراطور قنسطانز على رأس عمارة بحرية لعرقلة الاســتعدادات البحرية التى كان المسلمون يعدونها فى موانى الشام لشن اغارة عــلى القسطنطينية (١٢٩) .

وكان الذى يتولى حكم مصر فى ذلك الوقت هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وهو يعتبر أمير البحر الثانى فى الاسلام ، وذلك بعد معاوية ابن أبى سفيان والى الشام قبل أن تصير له الخلافة (١٣٠) .

ولكن قبل أن نسترسل فى سرد أحداث تلك الموقعة الهامة نود أن نتساءل : أين دارت رحاها ؟ هل نشبت عنـــد فونيكس Phoenix قرب شواطىء ليكيا ، بآسيا الصغرى ؟ أم بالقرب من ثغر فونيكه عــرب الاسكندرية ؟

الواقع أن بعض المراجع الحديثة تؤكد أنها حـــدثت بالقــرب من الاسكندرية (١٣١) والبعض الآخر يذكر أنها حدثت بالقرب من شاطىء ليكيا (Lycian Coast) بآسيا الصغرى (١٣٢) . فى حين تركتها بعض مراجع

---

(١٢٧) الطبرى : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٢٩٠ .

(١٢٨) الكندى : المصدر السابق ، ص ١٣ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٤.

(١٢٩) د. ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية ... ، ص ٥٣ .

(١٣٠) د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى، ص ٧٢ ، د. سيده كاشف : العرب والبحار ، ص ٨٢ .

(١٣١) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ... ، ص ٨٤ ، د. عــلى ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٤٤ .

132. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 116,

د. الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٢ ، د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية ... ، ص ٥٣ .

أخرى دون تحديد مكتفية بالاشارة الى أنها اما حدثت بالقرب من آسـيا الصغرى أو الاسكندرية (١٣٣) ٠

ونحن نميل الى اعتبار أن تلك الموقعة حدثت بالقرب من شاطىء ليكيا بآسيا الصغرى ، ذلك لأن الطبرى مثلا يذكر فى خلال سرده التاريخى لها ، أن عبد الله بن سعد « ركب فى مركب وحده ما معه الا القبط حتى بلغوا ذات الصوارى ، فلقوا جموع الروم » (١٣٤) كذلك كتب ابن كثير أن عبد الله بن سعد « أقام بذات الصوارى أياما ثم رجع مؤيدا » (١٣٥) وذلك بعد احرازه للنصر ٠ هذا الى جانب ما ذكرته بعض المراجع الحديثة من أن تلك الموقعة كانت « جزءا من سياسة العرب الدفاعية لتأمين سلامة شواطئهم على البحر الأبيض المتوسط » (١٣٦) ٠

واذا كان الهجوم هو خير وسائل الدفاع ، فقد خرج عبد الله بن سعد بن أبى سرح بأسطول مصر لقتال الروم قرب شواطىء آسيا الصغرى ليحمى مصر من خطر الروم ٠

وقد هال عبد الله بن سعد كثرة عدد سفن الروم بالنسبة لعدد سفن المسلمين ، لذا بدأ يستشير أصحابه فيما يفعل ، وطرح القضية أمامهم لاتخاذ الرأى فيها قائلا : « بلغنى أن ابن هرقل قد اقبل اليكم فى ألف مركب فأشيروا على » ٠٠ وبعد تفكير عميق قام أحد رجال الاسكندرية وطلب من عبد الله ضرورة مواجهة العدو والبدء بمهاجمته فورا ، وعقب على رأيه بقوله : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين » (١٣٧) ٠

وبالفعل شحن عبد الله بن سعد سفن المسلمين بالرجال ولكنه لم يستطع أن يستفيد من كل القوة التى تحت يده ، لأن نصف القوات كانت قد خرجت

---

(١٣٣) د٠ سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٨٥ . د٠ سيده كاشف : العرب والبحار ، ص ٥٤ ٠

(١٣٤) الطبرى : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٢٩١ ٠

(١٣٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٧٢ ٠

(١٣٦) د٠ سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ٠٠٠ ، ص ٨٤ ٠

(١٣٧) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٤ ٠

مع بسر بن أرطأة فى البر ، لذا ركب فى كل مركب « نصف شحنته » (١٣٨) فقط ، كذلك شارك أهل الشام بقيادة معــــاوية بن أبى ســـــفيان فى تلك الموقعة (١٣٩) ٠

وقد أعطانا الطبرى وصفا تفصيليا لتلك المعركة حين ذكر انهم ربطوا سفنهم بسفن العدو ، حتى كانوا يضربون بعضهم بعضا على سفنهم وسفن أعدائهم ، فقاتلوا قتالا شديدا « حتى رجعت الدماء الى الساحل تضربها الامواج وطرحت الامواج جثث الرجال ركاما » (١٤٠) ٠ فقد قتــــل من الجانبين أعدادا كبيرة « فقتل من المســـــلمين بشر كثير وقتـــــل من الروم مالا يحصى » (١٤١) والراجح أن عدد قتلى الروم فاق عدد قتلى المسلمين حيث يذكر الطبرى ان الله نصر المؤمنين فقتلوا منهم مقتلة عظيمه « ولم ينج من الروم الا الشريد » (١٤٢) ٠

وثمة رأى آخر يذكر أنه بعد تحريض الروم لامبراطورهم وحثه على ضرورة استرداد الاسكندرية من المسلمين ، سار الامبراطور باسطول كبير لانجاز تلك المهمة لكن الله سبحانه وتعالى بعث عليهم رياحا عاصفة عاليه أغرقتهم ولم ينج منهم الا الامبراطور نفسه وعدد قليل من قواته ألقت بهم الريح بصقلية (١٤٣) ٠ فسأله أهلها عن أمره فأخبرهم بما حدث له ولقواته ،

---

(١٣٨) المقريزى : نفس المصدر ، ص ٣١٥ ٠

(١٣٩) ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١١٨ ، د٠ سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ٠٠٠ ص ٨٤ ٠

(١٤٠) الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ ٠ ذكر أحد شهود العيان لتلك المعركة أنه رأى الساحل حيث تضرب الريح الموج « وأن عليه مثل الظرب العظيم من جثث الرجال وان الدم الغالب على الماء » والمقصود بالظرب هنا ما نتأ من الحجارة وحدد طرفه ٠

(١٤١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١١٨ ٠

(١٤٢) الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩٢ ٠

(١٤٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١٩٩ . المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣١٥ . السيوطى : حسن المحاضرة ح ١ ، ص ١٦٣ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٢ ٠ وقد أخطأت كل تلك المصادر فى تسمية امبراطور الروم باسم قنسطنطين بن هرقل ٠

فما كان منهم الا أن قالوا له « لقد أفنيت من بقى من عسكر الروم وجئت الينا فلو دخلت العرب الى بلادنا لم يجدوا من يردهم » (١٤٤) وبتعبير اخر « شتت النصرانية وافنيت رجالها ، لو دخلت العـــرب علينا لم نجـــد من يردهم » (١٤٥) فأدخلوه الحمـــــام وقتلوه وتركوا من كان معـــــه فى المركب (١٤٦) ٠

هنا نتوقف قليلا عند تلك العبارة التى أتت على لسان اهل صقلية ، ثم موقفهم من امبراطورهم ، ثم ننتقل الى تحليل الاستاذة الدكتورة ســـعاد ماهر لها ٠ ففى ثنايا قول أهل صقلية « لو دخلت العرب علينا لم نجد من يردهم » نستطيع ان نستشف مدى المكانة العظيمة التى بدا العرب يحتلونها فى المجال البحرى وما بلغوه فى ذلك الوقت المبـــكر من مركز مرموق فى الحروب البحرية « مما يدحض الرأى المتواتر عند جمهور المؤرخين من أن العرب كانوا حديثى العهد بممارسة البحر وركوبه ، فقد كانت أســـاطيل العالم فى ذلك الوقت ترهبهم وتخشى بأسهم ، وأن البلاد التى كان ركوب البحر حرفة وصناعة لها ، تملكها الزعر بعد انتصار العرب على الاسطول البيزنطى ، مما حدا بها الى قتل ملكها خشية انتقام العرب منهم اذا علموا بايوائهم له » (١٤٧) ٠

لكن هل قتل أهل صقلية امبرطور الروم حقا ؟ الواقع أننا نقف عند الاجابة على هذا السؤال أمام رأيين متناقضين ٠ الأول وهو الذى يذكر أن أهل صقلية قتلوا الامبراطور (١٤٨) ٠ والثانى أنه هرب بأعجوبة (١٤٩)

---

(١٤٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ص ١٢ ٠

(١٤٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٥ ٠

(١٤٦) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ، ص ١٦٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢ ٠

(١٤٧) د٠ سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ٠٠٠ ، ص ٨٣ ــ ٨٤

(١٤٨) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢ ٠ وتضيف تلك المصادر أن امبراطور الروم دافع عن نفسه أمام أهـل
=

بعد أن كاد يقع أسيرا فى يد المسلمين (١٥٠) ٠

ونحن نرجح الرأى الثانى الذى يؤكد هرب الامبراطور ، مستندين فى ذلك الى ما كتبــــه استروجورســــكى من أن الامبراطور قنسطانز الثــــانى Constans II « الذى كان فى شدة الخطر استطاع أن يحمى نفســـه بواسطة تضحية شخصية بطولية لأحد الجنود البيزنطيين الصغار » (١٥١) واذا كانت فترة حكم قنسطانز الثانى امتدت من (٦٤١ ــ ٦٦٨ م / ٢١ ــ ٨٤ هـ) فان استروجورسكى يذكر فى موضع آخر أنه « قتل فى حمامه فى ١٥ سبتمبر ٦٦٨ م بواسطة أحد الحجاب » (١٥٢) ٠

والحقيقة أن تلك الموقعة كانت حدا فاصلا فى سياسة الروم تجـــاه المسلمين ٠ فقد أفاق الامبراطور قنسطانز بعدها الى نفسه وأدرك أن اعداد أية حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام يعتبر « مجهود فاشل ضائع ومحاولات فات أوانها » (١٥٣) ٠

لقد كانت موقعة ذات الصوارى نصرا بحريا كبيرا للمسلمين ، وقـد « وصفها المؤرخ اليونانى ثيوفانس بأنها كانت يرموكا ثانيا على الروم»(١٥٤) .

=

صقلية بقوله « اننا خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا ٠ لكنهم صنعوا له الحمام ودخلوا عليه فقال ويلكم يذهب رجالكم وتقتلون ملككم ؟ قالوا كأنه عرق معهم ثم قتلوه »

149. G.Ostrogorsky : Op. cit, p.116

ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٧٢ ٠ حيث يقول (انه بعد انتصار المسلمين هرب قسطنطين وجيشه وقد قلوا جدا وبه جراحات شديدة مكينة مكث حينا يداوى مدها بعـــد ذلك)

(١٥٠) د٠ السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٢ ٠

151. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 116.

ويفصل نفس المرجع كيفية هرب الامبراطور قنسطانز فى احدى الحواشى التى نقلها عن ثيوفانس بقوله أن الامبراطور استبدل ملابسه مع أحد الجنود وبذلك تمكن من الهرب من حين قتل العرب ذلك الجندى بدلا منه ، والراجح أنه كان من الجنود الشجعان فقد رويت عنه الكثير من روايات البطولة ٠

152. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 123.

(١٥٣) د٠ العدوى : الامبراطورية البيزنطية ٠٠٠ ، ص ٥٤ ٠

(١٥٤) د٠ سيده كاشف : العرب والبحار ٠٠٠ ، ص ٨٣ ٠

بل ان بعض المؤرخين يعتبرون موقعة ذات الصوارى أعظم موقعة حربية شهدها البحر المتوسط منذ موقعة أكتيوم البحرية سنة ٣١ قبل الميلاد (١٥٥)٠ فلقد كانت أول انتصار للعرب فى العصر الاسلامى فى الحروب البحرية ، بل انها جعلت العرب يدركون انهم قد أصبحوا قوة بحرية لها خطرها وأن الموقف الجديد أصبح يحتم عليها الفصل فى سيادة ذلك البحر وانتزاعه نهائيا من قبضة الروم (١٥٦) ٠

واذا كانت مصر قد انتصرت فى تلك الموقعة فانها استفادت من وراء ذلك الانتصار فائدة كبيرة فقد استولت على كثير من سفن الروم ، وكانت تلك السفن نواة للاسطول المصرى الكبير الذى اعترف بفضله فى النضال الذى قام فيما بعد بين الأمويين والروم (١٥٧) ٠

واذا كان عبد الله بن سعد قد استطاع أن يفخر فى التاريخ بأن أسطول مصر فى عهده صار قوة لها حسابها فى مياه البحر المتوسط ، بعد أن أنزل الهزيمة بأسطول الروم فى موقعة ذات الصوارى ، فان خلفاء عبد الله بن سعد الذين تولوا ولاية مصر بعده أظهروا عناية كبرى بأمر الأسطول وخاصة أن غزوات الروم البحرية لم تنقطع عن شواطىء مصر ومواقعها على البحر المتوسط (١٥٨) ٠ ولو أن الطابع الغالب على تلك الهجمات كان طابع القرصنة فقد « تعرضت بعض المدن الساحلية دائما لغارات من البحارة والقرصان البيزنطيين » (١٥٩) ٠

---

(١٥٥) د٠ عبد الرحمن الرافعى ، د٠ سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٧٢ ٠

(١٥٦) د٠ سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٨٤ ـ ٨٥ ٠

(١٥٧) د٠ على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٤٤ ٠

(١٥٨) د٠ عبد الرحمن الرافعى ، د٠ سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى، ص ٧٢ ٠

(١٥٩) د٠ السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٣٤ ٠

البـــاب الثانى

الروم والشواطىء المصرية حتى الحملة الصليبية الأولى

الفصل الأول : هجمات الروم من ٥٣ هـ حتى حملة ٢٣٨ هـ على دمياط

الفصل الثانى : حملة ٢٣٨ هـ وأهميتها وآثارها ٠

الفصل الثالث : هجمات الروم من ٢٣٨ هـ حتى الحملة الصليبية الأولى

هجمات الروم من ٥٣ هـ حتى ٢٣٨ هـ على دمياط

تعرضت شواطىء مصر البحرية بصفة مستمرة لهجمات الروم ، وقد نجحت تلك الهجمات حينا وأخفقت أحيانا وسنحاول أن نستعرضها بشيء من الايجاز فيما يلى :

نزل الروم فى سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣ م بالبرلس (١) وكان والى مصر آنذاك مسلمه بن مخلد (٢) ، فخرج المسلمون اليهم فى البر والبحر واستشهد منهم « جمع كثير » (٣) وكنتيجة لهذا الهجوم بنيت أول دار لصناعة الأسلحة

---

(١) لا يعرف بالتحديد سبب توجيه تلك الحملة البحرية الروعية الى البرلس بالذات ولكن الراجح أن تلك الحملة وغيرها على الشواطىء الاسلامية كانت رد فعل لهجمات معاوية بن أبى سفيان المتتالية على اسيا الصغرى من ناحية البر خمسة عشر سنة متتالية من ٦٦٣ م حيث استطاع أن يحول فيها سكان ضواحى بأكملها الى العبودية • وكذلك استطاع فى مجال البحر أن يستولى على قبرص ورودس وغيرها من الجزر البحرية التابعة لدولة الروم • هذا وقد تمكن أحد قواده من الاستيلاء على جزيرة كيزيكوس Cyzicus • كما استطاع جزء من أسطول معاوية فى ٦٧٢ م ـ أى قبل مهاجمة البرلس بسنة تقريبا ـ من الاستيلاء على Smyrna واستولى جزء ثان من الاسطول على بعض شواطىء قيلقية وليكيا • حدث كل ذلك فى عهد الامبراطور قنسطنطين الرابع Constantine IV (٦٦٨ ـ ٦٨٥ م) والذى شهد عهده دورا فاضلا فى الصراع الاسلامى الرومى (G. Ostrogorsky, Op. Cit., pp. 122-124)

(٢) مسلمة بن مخلد الانصارى هو الذى ولى مصر من قبل معاوية « وجمع له الصلاة والخراج والمغرب » • وتوفى وهو وال عليها لخمس بقين من رجب سنة اثنين وستين ، وكانت ولايته عليها خمس عشرة سنة وأربعة أشهر (الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ٣٨ ، ٤٠)

ومسلمه بن مخلد كان يدعى أبو سعد الانصارى وهو الذى حل محل عقبة الجهنى فى مصر وكان الاخير قد ارسل بواسطة معاوية بن أبى سفيان ليستولى على جزيرة رودس فى سنة ٤٧ هـ (٦٦٧ ـ ٦٦٨ م) • وقد ظل مسلمة حاكما لمصر وشمال افريقيا حتى وفاته فى ٦٢ هـ / ٦٨١ م (Fahmy A.M.: Op. Cit., p. 139)

(٣) الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ٣٨ • « وممن استشهد فى ذلك اليوم وردان مولى عمرو بن العاص وعايذ بن ثعلبة البلوى وأبو رقية عمرو بن قيس اللخمى فى جمع من الناس كثير » •

بمصر فى السنة التالية فى جزيرة الروضة حيث وطد العزم على بناء السفن الحربية بها (٤) ٠

وفى سنة ٩٠ هـ/٧٠٩ م نزل الروم على دمياط (٥) ٠ وكان والى مصر حينئذ قرة بن شريك (٦) العبسى (٩٠ ـ ٩٦ هـ (٧)/٧٠٩ ـ ٧١٤ م) وذلك فى عهد الخليفه الوليد الاول (٨) ، فاسروا خالد بن كيسان امير البحر ودهبوا به الى امبراطور الروم فاهداه الى الخليفه الوليد بن عبد الملك(٦) من اجل الهدنه التى كانت بينه وبين الروم (١٠) ٠

---

4. Fahmy A.M.: Op. Cit., p. 139.

(٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ٠ ودمياط فى ذلك الوقت كانت كورة من كور أرض مصر بينها وبين تنيس اثنا عشر فرسخا ٠٠ ويقال سميت بدمياط من ولد اشمن بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ٠ ويقال دمياط كلمة سريانية اصلها دمط : أى القدرة . اشارة الى مجمع العذب والملح (المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠) ٠ اما ياقوت الحموى. معجم البلدان، جـ ٨، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣ (حرف الدال) دار صادر بيروت، والقزوينى: اثار البلاد واخبار العباد ص ١٩٣٠ فيقول عنها انها مخصوصة بالهواء الطيب وهى من ثغور الاسلام ، عندها يصب ماء النيل فى البحر وعرض النيل هناك نحو مائه ذراع وعليه من جانبيه برجان ، بينهما سلسلة حديد عليها حرس لا يدخل مركب فى البحر ولا يخرج الا باذن ، وعلى سورها مدارس ورباطات كثيرة ٠ وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمر بن الخطاب: يا عمر سيفتح على يديك ثغران : الاسكندرية ومياط ، أما الاسكندرية فخرابها من البربر وأما دمياط فهم صفوة من صفوة الشهداء من رابطها ليلة كان معى فى حظيرة القدس ٠

(٦) الطبرى : تاريخه ، أحداث سنة ٩٠ هـ ٠

(٧) الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ٦٤ : ٦٦ « قدمها يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول سنة تسعين وتوفى ليلة الخميس لست بقين من شهر ربيع الاول سنة ست وتسعين ، فكانت ولايته على مصر ست سنين الا اياما »

ويسميه الشيخ عبد الله الشرقاوى فى كتابه تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاه والسلاطين جـ ١ ، ص ١٠٠ (سرى بن شريك) ويصفه بأنه كان ظلوما عسوفا)

8. Fahmy A.M.: Op. Cit., p. 140.

(٩) الطبرى : تاريخه ، احداث سنة ٩٠ هـ . ابن الاثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٥٤٨ أحداث سنة ٩٠ هـ ٠

(١٠) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ٤٠١ ٠

والحقيقة أنه فى نفس الوقت تقريبا ٧٠٩ م كان العرب قد حاصروا الطــــوانة Tyana وهى احدى قلاع كبادوكيا وهزم جيش الروم الذى أرسل لرد ذلك الهجوم هزيمة فادحة ، واضطرت الطوانة فى النهاية للتسليم بعد أن فقدت الأمل فى وصول أية نجدة • كذلك قام العرب فى الفترة ما بين ٩٢ ـ ٩٣ هـ / ٧١٠ ـ ٧١١ م بالعديد من الهجمات على قيليقيا دون أن يقابلوا بأية معارضة ، واستولوا على العديد من القلاع (١١) •

كذلك وصلت أخبار فى ٩٦ هـ / ٧١٥ م تفيد باستعدادات بحرية ضخمة للمسلمين على الشواطىء الشامية ، « وقيام أسطول اسلامى ســكندرى بالتوجه الى موقع يقال له فونكس بآسيا الصغرى لقطع بعض أخشاب السرو لبناء السفن ولمزيادة القدرة الهجومية للاسطول الاسلامى » •عندئذ فكر الامبراطور أنستاسيوس الثانى Anastasius II ٧١٣ ـ ٧١٥ م فى القيام بحروب دفاعية وذلك بمهاجمة الأسطول الســكندرى أثناء انشغاله بقطع الأخشاب ، وقد انتهت الحملة التى أرسلها أنســـتاسيوس بتمرد أطـــاح بالامبرطور نفسه (١٢) •

ولقد شاركت البحرية المصرية فى الحملة التى قام بها مسلمه بن عبد الملك لفتح السقطنطينية وذلك فى سنة ٩٩ هـ / ٧١٨ م ، « فقد وصل من مصر أسطولا اسلاميا يحمل المؤن والاسلحة » • وقد دخل ذلك الأسطول الى البسفور واتخذ موقعه فى (كالوس أجروس Kalos Agros) (١٣) •

ولم تمض سوى سنتين تقريبا حتى تحرك الروم من جديد نحو شاطىء مصر • ففى رمضان ١٠١ هـ / ٧٢٠ م هاجموا تنيس (١٤) ، وذلك فى عهد الخليفة يزيد الثانى •

---

11. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 143.

كان ذلك فى فترة حكم الامبراطور جستنيان الثانى التى امتدت من ٦٨٥ ـ ٦٩٥، ٧٠٥ ـ ٧١١ م

١٢) د• وسام عبد العزيز فرج : المرجع السابق ، ص ١٢٢ •

(١٣) د• وسام عبد العزيز : نفس المرجع ، ص ١٥٩ • عن (Theophanes : Chronographia, Finlay : History of Greece)

(١٤) د• عبد الرحمن الرافعى ، د• سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى،

وتنيس هى الثغر المصرى الشقيق لدمياط (١٥) ، وقد ظلت بيد المسلمين الي أن كانت ولاية بشر بن صفوان الكلبى على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك (١٦) نزلها الروم « فقتلوا أميرها مزاحم بن مسلمه المرادى فى جمع من الموالى » (١٧) ٠

ص ٧٣ ، د٠ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٣٠٣ ٠

ومن المرجح أن ذلك أيضا كان رد فعل لهجوم مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية سنة ٧١٧ ـ ٧١٨ م والذى تضافرت عدة عوامل على اخفاقه مثل قسوة الشتاء أنذاك ومهاجمة البلغار للقوات الاسلامية ، جنبا الى جنب مع جيش الروم ، مما دفع الجيش الاسلامى الى الانسحاب من المياه الرومية (البيزنطية)

G. Ostrogorsky : Op. Cit., pp. 156-157.

(١٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٠ ٠ سميت تنيس على اسم تنيس بن حام بن نوح ٠ ويقال بناها قليمون من ولد اتريب بن قبطيم أحد ملوك القبط فى القديم٠ ويقال أن الجنتين اللتين ذكرهما الله تعالى فى كتابه العزيز ، اذ يقول : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخيل ٠٠ » كانتا لاخوين من بيت الملك أقطعهما ذلك الموضع ، فاحسنا عمارته وهندسته وبنيانه ٠ وكان الملك يتنزه فيهما ، ويؤتى منهما بغرائب الفواكه والبقول ويعمل له من الاطعمة والاشربة مايستطيبه٠ فعجب بذلك المكان أحد الاخوين وكان كثير الضيافة والصدقة ، ففرق ماله فى وجوه البر٠ وكان الاخر ممسكا يسخر من أخيه اذا فرق ماله ، وكلما باع من قسمه شيئا اشتراه منه ، حتى بقى لا يملك شيئا ٠

وصارت تلك الجنة لاخيه ، واحتاج الى سؤاله ، فانتهره وطرده ، وعيره بالتبذير وقال : قد كنت أنصحك بصيانة مالك فلم تفعل ، ونفعنى امساكى فصرت أكثر منك مالا وولدا ٠ وولى عنه مسرورا بماله وجنته ٠ فأمر الله تعالى البحر ، فركب تلك القرى فغرقها جميعها فاقبل صاحبها يولول ويدعو بالثبور ٠

كذلك كانت تنيس مشهورة بثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا وكان يصنع بها للخليفة ثوب يقال له البذنة لا يدخل فيه من الغزل ـ سداه ولحمه ـ غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب ٠ كذلك اشتهرت تنيس بصناعة كسوة الكعبة المشرفة ٠ (المقريزى: الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٨)

(١٦) قدمها « لسبع عشرة خلت » فى ١٧ رمضان سنة ١٠١ هـ (الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ٧٠) ٠

(١٧) الكندى : المصدر السابق نفس الصفحة ، المقريزى : المصدر السابق ، حـ ١ ، ص ٣٣١ ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ألم تربع فيخـبرك الرجـال ... بمـا لاقى بتنيس المـوالى

أما فى ١٢١ هـ / ٧٣٩ م فقد قام الروم بهجوم ناجح على دمياط للمرة الثانية (١٨) فقد نزلوها فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بأسطول مكون من « ثلثمائة وستين مركبا » (١٩) فقتلوا وسبوا (٢٠) . ومن المرجح أن ذلك الهجوم أحرز نجاحا ، جزئيا نتيجة للظروف الداخلية التى كانت عليها مصر آنذاك عندما قام الأقباط بثورة كبرى ، بالاضافة الى هجوم أقباط النوبة على مصر من الجنوب (٢١) .

وهنا يذكر (كانار) أن تحطيم الروم لأحد الأساطيل المصرية بالقرب من جزيرة كريت حوالى سنة ٧٤٧ م / ١٢٩ — ١٣٠ هـ « أثر فى البحرية المصرية تأثيرا شديدا فأنقصها وزاد من ضعفها ووهنها فى المائة سنة التالية » (٢٢). وثمة رأى آخر أكثر وضوحا يذكر أن المعــركة التى اشتبك فيها أسطول كريت الرومى بالأسطول العربى الكبير المكون من ألف سفينة من مصر والشام بالقرب من جزيرة قبرص والتى انتصر فيها أسطول الروم لأنه كان مسلحا بالنار الاغريقية وانهزم فيها الأسطول العربى ولاذ بالفرار ولم ينج منه سوى ثلاث قطع ، أدت تلك الهزيمة الى اختفاء قوة مصر البحرية فى البحــر المتوسط أكثر من قرن من الزمان (٢٣) .

كذلك أثرت الفتنة بين الأخوين محمد الأمين وعبد الله المأمون ، وأدت الى أمتداد الفتن الى أرض مصر « فطمع الروم فى البلاد ونازلوا دمياط فى أعوام بضع ومائتين » (٢٤) . فقد استغل الامبراطور ليو الخامس (٨١٣ —

---

(١٨) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٨٨ ،
M. Canard : Cam. Med. Hist., V. IV Part I,p. 699.

د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٧٣

(١٩) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ، د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٢٠) د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٢١) د. وسام عبد العزيز : المرجع السابق ، ص ٣١٦ — ٣١٧ .

22. M. Canard : Com. Med. Hist., V. IV Part 1, p. 699.

(٢٣) د. وسام عبد العزيز : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

(٢٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ . فبعد قيام ثورة فى بلاط قرطبة ضد الامير الحاكم ١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ — ٨٢٢ م ترك بعض المغامرين الاسبان بلادهم
=

٢٨٠ م) تلك الظروف الصعبة التى كان عليها المسلمون وأرسل أسطولا حوالى ٨١٧ م / ٢٠٢ هـ لمهاجمة دمياط (٢٥) • وهذا ما دفع الأستاذة الدكتورة سعاد ماهر الى وصف الهجمات البحرية التى شنها الروم على مصر « بطابع الانتهازية » (٢٦) •

ولقد شهدت الفترة التالية عدة اتفاقات بين الجانبين الاسلامى والرومى • فمثلا فى شمال بلاد الشام عرض الثائر العربى نصر على امبراطور الروم أن يعقد معه تحالفا ، وبالرغم من أن ذلك التحالف لم يتم فان الخليفة المأمون عقد تحالفا مع توماس السلافى ـ وهو أحد قادة جيش الروم وكان قد هرب الى العرب فى عهد هارون الرشيد ـ وبمساعدة الخليفة توج امبراطورا بواسطة بطريرك أنطاكية ، وفى ٨٢٠ م / ٢٠٥ هـ وهو تاريخ مقتل ليو الخامس واعتلاء ميخائيل الثانى العمورى العرش ، كان توماس قد استطاع بواسطة المساعدات الاسلامية أن يخترق أرمينيا وأن يضم غالبية المقاطعات العسكرية فى آسيا الصغرى اليه وبدأ يستعد للمسير الى القسطنطينية • ولم يستطع الامبراطور ميخائيل أن يقضى عليه قبل سنة ٨٢٣ م / ٢٠٨ هـ • ونتيجة لذلك فقد استطاع المسلمون الوصول الى كمخ وقاموا بعدة هجمات بحرية على شواطىء وجزر آسيا الصغرى • وأكثر من

وابحروا مصطحبين معهم زوجاتهم وأولادهم ، حتى نزلوا فى ضواحى الاسكندرية وكان ذلك حوالى ١٩٩ هـ / ٨١٤ ـ ٨١٥ م وفق رأى الكندى وبعد أن شعروا بقوتهم بعد فترة بدأوا يستغلون الفوضى السائدة فى مصر ليعملوا لحسابهم ، واختاروا أبو حفص قائدا لهم ثم استولوا على الاسكندرية فى ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ يوليه ٨١٦ م وظلوا مسيطرين على الاسكندرية حتى أرسل الخليفة المأمون قائده عبد الله بن طاهر سنة ٢١٠ هـ / ٨٢٥ ـ ٨٢٦ م ليضع نهاية للاضطرابات فى مصر وقد نجح فى اتمام مهمته خلال عامين استطاع خلالهما أن يخضع الحاكم الثائر فى صفر ٢١١ هـ مايو ٨٢٦ م وحاصر الاسكندرية فى ربيع الاول ٢١٢ هـ يونية ٨٢٧ م واستولى عليها بعد تسعة أيام • عندئذ خضع الاسبان للقائد العباسى وحصلوا على تعهد بمغادرة الاسكندرية الى أى اقليم رومى خارج نطاق النفوذ الاسلامى ، فعزموا على التوجه الى جزيرة كريت ذات الموقع الاستراتيجى والتجارى الهام • وعليه كان غزوهم لتلك الجزيرة فى صيف ٨٢٧ م •
(Fahmy A.M. : Op. Cit., pp. 128-130)

25. M. Canard : Cam. Med. Hist., V. IV, Part 1, p. 709.

(٢٦) د• سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ص ٨٩ •

ذلك فقد استطاع اللاجئون الذين قدموا من قرطبة واستقروا فى الاسكندرية أن يغزوا جزيرة كريت ويستولوا عليها فى ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ . ورغم محاولات الروم استعادتها عن طريق ارسال حملتين فى سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م الا أنهم أخفقوا « ومنيت الحملة الثانية بفشل ذريع فقد ذبحت قواتها وأفنى أسطولها وهرب قائدها » (٢٧) .

حملة ٢٣٨ هـ وأهميتها وآثارها

كان للعرب الأندلسيين فى كريت دورا كبيرا فى تحريك تلك الحملة لى شواطىء مصر . وعليه فلكى نتعرف عن كثب على الأبعاد الحقيقية لتلك الحملة ينبغى أن نركز الضوء قليلاً على جزيرة كريت آنذاك .

ففى مستهل وصاية الامبراطورة ثيودورا ، أرملة الامبراطور ثيوفيل ٨٢٩ - ٨٤٢ م / ٢١٤ - ٢٢٧ هـ على ابنها القاصر ميخائيل الثالث ٨٤٢ - ٨٦٧ م / ٢٢٧ - ٢٥٣ هـ قرر المسئولون فى القسطنطينية ارسال حملة الى كريت لاستردادها من المسلمين . وبالفعل أبحرت تلك الحملة فى ١٨ مارس ٨٤٣ م / ٢٢٨ هـ بقيادة ثيوكتستوس فنزل بقواته على أرض الجزيرة وقاتل بشجاعة وأحرز انتصارا على المسلمين الذين فوجئوا بهذه الحملة فى الوقت الذى كان فيه أسطولهم يقوم بالاغارة على البحر الايجى (٢٨) .

---

27. M. Canard : Cam. Med. Hist., V. IV. Part 1, p.709.

(٢٨) د. اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، ص ٨٦ عن (موناخوس Monachus)

وثيوكتستوس هو أبرز أعضاء مجلس الوصاية على الاطلاق فى فترة وصايتها على ابنها ولا يرجع نفوذه الكبير الى خدماته المخلصة للامبراطور ثيوفيل لكن يرجع فى الحقيقة بالدرجة الاولى الى كونه السبب الرئيسى فى اعتلاء ميخائيل الثانى العرش بعد مقتل ليو الخامس . وتعتبر وظيفة اللغثيث Logothete التى تولاها ثيوكتستوس فى عهد ثيودورا ثم ستيليانوس زوتزس Stylianus Zoutzes على عهد ليو السادس من أهم الوظائف العظيمة والمتزايدة الاهمية .

(Cam. Med. Hist. V. IV Part 1, pp. 105, 106, G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 250).

وللتفصيل أكثر أنظر كتاب المرأة فى الحضارة البيزنطية للمؤلفة ص ٥٥ - ٥٦ .

عندئذ رأى مسلمو كريت أنه من الممكن أن يتغلبوا على ضعف امكانياتهم العسكرية باللجوء الى الحيلة وذلك « بأن رشوا أحد الضباط البيزنطيين وأوعزوا اليه أن يشيع فى معسكره أن الامبراطورة ثيودورا عزلت ثيوكتستوس من مجلس الوصاية » وأنها اختارت أحد منافسيه ليحل محله . عندئذ سرت تلك الاشاعة فى المعسكر الرومى حتى وصلت الى ثيوكتستوس نفسه ، فخشى على منصبه وترك جيشه وأسطوله وأسرع بالعودة الى القسطنطينية (٢٩) .

وهكذا أدى اهتمام ثيوكتستوس بمصالحه الشخصية الى اضاعة الفرصة على بيزنطة فى استرداد كريت وتسبب فى اخفاق تلك الحملة وتكبيد الدولة خسائر فادحة مادية وبشرية (٣٠) .

ولما كان العرب الأندلسيون فى كريت ، لا يزالون يعرقلون سبل تجارة الروم ويهددون جزر بحر ايجه وشواطئه بالقرصنة ، لذلك أمرت ثيودورا بالاغارة على سواحل مصر لتخريب ما فيها من دار صناعة بحرية هامة ـ ترسانة لصناعة السفن ـ كانت تزود عرب كريت بالسفن والعتاد وأحيانا بالرجال (٣١) كان هذا هو أحد أسباب حملة الروم البحرية على مصر ٨٥٢م/ ٢٣٨ هـ . يضاف الى ذلك سببا آخر هام هو رغبة كل من ثيوكتستوس وثيودورا فى الانتقام لما أنزله أهل كريت بحملة ٨٤٣ م / ٢٢٨ هـ ، لكن الضربة لم تكن موجهة تلك المرة الى كريت وانما الى مصر نظرا للرابطة القوية التى كانت تربط حكام مصر بأهالى كريت (٣٢) .

والمعروف أن كريت كانت تتبع أحيانا الروم وأحيانا أخرى كانت تتبع الخلافة العباسية ، وفى فترات تبعيتها للطرف الأخير كانت تتبع من ناحية التقسيم الادارى للدولة العباسية اقليم مصر (٣٣) .

---

(٢٩) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٨٦ ـ ٨٧ عن موناخوس .

(٣٠) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٣١) د. أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٣٢) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٣٣) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٤١ ـ ٤٥ عن (النعمان : المجالس والمسايرات)

كانت كريت تمد مصر بالعسل النحل والجبن (٣٤) وكانت تصــــدر الى مصر وسوريا الأخشاب وزيت الزيتـــون (٣٥) · والراجح أن مصر استخدمت تلك الأخشاب فى دار صناعتها لصناعة السفن ، التى كانت ترسل منها عددا الى كريت كما كانت تمدها أيضا بالسلاح والعتاد الحربى (٣٦) وكل ما يدعم حكامها (٣٧) ·

وقد قيل أن السبب المباشر لتوجيه حملة الى سواحل مصر فى ذلك الوقت (٨٥٣ م / ٢٣٨ هـ) هو ما وصل الى المسئولين الروم من أن هنـــاك كمية من السلاح موجودة بمدينة دمياط (٣٨) · أراد المصريون حملها « الى أبى حفص صاحب اقريطش » (٣٩) وعلى ذلك كان هدف تلك الحمـــلة هو قطع الاتصال والمعونة البحرية التى قامت بين مصر ـ مقر الترســــانة ـ وجزيرة كريت التى غدت خطرا جسيما يهدد قواعد الروم البحرية فى آسيا الصغرى ويهاجمها باستمرار وبانتظام (٤٠) ·

وهكذا توجه أسطول رومى الى مصر ، وهنا تجمع غالبية المصادر العربية على أنه كان مكونا من « ثلثمائة مركب » (٤١) بينما يذكر اليعقوبى أن عدده كان « خمسة وثمانين مركبا » (٤٢) والراجح أن اليعقوبى كان يقصد هنا عدد الجزء من الأسطول الذى بدأ الهجوم · وكان الأسطول بقيـــادة ثلاثة من قادة الروم البحريين · أشار اليهم الطبرى باسم « عرقا وابن

---

(٣٤) د· اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٨٨

35. William H. Mcneill : A World History, p.42.
36. Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1. p. 713.
37. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 222.

(٣٨) د· اسمت غنيم · المرجع السابق ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ·

(٣٩) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ (دار المعارف) ·

40. L. Brehier : Vie et Mort, p. 128,

د· سعاد ماهر : البحرية فى مصر ··· ، ص ٨٩

(٤١) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٢ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ٥ ، ادارة الطباعة ـ المنيرة ١٣٥٧ هـ) ص ٢٩٢ . الذهبى : دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ١٤٤ ، اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ ٢ ، ص ١٢١ ، أبو المحاسن : النجـــوم الزاهرة ، جـ ٢ ص ٢٩٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ٢ ، ص ٨٩ ·

(٤٢) اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ٤٨٨ ·

قطونا وأمردناقة » (٤٣) أما ابن الأثير فيذكر فقط أن الأسطول كان بقيادة « ثلاثة رؤساء » (٤٤) ٠

واذا كان اليوم الذى حدد للهجوم على دمياط هو ٢٢ مايو ٨٥٣ م (٤٥) / ٩ ذى الحجة ٢٣٨ هـ (٤٦) ٠ فان ذلك يدل على « مهارة تدبير الادارة البيزنطية » (٤٧) فقد كان والى مصر فى ذلك الوقت عنبسه بن اسحاق (٤٨) آخر والى عربى تقلد أزمة الحكم فى مصر وذلك فى عهد الخليفة المتوكل العباسى (٨٤٧ ـ ٨٦١ م / ٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) (٤٩) ٠

وهكذا تصادف ذلك الهجوم مع خلو دمياط من حاميتها ، وقد علل ذلك بسببين : الأول أن عنبسه بن اسحاق أمر الجند الذين بدمياط أن يحضروا الى الفسطاط عندما اقترب العيد ، « ليتجمل بهم » (٥٠) ٠ والسبب الثانى أن عنبسه أراد طهور ولديه يوم العيد حتى يجمع بين العيد والفرح واحتفل بتلك المناسبة احتفالا كبيرا حتى بلغ به الأمر أن أرسل الى ثغرى دمياط

---

(٤٣) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٣

(٤٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٩٢ ٠

45. Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1 p. 106.

(٤٦) الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ٢٠١ ،
. المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ . ص ٢٩٤ ٠ حيث ذكرا أن ذلك كان يوم عرفة ويؤيد هذا ما ذكره ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢٤ من أن (بنو الاصفر) ـ أى الروم ـ جاؤوا الى ثغر دمياط سنة ٢٣٨ هـ وهاجموها ٠٠ وأن الخبر جاء «الى مصر بذلك فى يوم عيد النحر» أى أن الروم هاجموا دمياط ليلة العيد ؛

(٤٧) د٠ العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ٠٠٠ ، ص ٩٢ ٠

(٤٨) اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ص ٢٨٨ . الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه، ص ٢٠٠ ، أما أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٣ فيسميه عنبسه بن اسحاق بن شمر بن عيسى بن عنبسه ٠ أما ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢٤ ، فيكتفى بتسميته عنبسه بن اسحق بن شمر فى حين يحرف زامباور الاسم بعض الشىء فى كتابه : معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ص ٤١ فيسميه عنبسه بن اسحق بن شامر ٠

(٤٩) د٠ العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٩١ ٠

(٥٠) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ ٠

وتنيس فأحضر « سائر من كان بهما من الجند والخرجية والزراقين » وكذلك من كان بثغر الاسكندرية من المذكورين (٥١) ٠ والراجح أن السببين تضافرا معا على اخلاء دمياط من « مسلحتها » (٥٢) على حد تعبير ابن خلدون ٠ وان تلك الحامية استدعيت للاشتراك فى عرض حربى فى الفسطاط رغب الوالى أن يجعله أكبر عرض حربى ممكن (٥٣) ٠

ومهما يكن من أمر فان موقع دمياط سهل على الروم العبث والتخريب فيها على نحو كبير ٠ فدمياط العصور الوسطى تختلف عن دمياط الحالية التى تقع على الضفة اليمنى لمصب فرع دمياط ، على بعد اثنى عشر كيلو مترا من البحر المتوسط ويفصلها عن بحيرة المنزلة شريط أرضى اتساعه كيلو متر واحد ويستدل من أقوال الجغرافيين العرب فى العصور الوسطى أن دمياط كانت تقع على قطعة أرض مستطيلة تمتد بين مصب فرع دمياط والبحر المتوسط ، كما أن الشريط الأرضى الذى يفصلها عن بحيرة المنزلة كان من ضيق المسافة بدرجة جعلت مياه الفيضان تعلو عليه وتغمره حتى تبدو دمياط كأنهـا جزيرة منعزلة فى الماء (٥٤) ٠

هاجم الروم دمياط « فقتلوا من أمكنهم قتله من الرجال ، وأخذوا من الأمتعة والقند والكتان ما كان عبى ليحمل الى العراق » (٥٥) ٠ بل قيل أنهم « هجموا على أهلها وقتلوا جماعة من المسلمين وأسروا منهم جماعة » (٥٦) ٠

هنا يبين اليعقوبى مدى فداحة الخسائر البشرية حين يقول أن عدد سبايا الروم « من المسلمات ألفا وثمانمائة وعشرين امرأة ومن نساء القبط

---

(٥١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٤ ٠

(٥٢) ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٢٧٧ ٠

(٥٣) أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ٣٣٥ ، د٠ العدوى : الامبراطورية البيزنطية ٠٠٠٠ ص ٩٢ ٠

(٥٤) د٠ العدوى : الامبراطورية البيزنطية ٠٠٠ ، ص ٩٢ ٠

(٥٥) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ ٠ والمقصود بالقند هنا عسل قصب السكر (مختار الصحاح للرازى ٠ دار التراث العربى ـ حرف القاف والنون)

(٥٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢٤ ٠

الف امرأة ومن اليهود مائة امرأة » (٥٧) وهو رأى انفرد به اليعقــوبى ونحن نرجحه لأنه أقدم من الطبرى الذى أخذت عنه غالبية المصادر العربية الأخرى حين قال ان عدد السبايا بلغ حوالى « ستمائة امرأة » (٥٨) وأن عدد المسلمات منهن حوالى « مائة وخمس وعشرون امرأة » (٥٩) ٠

كذلك استولى الروم على السلاح الذى كان بدمياط (٦٠) واستولوا على السقط (٦١) ، كما « أحرقوا خزانة القلوع وهى شرع السفن وأحرقوا المسجد الجامع بدمياط وأحرقوا الكنائس » (٦٢) عدئذ هرب الأهالى « فغـــرق فى البحر نحو ألفين » (٦٣) ٠

ورغم ما أبداه بعض أهالى دمياط من شجاعة نادرة فى قتــال الروم الا أن ذلك لم يغير من نتيجة تلك الغارة التى رجحت فيها كفة الروم ٠ فقــد كسر بسر بن الأكشف ـ الذى كان قد حبس بأمر عنبسه ـ قيوده بواسطة عدد

---

(٥٧) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ٤٨٨ ٠

(٥٨) الطبرى : المصدر السابق ، ج ٩ ص ١٩٤ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ أحداث ٢٣٨ هـ ، اليافعى : مرأة الجنان وعبرة اليقظان ، ج ٢ ص ١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ؛ ص ٢٩٢ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٢ ص ٨٩ ٠

(٥٩) الطبرى : تاريخة ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ٠

(٦٠) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ٤٨٨ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ ٠

(٦١) اليعقوبى : نفس المصدر السابق والصفحة ، والسقط أى المتاع (مختار الصحاح للرازى ، حرف السين والقاف)

(٦٢) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ٠

هنا تعقب الاستاذة الدكتورة سعاد ماهر على ذلك التصرف بقولها : انه ممـا يدل على أن تلك الغارة كان يقصد منها أهداف أوسع من السلب الذى جـــرت عليه الغارات التقليدية انذاك ، وأنها كانت جزء من سياسة الروم ازاء اسطول كريت ، أن الجند استولوا على مؤن وذخيرة فى دمياط كانت معدة للشحن الى كريت ٠٠ ثم احرقوا أشرعة السفن المكدسة فى المخازن البحرية بدمياط (د٠ سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٩٠) ٠

(٦٣) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ٠

من أعوانه ، وخرج يقاتل الروم هو وجماعة آخرين ، وبالفعل قتل عدد منهم (٦٤) ٠

واذا كان اليعقوبى قد أوضح أن الهجوم الرومى على دمياط قد استمر « يومين وليلتين » (٦٥) فان بعض المصادر العربية أشارت الى أن الروم ولوا مسرعين فى البحر (٦٦) دون أن تشير الى أية مقاومة من جانب المصريين ٠ بينما يشير الكندى – وأخذ عنه المقريزى نفس الرأى – الى أن عنبسة بن اسحاق نفر اليهم فى جيشه ونفر معه كثير من الناس فلم يدركوهم ومضى الروم الى تنيس فأقاموا بأشتومها فلم يتبعهم عنبسة » (٦٧) ٠ أما أبو المحاسن فيفسر اسراع الروم بمغادرة دمياط بقوله ان ابن الأكشف « هزمهم وأخرجهم عن دمياط فنزحوا عنها منهزمين » (٦٨) أى أن رحيل الروم عاد بالمدرجة الأولى الى استماتة أهالى دمياط فقط فى الدفاع عنها ٠

بينما يعطينا ابن اياس رأيا آخر يؤكد فيه أن المصريين جميعا وقفوا

---

(٦٤) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٩٢، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ ٠

(٦٥) اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ص ٤٨٨ ٠

(٦٦) اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ ٢ ، ص ١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٤٨ ٠

(٦٧) الكندى : كتاب الولاه ، وكتاب القضاه ، ص ٢٠١ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ٠ ويعقب الكندى على رأيه هذا بايراد شعر ليحيى بن الفضل كتبه للمتوكل يعجب فيه من موقف عنبسة ويتحسر لان الدين كاد أن يذهب على يد الولاه المتراخين فى أداء واجبهم نحو البلاد ويعجب من موقف عنبسة ٠ ومن ذلك الشعر تلك الابيـــات :

أترضى بأن يوطأ حـــريمك عنوة ... وأن يستباح المسلمون ويحربوا
حمـــار أتى دمياط والروم وثب ... بتنيس رأى العـين منـه وأقـرب
مقيمون بالاشـــتوم يبغون مثل ما ... أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دميـــاط شبرا ولا درى ... من العجـز ما يأتى وما يتجنب
فلا تنسنا أنا بدار مضـــيعة ... بمصر ، وان الدين قـــد كاد يذهب

(٦٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ ٠

صفا واحدا أمام تلك الحملة حتى أجلوها عن البلاد . فقد ذكر أنه عندما وصلت أخبار تلك الحملة الى مصر فى يوم عيد الأضحى « نودى بالنفير فخرج أهل الفسطاط جميعا وتوجهوا الى ثغر دمياط وتحاربوا مع بنى الأصفر فانتصر عليهم عنبسة » وأسر منهم جماعة وهرب الباقون جميعا (٦٩) . وفى ذلك اشارة الى حدوث صدام بين الروم والمصريين آنذاك .

ومهما يكن الأمر فان الروم بما أحدثوه فى دمياط كانوا هم المنتصرين لكنهم لم يكن فى مخططهم البقاء أكثر من ذلك فى الثغر لأن هدفهم كما مر بنا كان الاستيلاء على كل ما يمكن أن يرسل الى كريت لتتقوى به ضدهم . وعليه فقد توجهوا بعد ذلك الى أشتوم تنيس (٧٠) .

وقبل أن نسترسل فى الحديث عن مصير تلك الحملة بعد مغادرتها دمياط ، نود أن نشير الى أنه رغم كل ما أحرزه الروم من ورائها ، ورغم تحقيقهم للغرض الأساسى من توجيهها الا أن غالبية (المصادر البيزنطية صمتت تماما عن الاشارة اليها . وكل ما عثرنا عليه من اشارات عن تلك الحملة فى المصادر والمراجع الأجنبية قليل جدا . فمثلا (استروجورسكى) اكتفى بالاشارة الى نتيجة الحملة بايجاز بقوله « أن دمياط دمرت وحرقت تماما » ثم عقب على الحملة ككل بقوله أنه « لأول مرة يتجاسر البيزنطيون بالمخاطرة بعيدا فى صراع بحرى » (٧١) . أما (برنييه) فقد ذكر «أن الحملة البيزنطية البحرية على دمياط أسفرت عن نهب وحرق المدينة » (٧٢)

كذلك أشار أحد المراجع الأجنبية بايجاز الى نتائج تلك الحملة بقوله « ان الأسطول استولى على دمياط وأحرقها وقتل عددا من الأهالى وأخذ الباقين أسرى ثم استولى على مخازن السلاح والمؤن » (٧٣) . كما أشار مرجع مشابه الى «أن البيزنطيين قد استولوا على دمياط فى ٢٢ مايو ٨٥٣ م»

---

(٦٩) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢٤ .

(٧٠) الطبرى : تاريخه ، جـ ٩ ، ص ١٩٤ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٩٢ ويسميها أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ (أشمون تنيس)

71. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 222.

72. L. Brehier : Vie et Mort, p. 128.

73. Cam. Med. Hist. V. IV. Part. 1, p. 713 عن M. Canard.

وأن ذلك قد ورد بدون شك فى مصدرين عربيين مهمين وأنهما « عززا بأوراق بردي تم كشفها حديثا وترجع أيضا الى أصل عربى » (٧٤) .

والواقع أننا لا ندرى أى مصدرين عربيين يقصد ذلك المرجع الحديث من بين الحشد السابق للمصادر العربية . كذلك لم يرد شيئا عن أوراق البردى التى ذكرها . هذا بالاضافة الى أنه ذكر أن حملة مايو ٨٥٣ م انتهت بالاستيلاء على دمياط ، لكن الحقيقة أن الروم لم يستقروا فيها بعد تدميرهم وتخريبهم لها مما لا يعطيها صفة الفتح المستقر الثابت .

لكن الغارة على دمياط حققت هدفها فى الانتقام لهزيمة ثيوكتستوس التى لحقت به من مسلمى كريت ٨٤٣ م (٧٥) / ٢٢٨ هـ . كما فوتت على مسلمى كريت فرصة الاستفادة من السلاح والمعدات التى قد يحصلوا عليها من مصر. ورغم ذلك كله ـ وكما هو واضح لنا ـ نلاحظ أن غالبية المصادر التي أمدتنا بالمعلومات عن تلك الحملة كانت مصادر عربية لا بيزنطية . وليس هذا بالشيء المستغرب فقد تعرض تاريخ الأسرة العمورية لكثير من التشويه ، ولاخفاء كثير من الانتصارات التى حققها أباطرة تلك الأسرة (٧٦) .

والواقع أن روح الحقد والحسد نجحت عبر القرون فى حرمان عهد ثيودورا وثيوكتستوس وسرجيوس « من مجرد اسمه الذى يجعله مشهورا » ذلك العهد الذى وصف فى غالبيته بأنه « عهد حكم القديسين » (٧٧) .

والواقع أن أحد جوانب القصور الخطيرة فى المؤرخين البيزنطيين المحدثين ، هو المدى الواسع الذى سمحوا فيه لأنفسهم أن يخدعوا بواسطة مصادر غيرت تغييرا فعليا بواسطة مؤرخين أرخوا لمصلحة الأسرة المقدونية، وكان على رأسهم الامبراطور قنسطنطين بورفيروجينيتوس نفسه (٧٨) .

---

74. Cam. Med. Hist., V. IV. Part 1, p. 106. عن (The Late H. Grégorie)

(٧٥) د. آسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، ص ٩١ .

(٧٦) نفس المرجع ، ص ٨٩ .

77. Cam. Med. Hist. V. IV, Part 1, p. 107.

78. Cam. Med. Hist. : Ibid., V. IV. Part 1, p. 105.

نعود مرة أخرى لنتتبع ما حدث لحملة ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م بعد مغادرتها لدمياط . فنجد أنها اتجهت شرقا لمهاجمة تنيس ، وهى جزيرة فى بحيرة المنزلة تقع بين الفرما ودمياط . ولكن التيار أفسد خطة الروم الذين تخلوا عن متابعة السير نحوها خشية أن تجنح سفنهم الى الرمال . ومن ثم اتجهوا الى أشتوم التى لا تبعد كثيرا عن تنيس (٧٩) « بينها وبين تنيس أربعة فراسخ وأقل » (٨٠) ، وكانت مركزا حصينا له سور وأبواب حديدية كان المعتصم قد أقامه فاقتحم الروم ذلك الحصن وخربوا معظمه (٨١) . وأحرقوا ماكان به من الآلات الحربية (٨٢) من « المجانيق والعرادات » (٨٣) وأخذوا بعض الأبواب الحديدية وأبحروا عائدين الى بلادهم قبل أن تصل الامدادات الاسلامية من داخل البلاد (٨٤) . « فلم يعرض لهم أحد » (٨٥) .

كان رد فعل تلك الغارة على شواطىء مصر أن أمر الخليفة المتوكل ببناء حصن دمياط فى رمضان ٢٣٩ هـ (٨٦) / الموافق فبراير ٨٥٤ م (٨٧) كما أمر بتشييد حصنين آخرين أحدهما فى الفرما والآخر فى مدينة تنيس ، وقد أشرف على انشائهم جميعا أمير مصر عنبسة بن اسحاق وأنفق لهذا الغرض أموالا عظيمة (٨٨) .

---

(٧٩) د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية ... ، ص ٩٣ .

(٨٠) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ . وتقع اشتوم عند مدخل بحيرة تنيس . (Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1, 713). أما عن فرسخ الطريق فهو ثلاثة أميال هاشمية وقيل اثنا عشر ألف ذراع وهى تقريبا ثمانية كيلو مترات والكلمة فارسية (المنجد فى اللغة والاداب والعلوم ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ص ٦٠٧) .

(٨١) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ، د. العدوى : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٨٢) د. العدوى : نفس المرجع السابق والصفحة ، د. أسد رستم : الروم ، ج ١ ص ٢٣٥ .

(٨٣) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٨٤) د. العدوى : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٨٥) الطبرى : المصدر السابق ، ص ١٩٥ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ (ادارة الطباعة المنيرية ١٣٥٧ هـ ، ص ٢٩٢ .

(٨٦) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٠١ .

(٨٧) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ... ، ص ٩١ .

(٨٨) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

فما كان من الروم الا أن أعادوا أسطولهم من جديد الى دمياط لتعويق بناء السفن وأعمال الصيانة والاصلاح التى أمر بها الخليفة ومكثوا فى دمياط حوالى شهرا ينهبون كل ما يقـــع تحت أبصارهم أو تصل اليـــه أيديهم (٨٩) ٠

هجمات الروم من ٢٣٨ هـ حتى الحملة الصليبية الأولى

عاود الروم مهاجمة دمياط بحملة ثالثة سنة ٨٥٩ م (٩٠) / ٢٤٥ هـ وكان والى مصر آنذاك يزيد بن عبد الله بن دينار (٩١) ٠ فخرج يزيد « الى دمياط مرابطا فى المحرم سنة خمس وأربعين » (٩٢) وأقام بها مدة « لـم يلق حربا » (٩٣) فرجع الى الفسطاط فى ربيع الأول من نفس السنة ، ولكن بمجرد وصوله الى بنها بلغة أن الروم « نزلوا الفرما » فرجع فى جيشـــه « فلم يلقهم » (٩٤) ٠ وهكذا لم يحدث أى اشتباك بين تلك الحملة وبين أولى الأمر فى مصر ٠

أما فى عهد الطولونيين (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م) (٩٥)٠ فقد كانت مصر على أيام أحمد بن طولون ومن جاء بعده من الطولونيين ـ وللمرة الأولى منذ عهد البطالمة ـ قاعدة لقوة عســـكرية مستقلة وقـــوة

---

89. Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1. p. 713.
90. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 227, Cam. Med. Hist., V. IV, Part. 1,
 . p. 713 عن M. (Canard), Cam. Med. Hist. V. IV, Part. 1,
 p. 110 عن (The Late H. Grégoire)

ويذكر المرجع الاخير أن ذلك كان فى يونية ، يولية من السنة ٠

(٩١) قدم يزيد الى مصر « يوم الاثنين لعشر بقين من رجب » ٢٤٢ هـ (الكندى : كتاب الولاهوكتاب القضاه ، ص ٢٠٢) ٠

(٩٢) الكندى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ ٠

(٩٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ ٠

(٩٤) الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ٢٠٣ ٠

أما أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ ٠ فيـــذكر أنه عاد الى مصر فبلغه نزول الروم الى دمياط مرة ثانية فخرج اليهم فلم يلقهم ، فأقـام بالثغر مدة ثم عاد الى مصر ٠

(٩٥) زامبور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ص ١٤٣ ، د٠ سيده كاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ١٧ ٠

سياسية مرموقة مع استقلال أيضا فى سياستها ودور متصاعد فى شئون الشرق الأوسط كله (٩٦) ٠

فمنذ اللحظة الأولى لتولى أحمد بن طولون شئون مصر سنة ٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م ، اتجه الى دعم قوته البحرية ليدفع عن نفسه وولايته محاولات الخلافة العباسية استرداد نفوذها المطلق عليها ٠ ومن ثم اتجه الى الاهتمام بشئون أسطول مصر (٩٧) ٠ الذى زادت قوته زيادة ملحوظة وأصبح خطرا يتهدد الروم ، وخصوصا بعد أن استطاع أحمد بن طولون بعد تحسن العلاقات بينه وبين الخلافة العباسية من أن ينقل بعض قطع الأسطول الى (طرطوس) فى شمال بلاد الشام وأن يجعلها قاعدة حربية تخرج منها السفن التى تهاجم معاقل الروم فى آسيا الصغرى (٩٨) ٠

واذا كانت بعض المراجع (٩٩) قد جعلت ذلك السبب هو الدافع القوى الذى جعل امبراطور الروم باسل الأول Basil I (٨٦٧ ـ ٨٨٦ م(١٠٠) ٢٥٣ ـ ٢٧٣ هـ) يسارع بارسال وفد الى أحمد بن طولون «يخطب وده» ويحمل له هدية قيمة تشمل عدة أسرى من ذوى المكانة الهامة ، وعدة مصاحف ، فقد أرسل « عبد الله بن رشيد بن كاوس وعدة أسرى ، وأنفذ معهم عدة مصاحف منه هدية اليه » (١٠١) ٠

فالحقيقة أن هناك أسبابا كثيرة تضافرت لتجعل امبراطور الروم باسل الأول لا يسارع بالقيام بهجوم بحرى ضد مصر ـ مقر ابن طولون الأساسى

96. Cam. Hist. of Islam, V. 1, p. 184.

(٩٧) د٠ سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٩١ ٠ ويضيف نفس المرجع أن ابن طولون جدد بناء دور الصناعة التى تصنع بها السفن ودب النشاط فى القواعدالبحرية فى دمياط والاسكندرية ٠

(٩٨) د٠ سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٢ ٠

(٩٩) المرجع السابق نفس الصفحة ٠

100. G. Ostrogorsky : Op. cit., p. 578.

(١٠١) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٣٢٨ ٠ كان ارسال حالكم منطقة الثغور العربية الذى كان قد وقع أسيرا فى أيدى الروم دليلا على رغبة الامبراطور فى كسب ودأحمد بن طولون ٠ (د٠ سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٢) ٠

انذاك ـ ليجهض تلك القوة البحرية الناشئة قبل أن يستفحل خطرها • ذلك لأنه كان مشغولا بالحرب فى جبهات مختلفة شرقية وغربية وباقرار نفـــوذ الروم فى أكثر من جبهة •

ففى مستهل حكمه عاد نفوذ الروم من جديد الى الساحل الادرياتى الشرقى وتم انشاء الثيماتا الدلماشية The Theme of Dalmatia فى ذلك الوقت أيضــا • كذلك أجبـرت القبـــائل السلافية على تقديم التأييد الحربى لدولة الروم • وازداد نفوذ الروم قوة ورسوخا فى البلقان • كما شهدت تلك الفترة تحول الكثير من قبائل العرب والسلاف الى المسيحية بواسطة بيزنطة، وأحرز الروم نصرا مؤقتا على كرواتيا • وبصفة عامة ازداد تأثير الروم ظهورا فى كل من بلغاريا ومقدونيا وصربيا (١٠٢) •

واذا كان العرب قد استولوا على مالطة فى سنة ٨٧٠ م / ٢٥٧ هـ مما دعم مركزهم البحرى أكثر فى البحر المتوسط فان لويس الثانى امبراطور المانيا (١٠٣) ـ استطاع أيضا أن يستولى على بارى Bary سنة ٨٧١ م/ ٢٥٨ هـ • لكن رغم ذلك وجه الروم كل اهتمامهم لعدة سنوات تالية ناحيـــة الشرق حيث انشغلوا فى تتبع البيالقة (١٠٤) Paulicians فى آســيا الصغرى ، وتمكنوا من قتل زعيمهم حوالى ٨٧٢ م / ٢٥٩ هـ ، وبعد ذلك اندفع الامبراطور باسل الى اقليم الفرات فى ٨٧٣ م فاستولى على زبطره وسميساط • واذا كان باسل قد منى بهزيمة قاسية عند ملطية وعند أطراف طوروس فانه اكتفى بما حققه من نجاح جزئى ، وكان ذلك فاتحة لعـــدة حملات حربية منظمة على الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية •

كذلك أعاد الروم سيطرتهم على بارى بايطاليا ٨٧٦ م / ٢٦٣ هـ كمـا ردوا هجوما عربيا على الأقاليم الساحلية الدلماشـــية ، وعلى اليـــونان والبلبونيز بل انهم خططوا للاستيلاء على جزيرة قبرص لمدة سبع سنوات • ثم لحق الروم ضربة قوية عندما استولى العـرب على سيراكوز Syracuse

---

102. G. Ostrogorsky : Op. cit., p. 236.
103. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 600.

(١٠٤) انظر كتاب المؤلفة : الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى ، ص ١٧١ ـ ١٧٨ •

بصقلية ٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م · ولكن فى السنوات الأخيرةمن حكم باسـل الأول ـ وخصوصا بعد أن أسندت القيادة العسكرية الى القائد نقفور فوقاس «عاد جنوب ايطاليا من جديد تحت الحكم البيزنطى » (١٠٥) ·

وما أن وصلت الدولة الطـــولونية الى شيخوختها وبدأت مظـــاهر الاضمحلال الاقتصادى تظهر عليها حتى بدأ الروم يوجهون أبصارهم اليها من جديد « فبدأوا يستأنفون هجماتهم البحرية على شواطئها » (١٠٦) ·

بموت هرون بن خمارويه فى ١٨ صفر ٢٩٢ هـ (١٠٧) / ٩٠٥ م انقرضت الدولة الطولونية وشرد رجالها أو ذبحوا · فلما عادت مصر الى المكتفى ، ولى عليها عيسى النوشرى أحد قواده · « كما ولى على مديريات مصر جماعة من قواد جيشه الآخـــرين ، وكان نصيب دمياط وتنيس معا مهاجر بن طليق » (١٠٨) ·

وفى سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م انتهز الروم اضـــطراب أوضاع مصر وهاجموا دمياط بأسطول مكون من « مائتى مركب » وأقاموا حوالى شهرا يثيرون الفساد والاضطراب على الساحل « ويقتلون ويأسرون » فالتحـــم المسلمون معهم فى عدة معارك (١٠٩) ·

وعاد الروم لمهاجمة دمياط مرة أخرى سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م فدخلوا

---

105. G. Ostrogrsky : Op. cit., pp. 237-238.

هنا يضيف استروجورسكى : « أن روما نفسها التى كانت مهددة بواسطة الهجمات العربية المستمرة على السواحل الايطالية ، اضطرت لطلب النجدة من الامبراطور البيزنطى · وهذه نقطة جديرة بأن يلفت اليها النظر عن الموقف المتسامح الذى اتخذته البابوية فى الشئون الدينية أنذاك تجاه البيزنطيين » ·

106. Cam. Hist. of Islam, V. 1, p. 181.

(١٠٧) الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، ص ٢٤٦ · فقد ذكر أن هرون قتل ليلة الاحد لاحدى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة اثنين وتسعين ومائتين » وهنـا أخطأ الشيخ عبد الله الشرقاوى فه كتابه تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاه والسلاطين ، جـ ١ ، ص ١٢٧ حين ذكر أن هرون توفى فى سنة ٢٩١ هـ ·

(١٠٨) نقولا يوسف : تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ، ص ١٠٩ ·

(١٠٩) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ·

المدينة « وأخذوا من فيها وما فيها وضربوا الناقوس فى جامعها » (١١٠) ٠

وفى ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م أسس محمد بن طغج الاخشيد الدولة الاخشيدية (١١١) ٠ فعنى بانشاء المراكب الحربية ونقل جزءا من دار صناعة السفن من جزيرة الروضة الى الفسطاط فى دار عرف باسم «صناعة السفن » وغدت السفن الحربية والتجارية تصنع فى دار صناعة مصر تارة وفى دار صناعة الجزيرة تارة أخرى (١١٢) ٠

وعندما انشغل الروم بقيادة حنا كوركواس بالحرب مع سيف الدولة الحمدانى ـ وذلك فى الأربعينات من القرن العاشر الميلادى ، والثلاثينات من القرن الرابع الهجرى « ولكى يحموا أنفسهم من ذلك العدو الجديد اضطروا للدخول فى علاقات ودية مع خلافة بغداد ومع الاخشيديين فى مصر » (١١٣) لذلك لم نقرأ عن حملات للروم وجهت الى شواطىء مصر فى تلك الفترة ٠

ولكن كدأب الروم دائما أنه كلما لمحوا بادرة صغيرة من بوادر الضعف فى شئون مصر سارعوا بارسال حملة بحرية اليها ٠ فقد انتهز الروم الفتن التى سادت مصر بعد وفاة كافور الاخشيدى (١١٤) ٠ وهاجموا دمياط فى العاشر من رجب ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م « طرق الروم دمياط لعشر خلون من رجب سنة سبع وخمسين وثلثمائة ، فى بضع وعشرين مركبا» فقتلوا وأسروا حوالى مائة وخمسين من المسلمين (١١٥) ٠

---

(١١٠) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٢ ٠

(١١١) د٠ سيده كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٩٣ ـ ٩٤ ٠

(١١٢) د٠ سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ٠٠٠٠ ، ص ٩٤ ٠

113. G. Ostrogorsky : Op. cit., p. 276.

(١١٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ، زامبور : معجم الانساب ٠٠٠ ، ص ١٤٤ ٠ أما الشيخ عبد الله الشرقاوى : تحفة الناظرين ٠٠٠ ، جـ ١ ، ص ١٢٩ فقد أخطأ فى تحديد سنة وفاة كافور حين ذكر أنها كانت سنة ٣٤٩ هـ والصحيح ان هذا التاريخ هو تاريخوفاة أونوجور بن الاخشيد الذى قيل أن كافور دس له السم فمات (د٠ سيده كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ١٣٥) ٠

(١١٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ٠ هنا تذكر الدكتورة سعاد ماهر أن ذلك كان فى العاشر من يونيه ٩٥٨ م ولكن الراجح أنها ٩٦٨ م ٠ بمقابلتها بالتاريخ الهجرى الذى ذكره المقريزى وبالاستعانة بزامبور : معجم الانساب ص ٥٢٥ ـ ٥٢٦٠

وبقيام الدولة الفاطمية كان اهتمام الخليفة المعز لدين الله ، أبو تميم معد (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ (١١٦) / ٩٥٢ ـ ٩٧٥ م) بالبحر شديدا ، حتى أن أهالى جزيرة كريت استنجدوا به ضد تهديدات الروم وأوضحوا له أن مجيء الأسطول الفاطمى اليهم يتيح له فرصة الحصول على قاعدة حربية قريبة من القسطنطينية عاصمة الروم ويهيىء للفاطميين مركزا لسيادة شرق البحر المتوسط ٠٠٠ وبالفعل بادر المعز بالاتصال بالاخشيديين وطلب منهم مساعدته فى تلك المهمة (١١٧) ٠ ولكن تدهور أحوال الاخشيديين بعد وفاة كافور كما رأينا شجعت الروم على مهاجمة دمياط ٠

هذا وقد وصلت البحرية المصرية فى عهد الخليفة العزيز ، أبو منصور نزار (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ (١١٨) / ٩٧٥ ـ ٩٩٦ م) درجة كبيرة من التقدم مكنته من اعداد حملة بحرية لغزو بلاد الروم غير أن تلك الحملة لم تحقق الغرض الذى كانت تجهز من أجله « لاحتراق مراكبها » (١١٩) عندئذ أرسل

---

(١١٦) زامبور : معجم الانساب ٠٠٠ ، ص ١٤٤ ٠

(١١٧) د٠ سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٤ ـ ٩٦ ٠

(١١٨) زامبور : معجم الانساب ٠٠٠ ، ص ١٤٤ ٠

(١١٩) د٠ حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٧ ٠ اذا كان الدكتور حسن ابراهيم يذكر هنا أن الحملة كانت قد أرسلت بالفعل الا أن الدكتورة سعاد ماهر: المرجع السابق ص ٩٨ تذكر أنها كانت فى مرحلة الاعداد ولو أنها اخطأت فى ذكر السنة حيث قالت انها ٩٩٦ م وهى تقابل بذلك ٣٨٦ هـ ، ولكن الراجح أنها ٣٧٧ هـ لان الروم بعثوا بعدها فى طلب الصلح من العزيز ٠ وتفصل لنا الدكتورة سعاد ماهر الحديث عن احتراق تلك الحملة أثناء اعدادها بقولها : « ان الروم هالهم قوة الاسطول المصرى فى العصر الفاطمى فلجأوا الى بعض أساليب الغدر والخيانة لعرقلة استعدادات الفاطميين البحرية ، فقد حدث سنة ٩٩٦ م أن أمر الخليفة العزيز بالله باعداد أسطول عظيم فى دار الصناعة بالمقس للهجوم على قواعد الروم المجاورة للشام ، ولكن ما كادت دار الصناعة تفرغ من بناء السفن حتى نشبت فيها النار وأحرقت معظم قطع الاسطول واتهم الخليفة الفاطمى تجار الروم وعملاءهم من مدينة أمالفى بتدبير هذا الحادث واعترف الروم بجريمتهم وغادروا البلاد مطرودون » (د٠ سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٩٨ عن (Bréhier : Vie et Mort de Byzance .

امبراطور الروم رسله الى الخليفة العزيز لطلب الصلح وحملهم بالهدايا فوافق الخليفة على الصلح (١٢٠) ٠

والحقيقة أن الامبراطور باسل الثانى Basil II ٩٧٦ ـ ١٠٢٥م (١٢١) / ٣٦٦ ـ ٤١٦ هـ مرت به آنذاك بعض الأحداث اضطرته الى طلب تلك الهدنة من الفاطميين (١٢٢) ٠

لكن الهدنة لم تستمر طويلا «بسبب الصراع الفاطمى الحمدانى الذى

---

120. Cam. Med. Hist. V. IV. Part. 1, p. 724,

د٠ الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، طبعة ١٩٦٥ ص ٦١١

د٠ سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٨ ، د٠ حسن ابراهيم حسن :تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٧ ،د ٠ على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٢ ٠ ويذكر المرجعان الاخيران أن أهم شروط ذلك الصلح كانت : اطلاق سراح أسرى المسلمين ، الدعاء للخليفة الفاطمى بجامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة ، وأن تكون مدة الهدنة بين الفريقين سبع سنين ٠ أما أسد رستم ، جـ ٢ ، ص ٥٤ ـ ٥٥ فيذكر أنمسجد القسطنطينية كان قد أقيم منذ القرن الثامن (عن Slumberger, Dolger)

121. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 578.

(١٢٢) بعد هزيمة الامبراطور باسل فى بلاد البلغار بدأت الارستقراطية البيزنطية تتشجع على الثورة فتجهز سكليروس لغزو أسيا وكان يدعى الملك لنفسه فى حين أن برداس فوكاس لم يكن أقل طموحا من سكليروس ولم ينس ما نزل به فى السنوات القليلة الماضية من الاذلال والمهانة بأن عزله عن دمستقية الشرق التى يتولى صاحبها القيادة العامة للجيوش البيزنطية فى الشرق ٠ يضاف الى ذلك أن بارداس اتخذ عمه الامبراطور نقفور فوقاس مثله الاعلى ثم أعلن نفسه امبراطورا فى اغسطس سنة ٩٨٧ م م / ٣٧٧ هـ ٠ وهكذا أصبح هناك امبراطوران فى اسيا برداس سكليروس وبرداسفوقاس (يسميهم أسد رستم البرداسيين) ٠ وامبراطوران بالقسطنطينية (باسل وقنسطنطين) وخشى الاولان اذا تطاحنا أفاد من ذلك الاخران متحالفا واتفقا ضد عدوهما المشترك ٠ وعلى ذلك بدأ باسل يستعين بالجند المرتزقة من الروس ليوازن بذلك الانشقاق الداخلى فى امبراطوريته بينه وبين كبار القواد ٠ وأدت تلك الظروف مجتمعة الى خوف باسل من الدخول فى حرب مكشوفة مع الفاطميين فسعى لعقد هدنة معهم سنة ٣٧٧ هـ (د٠ الباز العرينى : الدولة البيزنطية طبعة ١٩٦٥ ، ص ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، د٠ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، طبعة ١٩٦٣ ، ص ٦٨ ، د٠ أسد رستم :الروم ، جـ ٢ ، ص ٥٤) ٠

تحول الى صراع فاطمى بيزنطى بسبب استنجاد ولاة حلب الحمدانيين بالبيزنطيين » (١٢٣) ٠

وبوفاة الخليفة العزيز ، خلفه الخليفة الحـــاكم ، أبو على المنصور (٣٦٨ ـ ٤١١ هـ / ٩٩٦ ـ ١٠٢١ م الذى « أحرزت الجيوش المصرية فى بداية عهـــده العـــديد من الانتصـــارات على الدولة البيزنطية فى بــلاد الشام (١٢٤) » ٠ وعندما وصلت تلك الأخبار الى الامبراطور باسل حــزن حزنا شديدا لأنه كان مشغولا حينئذ بحرب البلغار ، فحرص على أن يستتب الأمن والسلام فى بلاد الشام حتى يتفرغ لحربه مع البلغار ، اذ كان يخشى من تدخل الفاطميين فى بلاد الروم ، لذلك طلب عقد هدنة سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م لكن الحاكم بأمر الله بعث له باجابة غير مرضية مما جعل الامبراطور

---

123. Grousset : L'Empire du Levant, p. 123.

ولقد سيطر الحمدانيون على حلب فى الفترة ما بين سيف الدولة أبو الحسن على ٣٣٣ هـ الى اخضاع الفاطميين لمرتضى الدولة أبو نصر منصور بن لؤلؤ ٤٠٦ هـ (زامبور: معجم الانساب ٠٠٠ ، ص ٢٠١) استنجد سعد الدولة الحمدانى (٣٥٦ م ـ ٣٨١ هـ) بالروم ضد الفاطميين فقدم اليه جيش رومى بقيادة ميخائيل بورتزيه ، لكن لحقت بهم الهزيمة وأسر قائد الروم (Grousset : Op. Cit., p. 123) وبعد وفاة ســـعد الدولة حاول الفاطميون الاستفادة من صغر سن ابنه سعيد الدولة (٣٨١ ـ ٣٩٢ هـ) للاستيلاء على حلب فاستنجد سعيد الدولة بالامبراطور باسل الثانى وكتب اليه « لتأت مسرعا يا باسل ، ان الصوت الوحيد أو الاشاعة بمجيئك سوف تجبر المصريين على فك الحصار » فتقدم باسل بنفسه ، وكان قد فرغ من حرب البلغار ، ووصل فى ربيع الثانى ٣٨٥ هـ فى سرعة مذهلة فقدم اليه أميرها فروض الولاء والطاعة ، وتقدم باســـل فاستولى على شيزر وحمص ورفنيه من الحاميات الفاطمية ٠

د٠ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٦٨ ، (Grousset : Ibid., p. 124)

عندئذ أفاق الامير الحمدانى من الصدمة وأدرك الخليفة الفاطمى خطاه فى استمرار النزاع بينهما فقرر عقد الصلح ٣٨٥ هـ ثم رأى الخليفة العزيز الخروج بنفسه لقتـال الروم حتى اذا ما وصل الى بلبيس توفى فى رمضان ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م (ابن القلانس . ذيل تاريخ دمشق ، ص ٤٤ ، ابن ميسر ! أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٥٠ ، د٠ على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٣ ،

Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1, p. 724).

124. Lane-Poole, St. : A Hist. of Egypt... V. 1, p. 159, Cam. Med. Hist. V. IV, Part 1, p. 725, Grousset : L'Empire du Levant, p. 124.

يصمم على الاتجاه بنفسه الى بلاد الشام مرة أخـــرى تاركا القيادة فى بلغاريا لنقفور أورانوس (١٢٥) ٠

وبالفعل قدم الامبراطور باسل بنفسه الى بلاد الشام ٩٩٩ م / ٣٩٠ هـ وأحرز عدة انتصارات على الفاطميين فيها (١٢٦) ٠ وعندئذ عـــلم بوفاة ملك الكرج الذى كان قد أوصى بملكه قبل وفاته لباسل ، لذلك أسرع باسل بالعودة وضم بلاد الكرج الى امبراطوريته (١٢٧) ٠ وبوصـــول باســن للقسطنطينية وجد هناك سفارة بعثها الحاكم بأمر الله برئاســـة أريسطس Arestes بطريرك بيت المقدس يطلب عقد هدنة لمدة عشر سنوات وذلك ١٠٠١ م / ٣٩٢ هـ (١٢٨) ٠

وهناك رأى آخر يذكر أن امبراطور الروم هو الذى أرسل رسله الى مصر لطلب الهدنة وأن الحاكم أعد عدته لاستقبال السفراء وبالغ فى تزيين القصر وفى الحفاوة برسول الروم ، وتم الاتفاق على صلح لمدة عشر سنوات (١٢٩)

ومهما اختلفت الآراء فان مانود أن نؤكده هنا هو أنه عقدت هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات ٠ الا أن تلك السياسة الودية ما لبثت أن تبدلت الى علاقة عدائية عندما علم الامبراطور البيزنطى بنبأ السياسة العـــدائية التى اتبعها الحاكم ازاء النصارى (١٣٠) ، وظل الأمر كذلك حتى عهد

---

(١٢٥) د٠ الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٦٧٤ (طبعة ١٩٦٥) ٠

(١٢٦) د٠ العرينى : المرجع السابق ، ص ٦٧٦ ، أسد رستم : الروم ، جـ ٢ ، ص ٥٦ - ٥٧،
Grousset : L'Empire... p. 125, Cam. Med. Hist. V. IV. Part. 1, pp. 724-725.

(١٢٧) أسد رستم : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٧ ٠

(١٢٨) د٠ الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٦٧٧ (طبعة ١٩٦٥) ،
Cam. Med. Hist. V. IV, Part. 1, p. 725.

(١٢٩) د٠ أسد رستم : الروم ، جـ ٢ ص ٥٧ ، د٠ على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، د٠ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٥٨

130. William of Tyre : A History of Deeds done beyond the See, V. 1, pp. 66-67

الخليفـة الظـاهر أبو الحسن على (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ (١٣١) / ١٠٢٠ ـ ١٠٣٥ م) فعملت عمته ست الملك التى كانت وصية عليه على اقامة علاقات ودية بين مصر ودولة الروم (١٣٢) ٠

تلى ذلك فترة من الهدوء النسبى بين الجانبين ففى سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م عقـــدت معـــاهدة بين امبراطـــور الروم قنســـطنطين الثامن Constantine VIII ١٠٢٥ ـ ١٠٢٨ / ٤١٦ ـ ٤١٩ هـ وبين الخليفة الظاهر تمت بمقتضاها الموافقة على الدعوة للظاهر فى الخطبة فى جـــامع القسطنطينية (١٣٣) ٠ كذلك عقد الظاهر معـــاهدة صداقة مع الامبراطور رومانوس الثالث Rumanus III Argerus (١٠٢٨ ـ ١٠٣٤ م) (١٣٤) ٠

وفى أوائل عهد الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد ٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ (١٣٥) / ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م كانت العلاقة بين الدولة الفاطمية ودولة الروم

=

وقد فصل وليم الصورى تلك السياسة الشاذة للحاكم بأمر الله وعلى رأسها «نبش كنيسة السيد المسيح » أى كنيسة القيامة ببيت المقدس : ولو اننا نرجح أن ذلك فيـــه مبالغة شديدة من جانب وليم كعهده دائما مع المسلمين عامة فكيف لا يكون هذا رأيه فى الحاكم بأمر الله ٠

(١٣١) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة ٠٠٠ ، ص ١٤٤ ٠

(١٣٢) د٠ على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٤ ٠ أرسلت نقفور بطريرك بيت المقدس سفيرا الى الامبراطور ليبلغه أمر الاجراءات التى اتخـذت فى القاهرة لصالح النصارى وتجديد بناء الكنائس ٠

وهنا أخطأ د٠ أسد رستم : الروم ، ج ٢ ، ص ٦٥ فى نقطتين حين ذكر أن التى كانت تقوم بالوصاية فى ذلك الوقت كانت أرملة الظاهر والحقيقة أنها عمته ست الملك كما ذكر كذلك أن الذى كان قاصرا هو المنتصر ، والحقيقة أنه الظاهر ٠

133. Lane-Poole. St. : A Hist. of Egypt... V. 1, p. 136.

تقرر فيها الخطبة للظاهر ببلاد الروم وافتتاح الجامع فى القسطنطينية وتزويده بالحصر والقناديل ومده بمؤذن ، وعند ذلك اذن الظاهر بفتح كنيسة القيامة التى بالقدس (المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٥ ، د٠ على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٨٤ ، د٠ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٨) ٠

134. William of Tyre : Op. Cit., V. I, p. 69.

(١٣٥) زامبور : معجم الانساب ٠٠٠٠ ، ص ١٤٥ ٠

على شىء من الصفاء أيضا ٠ ففى سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م تم الاتفاق بين الخليفة المستنصر والامبراطور ميخائيل الرابع Michael IV (١٠٣٤ ـ ١٠٤١ م (١٣٦) / ٤٢٦ ـ ٤٣٣ هـ) ٠

ثم تجددت العلاقات الودية بين الخليفة المستنصر والامبراطور قنسطنطين التاسع مونوماخوس Constantine IX Monomachus (١٠٤٢ ـ ١٠٥٥ م / ٤٣٤ ـ ٤٤٧ هـ) ٠ وعليه ففى ٨ ذى الحجة سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م وردت هدية من الامبراطور قنسطنطين التاسع للخليفة المستنصر بالله الفاطمى « كان من جملتها بغل وحصان من أحسن الدواب وأغلاها قيمة ، كل منهما عليه ثوب ديباج رومى منقوش ثقيل وخمسون بغلا عليها مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة قطعة بميناء ، وفيها من الديباج والسندس والابريسم والعمائم المعلمة ما لا يقدر على مثله فعوض عن هديته بمثلها من حق مصر ومن الجوهر والمسك والعود والطراز ، عمل تنيس ودمياط ، ما هو أكثر قيمة مما بعثه (١٣٧) ٠

وفى ١٠٤٧ ـ ١٠٤٨ م / ٤٣٩ ـ ٤٤٠ هـ وقعت معاهدة بواسطة قنسطنطين مونوماخوس ، الذى تبادل فى مناسبات عديدة السفارات مع الخليفة الفاطمى المستنصر ٠ وفى ١٠٥١ ـ ١٠٥٢ م / ٤٤٣ ـ ٤٤٤ هـ تمكن الامبراطور قنسطنطين من القبض على الرسول الذى كان متوجها الى حاكم شمال افريقيا الثائر وأخبر به الخليفة المستنصر بسرعة (١٣٨) ٠

---

(١٣٦) ابن الاثير ٠ الكامل ، جـ ٩ ، دار صادر وبيروت ١٩٦٦) ، ص ٤٦٠ ٠
وقد تم الاتفاق بينهما على أن يطلق الروم خمسة آلاف أسير وأن يعمروا كنيسة القيامة التى كانت قد خربت أيام الخليفة الحاكم بأمر الله ٠ فأطلق امبراطور الروم الاسرى وأرسل من عمر الكنيسة وأنفق عليها أموالا كثيرة ، كذلك أصبح للامبراطور حق اختيار بطريرك بيت المقدس « ولو أن ذلك لا يفهم منه أن هناك أية حماية فرضت من الجانب البيزنطى على الاماكن المقدسة » ٠
(Cam. Med. Hist., V. IV, Part 1, p. 726.

(١٣٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ ٠

138. Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1, p. 726.

وقد وقع اتفاق جديد بين الجـــانبين فى ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ــ أثناء الشدة العظمى (١٣٩) التى عانت منها مصر آنذاك ــ وقد نص الاتفاق على أن يمد الامبراطور مصر بالغلال والأقوات ليستطيع الخليفة بذلك أن يقاوم الغلاء والمجاعة التى حلت بمصر فى تلك السنة (١٤٠) · « فقد هلك الناس بالجوع وفنيت ذخائر مصر بعد مقاساة شديدة من غلاء السعر · وكان القمح والشعير يجلب من بلاد الأندلس وبلاد النصارى · وكان التجـــار الذين يجلبونه يأخذون فيه الجوهر والياقوت وغير ذلك من ذخائر مصر » (١٤١)

وقد اختلفت الآراء عن مدى تنفيذ الاتفاق السابق الذكر فبينما يذكـــر العينى أن الامبراطور ارسل للمستنصر « أربعمـــائة أردب » من غـــلات بلاده (١٤٢) · أو بمعنى آخر آمد الفاطميين بالقمح (١٤٣) · يذكر رأى آخر أن الامبراطور قنسطنطين التاسع مات قبل أن ينفذ الاتفاق (١٤٤) ·

لكن مهما كان الأمر فان الامبراطورة ثيودورا Theodora التى خلفته

---

(١٣٩) هنا يذكر عبد الله الشرقاوى فى كتابه تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاه والسلاطين ، جـ ١ ، ص ١٣٩ أنه حدث فى عهد المستنصر (غلاء عظيم لم يعهد مثله الا ما كان فى زمن يوسف عليه السلام فمكث سبع سنين حتى اكل الناس بعضهم بعضا وبيع الرغيف الواحد بخمسين دينارا وخرجت امرأة بمد جوهر وطلبت عوضه مدبر فلم يوجد من يأخذه) ·

140. Cam. Med. Hist. V. IV. Part. I, p. 726, ·

د· حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٩ ، د· على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٤ ·

(١٤١) تحقيق الدكتور حسن نصار : النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب ، مطبعة دار الكتب ١٩٧٠ ، ص ٧٩ ·· ويضيف نفس المرجع ص ٧٨ « أن المستنصر لقى شدائد وأهوالا وانفتقت عليه الفتوق بديار مصر فأخرج فيها أمواله وذخائره الى أن بقى لا يملك غير سجادته التى يجلس عليها وهو مع ذلك صابر غير خاشع » ·

(١٤٢) العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان جزء ١٥ مجلد ١ ص ٩٨ · مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ ·

(١٤٣) أسد رستم : الروم ، جـ ٢ ، ص ٦٩ · عن (Dolger, Regesten)

(١٤٤) د· حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٩ ، د· على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٤ ·

اشترطت مساعدة الفاطميين الحربية ضد السلاجقة فى مقابل امدادها لهم بالقمح ، فلما رفض المستنصر منعت عنه القمح (١٤٥) • فما كان من المستنصر الا أن أرسل حملة حربية الى أنطاكية فردت الامبراطورة على ذلك بارسال حملة بحرية سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م • فأرسل المستنصر الى القسطنطينية بالقاضى عبد الله القضاعى لتسوية الخلاف بين الدولتين (١٤٦)

ولكن ثيودورا لم تهتم بوجود رسول المستنصر ، بينما سمحت لرسول السلطان طغرلبك السلجوقى بالخطبة للخليفة القائم العباسى ، فغضب المستنصر واستولى على نفائس كنيسة القيامة (١٤٧) •

ولم تلبث دولة الروم أن دخلت فى مرحلة حرجة من تاريخها « بدأ فيها موكب الغروب ليسجل بداية النهاية لتلك الدولة وهى الفترة الممتدة من ١٠٥٧ ـ ١٢٠٤ م (١٤٨) •

ويجمل لنا الأستاذ الدكتور حسنين ربيع معالم تلك الفترة بقوله أنه بوفاة الامبراطورة ثيودورا فى ١٠٥٦ م / ٤٤٨ هـ انتهت الأسرة المقدونية وبدأت فترة من الفوضى والاضطراب استمرت لمدة خمس وعشرين سنة انتهت بتولية الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية وكانت أهم ملامح تلك الفترة من الفوضى والاضطراب التى شاهدتها الدولة البيزنطية بين سنتى ١٠٥٦ ـ

---

145. Cam. Med. Hist. V. IV. Part. 1, p. 726,

د• أسد رستم : الروم ، جـ ٢ ص ٧٨ عن Wustenfeld

وقد نسيت ثيودورا أن مصر كانت يوما ما مخزن قمح القسطنطينية •

(١٤٦) د• حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٩ ، د• على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٥ • يذكر عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ٢٣٣ « أن أبو عبد الله محمد بن سلامه بن جعفر القضاعى ، الفقيه المحدث المؤرخ ، ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وتوفى سنة ٤٥٤ هـ وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى ، وتولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد المستنصر بالله وأوفده المستنصر الى ثيودورا امبراطورة القسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ » •

(١٤٧) ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٧ ،

Cam. Med. Hist. V. IV, Part 1, p. 726.

(١٤٨) د• حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٥٦

١٠٨١ م ما حدث من زيادة النزاع بين الفئات العسكرية فى المناطق الثغرية من أرباب السيوف وأفراد السلطات البيروقراطية فى العاصمة القسطنطينية من أصحاب الأقلام ، وما حـــدث من تغييرات اجتماعية واقتصادية هــزت المجتمع البيزنطى ، وما تعرضت له بيزنطة من أخطار خارجية من النورمان والبشناق Patzinaks والسلاجقة وغيرهم» (١٤٩) ٠

ويكفى للتدليل على مدى الهزات التى أصيبت بها دولة الروم آنذاك أن نذكر هزيمة الروم فى موقعة مانزيكرت ١٠٧١م / ٤٦٣ هـ على يد السلاجقة وأسر الامبراطور رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٨ ــ ١٠٧١ م) على يد السلطان ألب أرسلان السلجوقى (١٥٠) ٠ وما ترتب على تلك الموقعـــة من نتائج خطيرة بالنسبة لدولة الروم ٠ ذلك أنها لا تقل عن معركة اليرموك ٠ لأن مانزيكرت قررت مصير آسيا الصغرى ، واليرموك قررت مصير الشام ، فلقد كانت خسارة دولة الروم لولايات شرق آسيا الصغرى دليلا وبرهانا على قرب موت دولتهم أو بداية النهاية لحياتها « فعندما فقدت الدولة البيزنطيه ولاياتها الغنية فى آسيا الصغرى أصبحت القسطنطينية رأسا حرم من الجسد الذى يسنده » (١٥١) ٠

وبوصول الكسيوس كومنين الى عرش الروم ١٠٨١ ــ ١١١٨ م كان عليه أن يواجه الأخطار الثلاثة السابقة الذكر : الســـــلاجقة والبشناق والنورمان ٠

والواقع أن الخطر الأخير كان أشد وأقوى من أى وقت مضى بظهـور أطماع روبرت جويسكارد النورماندى فى عرش القسطنطينية نفسها (١٥٢)٠

---

(١٤٩) د٠ حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ١٦٥ ــ ١٦٦ ٠

150. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 344,

ابن الاثير : الكامل ، جـ ١ ، ص ٦٥ (دار صادر وبيروت ١٩٦٦ ــ ١٣٨٦ هـ) والب أرسلان حكم من ٤٥٥ ــ ٤٦٥ هـ (زامبور : معجم الانساب ٠٠٠٠ ، ص ٣٣٣)

(١٥١) د٠ حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ١٩٠ ــ ١٩١ ٠ عن Vryonis -

(١٥٢) كان روبرت جويسكارد زعيم النورمان قد انتهى فى ١٠٧١ م ــ وهى التى سبق أن ذكرنا أنه حدثت فيها موقعة مانزيكرت ــ من الاستيلاء على مدينة بارى وهو

=

وبوفاة جويسكارد بالطاعون فى بداية ١٠٨٥ م دخلت ايطاليا فى فترة من الاضطراب واستراحت دولة الروم من الخطر النورماندى لعدة سنوات (١٥٣)

وفى ١٠٩٠ - ١٠٩١ م هوجمت القسطنطينية برا وبحرا بواسطة البشناق فاستخدم الكسيوس كومنين الدبلوماسية البيزنطية فى الاستعانة ببعض القبائل البربرية خاصة الكومان الذين قدموا من سهول جنوب روسيا فى التخلص من الخطر البشناقى وانتهى الأمر بهزيمة البشناق فى معركة جبل ليفونيون Mt. Levunion الشهيرة فى ٢٩ ابريل ١٠٩١ م (١٥٤)

وباستيلاء السلاجقة على بيت المقدس ١٠٧٧ م كان على دولة الروم أن تبحث عن وسيلة تحمى بها الأراضى المقدسة باعتبار أن تلك الأراضى كانت يوما ما ضمن دائرة نفوذها · وربما كان ذلك هو الدافع لألكسيوس كومنين لطلب جنود مرتزقة من الكونت روبرت فلاندر Count Robert of Flanders, الذى زاره أثناء حجه سنة ١٠٨٩ م أو بداية ١٠٩٠ م والذى أعطاه وعدا بارسال خمسة آلاف فارس ، وكان نفس المطلب هو الذى رمى اليه الكسيوس عندما طلب المساعدة من روما وعلى رأسها البابا أوربان الثانى Urban II

« ولكن الأحداث تطورت بطريقة غير مرغوب فيها وغير متوقعة » ففى الوقت الذى بدأت فيه الحملة الصليبية الأولى تأخذ طريقها الى الشرق بسرعة كان الامبراطور الكسيوس يعد نفسه لحملة عسكرية الى آسيا الصغرى وبعد مرور خمسة عشر عاما قضاها امبراطور الروم فى صراعات مع جبهات معادية مختلفة وجد نفسه أمام خطر جديد لم يحسب حسابه (١٥٥) ·

=

العمل الذى جعله سيد جنوب ايطاليا ومن هذا المركز فى أبوليا استطاع روبرت جويسكارد تحقيق انتصارات سريعة بغزوه ما تبقى من أقاليم صغيرة للدولة البيزنطية فى داخل ايطاليا وسهلت انتصاراته فى جنوب ايطاليا استرداد صقلية من المسلمين · وأصبح جويسكارد دوقا لابوليا واعتبر نفسه خليفة شرعيا للاباطرة البيزنطيين ، وقد ذهبت آمال جويسكارد الى أبعد من أراضى جنوب ايطاليا فقد انتهز فرصة ضعف الدولة البيزنطية من الداخل ومشاكلها الخطرة فى الخارج وتطلع الى تحقيق حلمه فى الاستيلاء على التاج الامبراطورى البيزنطى · (د· حسنين ربيع : المرجع السابق، ص ١٩٤ ·

153. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 358.

154. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 360.

155. G. Ostrogorsky : Ibid., pp. 361-363.

ولم تلبث أن تطورت الأحداث بسرعة ووصل العديد من أمراء الغرب الى القسطنطينية فما كان من الامبراطور الكسيوس الا أن جعلهم يقسمون له يمين الولاء والطاعة وتم بين الجانبين اتفاق ١٠٩٧ م تعهد الأمراء الصليبيين بمقتضاه « أن يعيدوا للامبراطور كل ما استولوا عليه من مدن كانت تتبع فيما مضى الامبراطورية البيزنطية » ووعدهم الامبراطور فى مقابل ذلك بكل ما يحتاجون اليه من مؤن ومعدات عسكرية وان يتولى بنفسه قيادتهم مع كل قواته • ولقد وافق جميع أمراء الصليبيين على ذلك الاتفاق فيما عدا ريموند التولوزى (١٥٦) •

وقد نفذ الصليبيون بالفعل اتفاقهم مع امبراطور الروم ففور استيلائهم على نيقية فى يونية ١٠٩٧ م سلموها للامبراطور ، لكن ما أن استولى الصليبيون على انطاكية فى يونيه ١٠٩٨ م حتى انتهت علاقات الود والتآلف بين الصليبيين والروم وبدأت تظهر المنافسات الدفينة بين أمراء الصليبيين أنفسهم (١٥٧) • وبتعبير آخر كان استيلاء الصليبيين على أنطاكية ١٠٩٨م « مفترقا للطرق » (١٥٨) سواء بالنسبة للعلاقات بين دولة الروم والصليبيين أو بين الصليبيين أنفسهم •

وهنا يتبادر للذهن سؤال عن حقيقة موقف دولة الروم من مصر وشواطئها آنذاك ؟ خصوصا بعد أن لمسنا مدى حرص دولة الروم باستمرار على عدم التفريط فى مصر •

هنا يشير (رنسيمان) الى أن الامبراطور الكسيوس كومنين نصح الصليبيين أثناء تواجدهم بالقسطنطينية بالوصول الى شىء من التفاهم مع الفاطميين فى مصر (١٥٩) • وبالفعل أرسلت سفارة صليبية لهذا الغرض من نيقية (١٦٠) •

---

156. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 363.

كان أمراء الصليبيين الذين وافقوا على اتفاقية ١٠٩٧ م هم جودفرى بوايون دوق اللورين وهيو أف فرماندوا شقيق ملك فرنسا وروبرت النورماندى شقيق ملك انجلترا وروبرت أف فلاندرز وبوهيموند النورمانى ابن روبرت جويسكارد •

157. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 364.

(١٥٨) د• حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ٢١١ •

159. Runciman : Op. Op. Cit., V. 1, p. 229.

160. Runciman : Ibid., V. 1, p. 230.

وقبل أن نسترسل فى تتبع تلك السفارة ونتائجها نود أن نتوقف قليلا لنتعرف عن قرب على هدف الكسيوس كومنين الحقيقى من وراء نصيحته تلك · وهنا لن نجد تفسيرا أصدق مما دونته ابنته الأميرة المؤرخة أنا كومنينا نفسها عندما قالت « أنه عندما كان يتصارع عدوين للروم بعضهما مع بعض كان من الضرورى أن يساعد الامبراطور ـ والدها ـ الأضعف ، وليس ذلك بهدف أن تزداد قوته ، لكن لكى يتغلب على خصمه الآخر ، ثم بعد ذلك يستطيع الامبراطور أن ينتزع البلد من المنتصر ويجعلها ضمن ممتلكاته ويتلو ذلك أن يأخذ بالتدريج بلدا بعد آخر · وهكذا يستطيع الامبراطور أن يوسع رقعة الامبراطورية الرومانية التى أصبحت محدودة جدا وخصوصا بعد أن زادت قوة سيف الأتراك زيادة ملحوظة » (١٦١) ·

والواقع أن ذلك كان الهدف البعيد الذى رمى اليه الكسيوس من وراء نصيحته تلك للصليبيين ان صح تسليمنا بها · وعلى ذلك يتحالف الصليبيون والفاطميون ويقضى الحليفان على الأتراك السلاجقة عندئذ تسنح الفرصة لألكسيوس فيسهل عليه استعادة ممتلكات الروم من أيدى السلاجقة ، ثم بعد ذلك يأتى دور الفاطميين بعد أن تزداد قوته وسطوته · والراجح أن ذلك كان السبب فى عدم وجود أى احتكاكات رومية مصرية فى ذلك الوقت ·

بل ان المصادر والمراجع المختلفة تسهب فى الكلام عن مشروع التحالف الفاطمى الصليبى (١٦٢) · فى ذلك الوقت والذى يعتبر ـ فى رأينا ـ رد الفعل الطبيعى لتوصية الكسيوس والسفارة الصليبية الى مصر ، رغم اشارة رنسيمان الى أن الصليبيين لم يأخذوا بنصيحة الامبراطور (١٦٣) ·

---

161. Anna Comnena : The Alexiad... p. 158.
162. William of Tyre : Op. cit., V. 1, p. 224, J. Prawer : Op. Cit. T. 1, pp. 219-220. Runciman: Op. Cit., V. 1, p. 229, Stevenson · The Crusaders in the East, p. 26.

هنا يذكر الاستاذ الدكتور سعيد عاشور نقلا عن
Riant : Inventaire des Lettres des Croisades.

أن الصليبيين لم ينسوا نصيحة الامبراطور البيزنطى مما جعلهم يرحبون بالسفارة التى ارسلها اليهم الافضل فى أوائل ١٠٩٨ م أمام انطاكية ·
163. Runciman : Ibid., V. 1, p. 229.

وقد فصل لنا وليم الصورى الحديث عن ملابسات ذلك التحالف بصورة توضح مدى جهل الفاطميين فى مصر بمغزى الحركة الصليبية آنذاك . حيث ذكر فى روايته « أن المصريين كانوا ينظرون نظرة شك الى أى تقدم يحرزه (الفرس والأتراك) (١٦٤) ، ولقد سر (أمير مصر) (١٦٥) سرورابالغا لسماعه أخبار فقدان قلج أرسلان السلجوقى لنيقية ولحصار المسيحيين أنطاكية . وعندما طال حصارها وخشى من اخفاق أهلنا أرسل مبعوثين من قبله ليرجوا القادة أن يستمروا فى الحصار وأكد للمسيحيين أن السلطان (١٦٦) سيمدهم بالتأييد العسكرى والمؤن ، وكان عليهم أيضا أن يكسبوا ود القادة وأن يوقعوا معهم معاهدة صداقة » . ثم يؤكد وليم الصورى أن المبعوثين المصريين « قوبلوا بحفاوة واحترام من هادة جيشنا » (١٦٧) .

وكانت أهم النقاط التى دارت حولها المفاوضات الفاطمية الصليبية عندئذ هو أن تكون أنطاكية والمنطقة الشمالية من بلاد الشام للصليبيين وتكون بيت المقدس والأراضى المقدسة فى جنوب بلاد الشام للفاطميين (١٦٨) .

استمع الصليبيون الى المقترحات الخاصة بالتحالف الصليبى الفاطمى بسرور (١٦٩) واستقبلوا سفراء الفاطميين بمودة (١٧٠) . وكيف لايفرحوا وهذا غاية ما كانوا يتمنوه ، حيث يكفل لهم ذلك التحالف التخلص من نصف الجبهة الاسلامية آنذاك .

---

(١٦٤) يقصد بالطبع الخلافة العباسية والسلاجقة .

(١٦٥) يعنى هنا الوزير الفاطمى الافضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، الحاكم الفعلى لمصر أنذاك من ٤٨٧ ـ ٥١٥ هـ (زامبور : معجم الانساب ... د ص ١٤٩) ١٠٩٤ ـ ١١٢١ م والذى ظل يحكم مصر طوال عهد الخليفة المستعلى والعشرين سنة الاولى من حكم الخليفة الامر (د. عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٩٧) .

(١٦٦) يقصد الخليفة الفاطمى .

167. William of Tyre : Op. Cit., V. 1, pp. 223-224.

168. J. Prawer : Op. cit., T. 1, p. 220, Runciman : Op. Cit., V. 1, p. 229,

د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

169. J. Prawer : Ibid., T. 1, p. 220.

170. Runciman : Op. Cit., V. 1, p. 229.

وبعد عدة أسابيع عاد المبعوثين الفاطميين الى مصر محملين بالهدايا ومصحوبين بسفارة صليبية صغيرة (١٧١) ، للتفاوض مع أولى الأمر فى مصر (١٧٢) ٠

ولكن الأفضل لم يلبث أن أرسل جيشا استولى على بيت المقدس ١٠٩٨م ويقال أن ذلك حدث أثناء وجود السفارة المصرية فى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية (١٧٣) ٠ بينما يشير رأى آخر الى أن ذلك تم أثناء وجود السفارة الصليبية التى جاءت بعد ذلك الى مصر لتأكيد التحالف الصليبى الفاطمى (١٧٤) ٠

وثمة رأى يذكر أن الوزير الفاطمى الأفضل نظر الى الصليبيين على أنهم« جنودا مرتزقة لامبراطور الروم » (١٧٥) ، وعليه فقد دخل معهم فى مفاوضات للتحالف ضد السلاجقة السنيين أعداء الفاطميين ٠ وهذا يوضح لنا أنه حدث فى ذلك الوقت تقاربا بين كل من أولى الأمر فى مصر وبين امبراطور الروم ، ومما يعضد ذلك الرأى أن ثمة اتفاق سرى تم بين امبراطور الروم وبين الفاطميين فى مصر ٠ وقد شاء سوء الحظ أن تقع رسالة بهذا المعنى موجهة من الامبراطور الى الوزير الأفضل فى أيدى الصليبيين عقب موقعة عسقلان مباشرة (١٧٦) ٠

والذى نود أن نبرزه هنا هو أن دولة الروم لم تقم قبيل قدوم الحملة الصليبية الأولى الى الشرق وفى أثناء تواجدها به بأى هجمات على شواطىء مصر لانشغالها بالقضية الصليبية التى جدت على مسرح بلاد الشام ٠ ومنذ ذلك الوقت بدأ الصراع الصليبى الرومى على الأرض المقدسة يحل محل أى تطلعات أخرى لدولة الروم ٠

---

171. Runciman : Ibid., V. 1, p. 229.
172. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 220.

(١٧٣) د٠ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٩٨

174. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 220.
175. :Runciman : Op. Cit., V. 1, p. 229.

(١٧٦) د٠ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢١٧ ٠ عن (Chalandon : Alexis Comnene)

(هجمات الروم)

البـــاب الثـالث

التحالف بين الصليبيين والروم ضد مصر

الفصل الأول : الصليبيون وضرورة الاستيلاء على مصر ٠

الفصل الثاني : الدور الايجابى للتحالف بين الصليبيين والروم ٠

الفصل الثالث : الهجوم الصليبى الرومى على دميـــاط ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م

الصليبيون وضرورة الاستيلاء على مصر

تجددت هجمات نور الدين محمود (١) على ممتلكات الصليبيين فى بلاد الشام بعد فشل الحملة الصليبية الثانية ، ففتح ما تبقى فى يد الصليبيين من امارة الرها ، واستولى على مدن عديدة تقع فى شرق امارة أنطاكية ٠ وقد حاول بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ ـ ١١٦٢ م / ٥٣٩ ـ ٥٥٨ هـ) أن يوقف تلك القلاقل والاضطرابات بتجديد التحالف القديم مع دمشق من جهة وبازدياد التقرب من مانويل امبراطور الروم (٢) (١١٤٣ ـ ١١٨٠ م / ٥٣٨ ـ ٥٧٦ هـ) من جهة أخرى ٠ وهو ما أشار اليه (أبو شامة)بقوله : « أن المصالحة بين ملك الفرنج وبين ملك الروم تقررت والمهادنة انعقدت » وذلك فى ٥٥٤ هـ (٣) / ١١٥٩ م ٠

---

(١) قال عنه ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية (بالموصل) ، ص ١٦٣ « قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها واحسان يوليه ، وانعام يسديه »

ومما قاله العماد محمد بن حامد الكاتب عنه : « ٠٠٠٠ كانت للفرنج فى أيام غيره على بلاد الشام قطائع فقطعها ، وعفى رسومها ومنعها ، ونصره الله عليهم مرارا ، حتى أسر ملوكهم ، وبدد سلوكهم ، وصان الثغور منهم وحماها عنهم ٠٠٠ » (ابن الاثير : الباهر ، ص ١٧٤) ٠

(٢) أرنست باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ، ص ٧٧ ٠

(٣) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ١ ، ص ١٢٣ ٠ ولو أن امبراطور الروم دخل فى نفس الوقت فى علاقات ودية مع نور الدين أيضا فى جمادى الاولى سنة ٥٥٤ هـ « تجددت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعد تكرر المراسلات والاقتراحات فى التقريرات » وقد أوضح لنا ذلك أبو شامة فى نفس المصدر السابق والصفحة وأضاف قائلا « ان ملك الروم أجيب الى ما التمسه من اطلاق مقدمى الفرنج المقيمين فى حبس نور الدين فأنفذهم بأسرهم وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه من الاتحاف بأثواب الديباج الفاخرة المختلفة الاجناس الوافرة العدد ومن الجوهر النفيس وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة ، وما استحسن من الخيول الجبلية ٠٠ » ٠

بل انه لمن المرجح أيضا أن العـــلاقات المصرية الصليبية والمصرية الرومية كانت مستتبة الى حد ما فى ذلك الوقت أيضا · فقد ذكر (ابن ميسر) أنه فى ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م « وصل رسول الفرنج يطلب الصلح ورســـول من صاحب قسطنطينية يطلب مراكب نجدة له على صاحب صقلية » لذلك فعندما خرجت القوات المصرية فى البر والبحر فى تلك الســـنة عادوا بكثير من الأسرى منهم شقيق صاحب جزيرة قبرص فأكرمه الصالح ـ طلائع بن رزيك وزير مصر آنذاك ـ وسيره الى امبراطور الروم (٤) ·

ولقد ظل الاتصال مستمرا بين مملكة بيت المقدس ودولة الروم ، أثناء حكم بلدوين الثالث وعمورى الأول (١١٦٢ ـ ١١٧٤ م (٥) / ٥٥٨ ـ

---

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٩٧ ـ ٩٨ · والصالح طلائع بن رزيك تولى الوزارة فى مصر للخليفة الفاطمى الفائز وذلك فى الفترة ما بين ٥٤٩ الى ٥٥٥ هـ · (زامبور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة ··· ، ص ١٥٠ ·

(٥) كان عمورى الاول يمتلك من المواهب ما جعلت منه ملكا ممتازا ، فمثلا كان يفضل التسلية بأشياء تحتاج لجهد مثل الصيد عن المسرحيات الكوميدية وكان ماكرا . ورغم أنه لم يكن مثقفا ما فيه الكفاية الا أنه كان يهوى القراءة والدخول فى مناقشات مع رجال مثل وليم الصورى ـ الذى كتب تاريخه بالحاح منه ـ وكان متذوقا لكل ما يسمعه أو يقرأ له · الى جانب أنه كان شجاعا لدرجة الجرأة فى المعركة ، رابط الجأش وحاسما فى قيادته ، له شهرته فى الدبلوماسية والاستراتيجية · ولكن رغم كل انجازاته لم تكن له شعبية أخيه بلدون ، فقد كانت تنقصه عذوبة معاشرة بلدوين وكان يميل للصمت وأحيانا كان استبداديا ، كما كان مفرطا فى فرض الضرائب ، قادرا على تبرأة نفسه من الاثم بما يقدمه من مبررات · عارضه بعض البارونات بسبب زوجته Agnes of Courtenay التى كانوا يعتبرونها حقيرة تافهة ، وقد صدق حدسهم فيما بعد حيث مارست تأثيرا شريرا على شؤون المملكة (Setton : A History of the Crusades, V. 1, p. 549, Norman Daniel : The Arabs and Mediaeval Europe p. 179)

تزوج عمورى أيضا من أميرة رومية واعترف بسيادة الامبراطور مانويل الذى انفق الكثير على كنائس الاماكن المقدسة وآثارها ، وقد اعترف الملك عمورى بذلك وأقام النقوش تخليدا لاهتمام سيده «ولا تزال هناك كتابة باليونانية تحفظ ذكر ما يدل على سيادة الفسيلفس (الامبراطور) وهذا النقش التاريخى يبدأ بعبارة : فى عهد عمانوئيل وكما كان أمورى ملك أورشليم » (د· أسد رستم : الروم ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ عن (Corpus Inscript, Graecarum)

هذا وقد كان عمورى مولعا بالتنجيم والمنجمين الذين لعبوا دورا هاما فى فترة حمـــلاته على مصر · (Norman Daniel : Op. Cit., p. 179.

٥٧٠ هـ) · بل ان علاقات الروم مع الصليبيين ظلت حسنة طيبة حتى نهـاية عهد مانويل الذى ظل « محافظا على احترامه لأمراء الفرنجة مكبرا فيهـم مثلهم العليا فى الفروسية طوال أيامه » (٦) · وقد تزوج كل من بلدوين وعمورى من بيت كومنين ·· كما تزوج مانويل من ماريا أميرة انطـاكية وابنه ريموند (٧) ·

ولم يلبث بلدوين الثالث أن هدد بغزو مصر حوالى ١١٦٠ م (٨) / ٥٥٦ هـ أو ١١٦١ م (٩) / ٥٥٧ هـ منتهزا فرصة الفوضى التى عمتها عقب مقتل الخليفة الفائز ٥٥٥ هـ (١٠) / ١١٦٠ م ، ولكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائة وسـتين ألف دينار (١١) ·

---

(٦) أسد رستم : الروم ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ ·

(٧) أرنست باركر : المرجع السابق ، ص ٧٧ ، المؤلفة : المرأة فى الحضارة البيزنطية ص ٤٣ ـ ٤٦ · بعد وفاة زوجة الامبراطور مانويل الاولى (برته الالمانية) اتجه نحو قصور الامراء الصليبيين ليفتش عن « فسيلسه » جديدة (أى امبراطورة) وكاد يجدها فى طرابلس فى شخص شقيقة أميرها الصليبى · ثم اثر الاقتران بمريم ابنة قسطنسه (مارى ابنه كونستانس) وريثة انطاكية فتزوج منها فى سنة ١١٦١ م (أسد رستم : ١ الروم ، جـ ٢ ، ص ١٥٣ عن Chalandon))

(٨) د· سعيد عاشور : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٠٤ عن وليم الصورى وميخائيل السريانى ·

9. The Chronography of Bar Hebraeus, V. I, p. 286.

(١٠) هو أبو القاسم عيسى تولى فى مستهل صفر ٥٤٩ وتوفى فى ١٧ رجب ٥٥٥ هـ (زامبور : معجم الانساب ··· ، ص ١٤٥)

كان احتمال سقوط الخلافة الفاطمية وسط مؤمرات القصر وعمليات القتل الكثيرة التى حدثت فى مصر ، تجعل الصليبيين فى بيت المقدس فى حالة قلق شديد من وقوع مصر فى قبضة مسلمى بلاد الشام السنين أى نور الدين ورجاله
The New Encyclopaedia Britannica, V. 5 (1768) p. 302.

بل قيل ان من أكبر العوامل التى حركت بلدوين الثالث انذاك هو ذلك التحالف الذى تم بين حلب ودمشق بواسطة نور الدين (Setton : Op. Cit., V. I, p. 549).

11. Runciman : A History of the crusades, V. 2, p. 367,

د· سعيد عاشور : بحوث ودراسات ·· ، ص ٢٠٤ عن وليم الصورى وميخائيل السريانى ،
The Chronography of Bar Hebraeus, V. I, p. 286.

وهنا يعقب أستاذنا الدكتور سعيد عاشور تعقيبا منطقيا ووجيها على عـدم ذكر المصادر العربية لذلك الخبر بأنه اذا كانت الدولة الفاطمية فى ذلك الدور =

وقد أفاد بلدوين الثالث من حملته تلك على مصر بأن أحيط علمـــا بفكرة حقيقية عن مدى ضعفها وأيضا بمدى أهميتها الاستراتيجية . وقد جهز نفسه لعملية سياسية وعسكرية لاسترجاع غزة وأخذ عسقلان . وقد اتبعت تلك السياسة خلال العشر سنوات التالية أى خلال فترة حكم أخيه وخليفته عمورى الأول (١٢) . والواقع أن مصر بدأت تحتل مكان الصدارة فى خطط الفرنجة منذ عهد جودفرى بوايون وبلدوين الأول (١٣) . « ولم يتركوا التفكير فى مشروع التحالف البيزنطى ، بالرغم من خيبة الآمال المتراكمة فيـــه » (١٤) .

وبوفاة بلدوين الثالث واعتلاء أخيه عمورى عرش مملكة بيت المقدس، وبالتحديد فى مستهل حكمه ، تحجج بعدم وفاء الفاطميين بوعدهم بدفع جزية سنوية ، وقام بمغامرته الأولى فغزاها فى سبتمبر ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م وعبر برزخ السويس وحاصر بلبيس ولكن ضرغام استغل فرصة فيضان النيل وأجبر عمورى الأول على الانسحاب الى فلسطين (١٥) . بل قيل أن المصريين حفروا الخنادق وأجبروه على الانسحاب (١٦) .

= أضعف من أن تدفع خطر أعدائها بالقوة فلا أقل من أن تشترى مسالمتهم بالمال .. وهذا موقف معيب يتطلب التستر عليه بحيث لا يصل خبره الى الرعة فيستثيرهم ، والى كافة المسلمين فيؤذى شعورهم ويسىء الى الخلافة الفاطمية نفسها وربما كان هذا هو السر فى عدم وصوله الى المؤرخين المسلمين وبالتالى عدم اشارتهم اليه .

12. J. Prawer : Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, T. 1,p. 427.

(١٣) أرنست باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة د. الباز العرينى ، ص ٧٨ .

14. J. Prawer : Op. Cit., p. 427.

15. Setton : A History of the Crusades, V. I, p. 550, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 367,

د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ص ٢٠٤ عن . (Schlumberger : Campagnes du roi Amoury de Jerusalem en Egypte), J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 432.

وهنا يذكر بروييه أن عمورى الذى كان قبل اعتلائه العرش أميرا ليافا وعسقلان ، وكان مرتبطا بالمنطقة الساحلية الفلسطينية فى جزئها الجنوبى المتجه نحو مصر ، لذلك ساهم وضعه هذا فى توجيه نظره الى مصر ، بالاضافة الى تكملته للخط السياسى الذى سار عليه الفرنج منذ عهد بلدوين الثالث .

(J. Prawer : p. 430).

16. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 550.

=

ومع أن عمـــورى الأول عاد الى فلســطين فاشلا ، فان تلك الحملة الاستطلاعية لم تخل من فائدة بالنسبة له وللصليبيين ، ويكفى أنها أطلعتهم عمليا على مدى ضعف مصر وعظم ثروتها وسهولة الاستيلاء عليها « وهذا ما كتبه عمورى الى لويس السابع ملك فرنسا » (١٧) ٠ مما جعل عمورى يستعد لغزوة كبرى تمكنه من وضع يده على مصر ٠ ولقد كان أخطر ما يخشاه عمورى فى رأى (ستون) أن تقع مصر فى قبضة النفوذ السورى السنى الاسلامى ، وبذلك تطوق الامارات اللاتينية هذا بالاضافة الى أهمية مصر وميناثها العظيم ، الاسكندرية ولقد كان ذلك هو سبب اصرار عمورى فيما بعد على الاندفاع جنوبا (١٨) ٠

ومن ناحية أخرى فان جرأة عمورى فى مهاجمة مصر أثارت مخاوف نور الدين محمود الذى كان قد استولى على دمشق ١١٥٤ م / ٥٤٩ هـ وأخذ يتطلع الى الاستيلاء على مصر لاتمام الجبهة الاسلامية المتحدة من ناحية واحكام حصار مملكة بيت المقدس الصليبية من ناحيتى الشمال والجنوب من ناحية أخرى (١٩) ٠

هنا تدخل القدر ليسرع بتحقيق رغبات كل من نور الدين وعمـــورى فى مصر ٠ فقد خرج على وزير مصر المسمى شاور السعدى (٢٠) ، رجـــل يقال له ضرغام وتغلب عليه وقتل ولده وتولى الوزارة مكانه « كان يروم

= والراجح أن هذه الحملة هى التى أشار اليها ميخائيل السريانى وخلط بينها وبين حملة عمورى التالية على مصر لان الحملتين ورد فيهما ذكر حصار عمورى لبلبيس ٠ ومن المرجح أن المقصود بها حملة ١١٦٤ م / ٥٥٩ هـ والتى سيأتى ذكرها فيما بعد ٠ فقد ذكر ميخائيل السريانى أن عمورى خرج الى مصر لجمع الضريبة فانقسم المصريون قسمين قسم قدم له فروض الولاء والقسم الثـانى كانوا ممتلئين بالريبة فقـــاوموه واستنجدوا بنور الدين ضده ٠ (Michel Le Syrien : Recueille des Historiens des Croisades, Documents Armeniens, T. 1, p. 359).

17. J. Prayer : Op. Cit., T. 1, p. 432.
18. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 540.

(١٩) د٠ عاشور : بحوث ودراسات ٠٠٠ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥

(٢٠) اسمه بالكامل « شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث بن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن مخيس بنأبى ذؤيب٠ كان الصالح بن رزيك قد ولى فى =

منصبه ومكانه فجمع له جموعا كثيرة لم يكن له بها قبل وغلب عليه وأخرجه من القاهرة » • وقتل ولده طيا وولى الوزارة (٢١) • وخطورة ذلك الوضع كانت تكمن فى أن المصريين كانوا يخضعون للاقوى وأن « قوتهم كانت بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان » (٢٢) •

لذلك عندما قهر شاور ــ أمير الجيوش ابو شجاع ــ وأخرج من القاهرة اتجه الى بلاد الشام وقصـــــد نور الدين بن زنكى فى ربيع الأول ٥٥٨ هـ مستصرخا ومستنصرا على ضرغام بن سوار الملقب بالمنصور (٢٣) فطلب نور الدين من أسد الدين شيركوه الخروج الى مصر لأنه لم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع منه (٢٤) • وذلك « قضاء لحق الوافد المستصرخ وحفظا للبلاد

= أيام وزارته أبوشجاع شاور الصعيد بكماله • وكان شاور ذا شهامة ونجابة وفروسية وشجاعة• وكان الصالح قد أوصى ولده العادل رزيك أن لا يتعرض لشاور بمساءة قط ولا يغير عليه . وان يتلافاه جهده فانه لا يأمن عصيانه رخروجه » (ابن ايبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٧ ، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ص ١٨ ــ ١٩ حوادث ٥٥٧ هـ) وهو ما حدث فعلا فقد تغلب شاور على الوزارة وانتزعها من بنى رزيك وقتل رزيك بن طلائع بن رزيك الذى وزر بعد أبيه (أبو شامه : الروضتين : جـ ١، ص ١٣٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ مطبعة دار الكتب ١٩٣٥) ص ٣٦٣ •

(٢١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب •• جـ ١ ، ص ١٣٧ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٤٦ • وكان ضرغام مقدم الامراء البرقية، ونائب الباب (ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٧٧ طبعة (١٩٧١) ويقال ضرغام كان يتمتع بشعبية كبيرة واستحوذ على حب العامة

(J. Prawer Op. Cit., p. 432)

(٢٢) ابن شداد : المصدر السابق والصفحة ، أبو شامة : المصدر السابق والصفحة فقد كانت عادة المصريين أنه اذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه ، وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه » •

(٢٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٧ • وكان الخليفة يومئذ هــو العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف ابن أبى الميمون عبد المجيد الحــافظ لدين الله والحكم للوزراء •

(٢٤) هو أسد الدين شيركوه أخو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، كان شيركوه وأيوب ابناء شادى من بلدة دوين ــ وهى بلده من اخر بلاد اذربيجان مما يلى الروم وكانوا من أصل كردى ــ كانوا فى خدمة مجاهد الدين بهروز شحنة العراق ، وبعــد قتل شيركوه لاحد المسيحيين المقربين للامير ، فر الاخان الى زنكى فى الموصل حيث

=

وتطلعا على أحوالها » (٢٥) الى جانب رغبته الملحة فى « الاستيلاء على اقليم اشتهر بالهرطقة (المذهب الشيعى) اعادته الى المذهب الصحيح ، وهو المذهب السنى واتمام تطويق مملكة بيت المقدس » (٢٦) ٠

فاستجاب أسد الدين بسرعة لطلب نور الدين ، فقد « كان هوى أسد الدين فى ذلك وكان عنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالى معه بمخاوفه » (٢٧) ٠ وقد قيل أن شاور شرط لنور الدين أنه ان سير معه قواته ليقوى بهم على خصمه ضرغام وينتزع الوزارة منه « ان يكون لنور الدين حصته من البلاد ويكون شاور متصرفا تحت أمره ونهيه واختياره » (٢٨) وبمعنى آخر أطمع شاور نور الدين فى البلاد وقال له : « أكون نائبك بها وأقنع بما تعين لى من الضياع والباقى لك » (٢٩) ٠

ولا عبرة هنا بما ذكره ميخائيل السريانى من أن سبب استنجاد بعض المصريين بنور الدين هو تشككهم فى نوايا الملك عمورى الذى كان قد قدم لأخذ الضريبة السنوية (٣٠) ٠

= بدأ نجمهما فى الصعود ، فلما قتل الشهيد عمل نجم الدين فى خدمة صاحب دمشق، أما أسد الدين شيركوه فقد خدم نور الدين ، فرأى منه فى حروبه آثارا يعجز عنها غيره فزاد فى اقطاعه وقربه حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدم جيشه (ابن الاثير . الباهر ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ ،
(The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 288

(٢٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ ، أبو شامه ٠ الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٠ ٠ والمصدر الاخير يضع كلمة حبسا مكان حفظا ٠ وسواء كان غرض نور الدين حبسا للبلاد أو حفظا لها فنحن نلمح فى التعبيرين رغبته فى المحافظة عليها من الصليبيين حتى لا تذهب لايديهم وفى نفس الوقت نلاحظ أيضا رغبة نور الدين فى تملكها بعد الاطلاع على أحوالها عن قرب ٠

(٢٦) ارنست باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العرينى ، ص ٧٩ ٠

(٢٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٠ ٠

(٢٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٠ ، أبو شامة : الروضتين ٠٠٠ ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب ، ج ١ ، ص ١٣٧ ٠ ويضيف ابن الاثير هنا أن نور الدين طلب من أسد الدين اعادة شاور الى منصبه والانتقام ممن نازعه فى الوزارة ٠

(٢٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، القاهرة ١٩٣٥ ص ٣٤٦ ٠

30. Michel Le Syrien : Recueille des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1, p. 359.

ويبدو أن نور الدين كان مترددا فى بادىء الأمر فى ارسال حملة الى مصر ، وربما يرجع ذلك الى سببين : أولهما فى رأى برويه « أن الذى يطلب النجدة أو الدعم السورى هو شاور وحزبه وأن ذلك يجعل من الممكن أن يصبح نور الدين سيدا لبلد شيعى (٣١) • والثانى هو الخوف من أن يتورط فى ذلك المشروع وهو لا يزال أمام أعداء أقوياء فى الشام (٣٢) • فكان يقـدم فى ذلك رجلا ويؤخر أخرى « تارة تحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنج وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه الا أن يوغلوا فى البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج أيضا » (٣٣) • والدليل على ذلك أنه « استخار الله سبحانه فى ذلك » ثم خرج بنفسه بصحبة أسد الدين « الى طرف بلاد الاسلام مما يلى بلد الافرنج فى بقية العسـكر ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين » (٣٤)• وصحب أسد الدين معه ابن أخيه صلاح الدين على كره منه (٣٥) • وكان ذلك فى جمادى الأولى ٥٥٩ هـ (٣٦)•

وثمة رأى لابن شداد يذكر فيه أنهم وصلوا الى مصر فى جمادى الآخرة ٥٥٨ هـ (٣٧) • والراجح أنه أخطأ فى ذكر السنة • وأنها سنة ٥٥٩ هـ (٣٨)

---

31. J. Prayer : Op. Cit., T. 1, p. 432.

(٣٢) د• سعيد عاشور : بحوث ودراسات ••• ، ص ٢٠٥ •

(٣٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٣٠ •

(٣٤) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٧ ، ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٧٧ • هنا يذكر برويه أن شيركوه هو الذى أزال تردده « ورجح كفة » تلبية رغبة شاور لان فى ذلك تحقيقا لحلمه فى أن يكون حاكما لمصر تحت سيادة نور الدين
(J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 433).

(٣٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ •

(٣٦) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ •

(٣٧) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٣٦ •

(٣٨) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٩ • ذكرا أنهم وصلوا القاهرة فى أواخر جمادى الاول • أما ابن أيبك: كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٢٦ وابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٧٧ فقد ذكرا أنهـم وصلوها فى جمادى الاخرة من السنة أى ٥٥٩ هـ •

١١٦٤م (٣٩) لاجماع المصـــادر والمراجع على ذلك ، بل ان (ستيفنسون Stevenson « يعتبر سنة ١١٦٤ م نقطة تحول فى تاريخ تلك الفتـــرة لأنها شهدت أولى خطوات الوحدة بين مسلمى مصر وسوريا » (٤٠) ٠

وفى الوقت الذى استنجد فيه شاور بنور الدين ، استنجد ضرغـــام بالصليبيين ، وتعهد لعمورى ، مقابل مساعدته ، أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين (٤١) ٠ والحقيقة أن عمورى وجد فى تلك الحرب « وسيلة للافلات من مصيدة نور الدين وازدياد الاتصال المباشر المثمر بالمتجارة الشرقية » (٤٢) الا أن جيش القائد الكردى الماهر شيركوه وصـــل قبل الجيش الصليبى رغم كبر سن أسد الدين (٤٣) ٠

وعند اقتراب أسد الدين من مصر خرج الى لقائه ناصر الدين أخو الضرغام بقوات مصر ، فلقيهم فانهزم ناصر الدين وعاد الى القاهرة ، فلما وصل أسد الدين القاهرة خرج اليه ضرغام فقتل عند مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب (٤٤) ٠ « وبذلك كانت مدة وزارة ضرغام تسعة أشهر وعشرة أيام » وعاد شاور الى وزارته الثـــانية آخر جمادى الآخرة ٥٥٩ هـ (٤٥) / آخر مايو ١١٦٤ م (٤٦)٠

---

39. L. Bréhier : Vie et Mort de Byzance, p. 338, Gibb : The life of Saladin, p. 5, Setton : Op. Cit., V. 1, p. 550.

ويذكر ستون أن الحملة تحركت الى مصر فى ابريل ١١٦٤ م

40. Stevenson : Op. Cit.,p. 186.

(٤١) د٠ سعيد عاشور : بحوث ودراسات ٠٠ ص ٢٠٥ عن (عماره اليمنى ، Wiet) ، د٠ عبد الرحمن الرافعى ، د٠ سعيد عاشور : مصر فى العصـــور الوسطى ص ٢٨٥ ٠

(٤٢) أرنست باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العرينى ، ص ٧٩ ٠

(٤٣) د٠ سيد عاشور : بحوث ودراسات ٠٠٠ ، ص ٢٠٥ ٠

(٤٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ ، ابن خلدون : تاريخـــه ، ج ٤ ، ص ٧٧ ٠

(٤٥) ابو شامه : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣١ ، ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، الدر المطـــلوب ٠٠٠ ص ٢٦ ، ابن خـــلدون : تاريخـــه ، ج ٤ ، ص ٧٧ ، هنـا يذكر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٥ (عن كتاب السيرة الصلاحية ليحيى بن أبى طى الحلبى) أن بعض الامراء فى مصر كانوا غير راضين عن ضرغام وذلك لان بعضهم حسدوه وكاتبوا شاور الذى كان قد صار الى الشام « فأخذ فى اعمال الحيلة

عندئذ طلب أسد الدين من شاور أن يفي له بما تعهد به ، فتنكر له شاور بل طلب منه الرجوع الى الشام (٤٧) فامتنع أسد الدين وطلب منه ما وقع الاستقرار عليه فلم يجبه شاور » (٤٨) · وأمام اصرار شاور على النكث بالعهود وعلى الغدر أرسل أسد الدين نوابه الى مدينة بلبيس فتسلموها وحكم اقليم الشرقية (٤٩) · عندئذ خاف شاور من قوات الشام (٥٠) واستنجد بالفرنج (٥١) وخوفهم من نور الدين وأنه ان ملك مصر فلن ينعموا بالاستقرار (٥٢) ·

=

عليهم وأحضرهم الى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعا » ·· وقيل أنه قتل منهم سبعين أميرا آنذاك ·

46. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 368.

وهو يذكر هنا أن ضرغام مات ولم يشر الى أنه قتل ·

(٤٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، أبو شامه : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣١، وفي ص ١٦٦ يذكر أبو شامة عن كتاب السيرة الصلاحية أن أسد الدين أرسل الى شاور يستعجله ما تعهد به لنور الدين بعد أن « ضجر العسكر من الحر والغبار » فأرسل اليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال له ترحل الان · عندئذ أرسل اليه أسد الدين يقول ان نور الدين أوصاه أنه اذا ملك شاور مصر أن يقيم عنده ويكون له ثلث غلة البلاد والثلث الثاني لشاور والجيش والثلث للخليفة · عندئذ قال له شاور : أنا ما قررت شيئا مع نور الدين وقد سيرت اليكم نفقة فخذوها وانصرفوا ··

(٤٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ··· جـ ١ ، ص ١٣٩ ·

(٤٩) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، أبو شامه : الروضتين ، جـ ١ ص ١٣١، الذهبي : دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ٧٣ ، Setton : Op. Cit., V. 1, p. 550

50. The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 289.

هنا يذكر ابن العبري أن شاور أحس من حملة شيركوه أنها قدمت لازاحة المصريين عن الحكم ·

51. The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 289.

أبو شامه : الروضتين جـ ١ ، ص ١٦٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٩ ، ابن أيبك : كنز الدرر ·· ، جـ ٧ ، الدرر المطلوب ، ص ٢٧ ،

Setton : Op. Cit., V. 1, p. 550.

هنا اخطأ ابن ايبك عندما ذكر أن شاور استنجد بملك الروم (مرى) لان مرى هو نفسه عمورى الاول ملك بيت المقدس لا ملك الروم ·

(٥٢) أبو شامه : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٩ ·

والحقيقة أن الفرنج كانوا فى حالة خوف شديد عندما سمعوا بتوجه قوات نور الدين الى مصر فقد أيقنوا بالهلاك اذا استولى عليها نور الدين لذلك فعندما وصلتهم رسل شاور تطلب المساعدة سروا بذلك وسارعوا بتلبية طلبه (٥٣) ٠

وهنا يؤكد (بربيه) ذلك القول بأن عمورى لم يتردد فى التدخل وأنه لبى رغبة شاور « كى يحطم الخطر الذى قد يطوق الامارات المسيحية ، اذا وفق نور الدين فى تقوية وتعزيز مركزه فى وادى النيل » (٥٤) ٠ وبذلك نجح شاور فى تأليبهم ضد أسد الدين بعد أن وعدهم باعطائهم مبلغا من المال (٥٥) وبمعنى آخر عقد معهم صلحا (٥٦) ووعدهم « بتأييد عسكرى ومساعدة مالية » (٥٧) ٠

عندئذ ساروا الى مصر ٠ فوصلت تلك الأخبار الى نور الدين فما كان منه الا أن سار بقواته الى أطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير ، لكنهم لم يكترثوا لذلك لعلمهم « أن الخطر فى مقامهم اذا ملك أسد الدين مصر أشد من الخطر فى مسيرهم » لذلك ترك ملك بيت المقدس بعض قواته فى مملكته وسار بالقوات الباقية الى مصر ، مستعينا فى ذلك بجموع الصليبيين الكثيرة التى وفدت لزيارة بيت المقدس فى ذلك الوقت (٥٨) كى لا يستنزف دفاع المملكة (٥٩) ٠

---

(٥٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٣١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٩ ٠

هنا يذكر أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٧ عن كتاب السيرة الصلاحية أن شاور ضمن لعمورى ملك الصليبيين عن كل مرحلة يرحلها الى مصر الف دينار بل انه قرر شيئا لدوابه ولطائفة الاسبتارية ٠ ويقال ان عمورى قطع المسافة بين عسقلان وفاقوس « فى سبع وعشرين مرحلة قبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار » ٠

54. L. Bréhier : Vie et Mort, p. 338.

(٥٥) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ٠٠ جـ ١ ، ص ١٣٩ ، د٠ سعيد عاشور : بحوث ودراسات ٠٠٠ ، ص ٢٠٦ عن (Schlumberger)

56. The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 289.

57. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 550.

(٥٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٠ ٠

كان أسد الدين فى ذلك الوقت ـ كما سبق القول ـ متحصنا فى مدينة بلبيس « معتمدا على مساعدات عرب كنانة » (٦٠) فهاجمته القوات المصرية بقيـادة شـاور والقوات الصليبية بقيادة عمورى (٦١) التى اتحـدت لأول مرة (٦٢) وحاصروه ببلبيس عدة أشهر (٦٣) فاستبسل فى قتالهم رغم بساطة معداته وتحصيناته لكنهم لم ينالوا منه شيئا (٦٤) .

وثمة رأى هنا لأبن أيبك يذكر فيه أن أسد الدين عندما رأى اتحاد الصليبيين والمصريين ضده ، واشتم رائحة الغدر من شاور ، أرسل الى الملك عمورى وطلب منه الصلح على أن يعطيه بما بقى معهم من مال ، وأخبره أنه اذا رفض فسوف يستبسلوا فى القتال ضدهم « فان تركت البغى ، وقنعت بما فى أيدينا من فضلات نفقاتنا نفذناها اليك .. وان أبيت فنحن والله ما يقتل الواحد منا حتى يقتل عدة منكم .. » (٦٥) .

---

59. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 550.

وكان قد عقد اجتماعا مع (باروناته) ووضع شئون المملكة تحت رعاية بوهيموند الثالث أمير أنطاكية .

(٦٠) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢٠٦ ، د. عبد الرحمن الرافعى ، سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٦ ، قدرى قلعجى : صلاح الدين الايوبى ، ص ١٦٨ .

61. Gibb : The Life of Saladin, p. 5.

62. L. Bréhier: Vie et Mort, p. 338.

(٦٣) يذكر ميخائيل السريانى أن مدة الحصار كانت سبعة أشهر
Michel Le Syrien : Recueille des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1, p. 359.

أما ابو شامه : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٧ عن كتاب السيرة الصلاحية ليحيى ابن أبى طى الحلبىفيذكر أنها كانت ثمانية أشهر. أما أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٤٦ فيقول أنها كانت شهرين . أما ستون فيحددها بثلاثة أشهر من أغسطس الى أكتوبر ١١٦٤ م

(٦٤) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٦٥) أنظر الملحق رقم (٣) . وليس معنى ذلك أن القوات المصرية الصليبية المتحدة أجبرت شيركوه على التنازل عن مصر والرحيل عنها كما ذكر بريبه
(L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339)

لم تلبث أن وصلت الى مسامع الصليبيين عندئذ أخبار استيلاء نور الدين على حارم (٦٦) ، ثم توجه بعد ذلك الى بانياس لأخـــذها فساورهم الخوف فراسلوا أسد الدين فى الصلح وتســـليم ما بيـده من البلاد الى المصريين فوافق (٦٧) · ويقال أن سبب موافقته أنه «لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج فى الساحل » (٦٨) · وأن الأقوات قلت مع قواته (٦٩) و « علم عجزه عن مقاومة

---

(٦٦) هنا يذكر ميخائيل السريانى أن ملك بيت المقدس علم بمهاجمة نور الدين لحارم أثناء محاصرته بلبيس · فأرسل الى أهالى حارم خطابا يأمرهم فيه بعدم الخروج من الحصن حتى يصل اليهم · ولكنه بمجرد تركه الحصار وبداية المسير الى حارم علم أن أهالى حارم لم يلتزموا بما أمرهم به وأنهم خرجوا من الحصن ، ووقعوا فى أيدى المسلمين الذين أخذوهم على غرة فقتلوا منهم عددا كبيرا وسيطروا علـى الحصن بعد أن أسروا أمير أنطاكيا وحشدا آخر من كبار الشخصيات ·

Michel Le Syrien : Recueille des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1, p. 359.

(٦٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٢ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٠ ،

The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 289,
Setton : Op. Cit., V. 1, pp. 550-551.

ويفصل لنا بروييه ذلك بقوله أن السبب فى اسراع عمورى فى الدخول فى مفاوضات من أجل الصلح مع شيركوه هو أن أكثر قوات الفرنج كانت موجودة فى مصر آنذاك معه وان نور الدين استولى على قلعة حارم وعلى نهر العاصى ، كما أسر عددا كبيرا من الامراء الصليبيين من بينهم أمير أنطاكية وأمير طرابلس وبذلك انتهت ممتلكات الصليبيين شرق العاص كذلك هاجم بانياس التى كان حاكمها مع عمورى بمصر فسلمها القائد Gautier de Quesnoy لنور الدين

(J. Prawer : Op. Cit., T. 1, pp. 433-434)

وهنا أخطأ (جب) فى القول بأن طلب نور الدين الهدنة كانت المنقذ لشيركوه من الحصار المضروب حوله آنذاك وأنه كان محظوظا »

(Gibb : The Life of Saladin, p. 5)

كما لا نأخذ هنا أيضا برأى (ستيفنسون) الذى يشير الى سرور شيركوه لشروط الصلح عندما قدمها عمورى ·

(Stevenson : Op. Cit., p. 188)

(٦٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٢ ، أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٢ ·

ويؤيد هذا الرأى أيضا ما ذكره (ستون) من أن نور الدين كان قد طلب ارسال رؤوس القتلى من الصليبيين وأعلامهم ، التى وقعت فى أيدى القوات الاسلامية بعد الاستيلاء علي حارم في ١٢ اغسطس ١١٦٤ م ، الى شيركوه فى مصر وأعطى تعليماته بعرضهم

(هجمات الروم)

الفريقين فصالحهم » (٧٠) وعاد الى بلاد الشام بعد أن «بذلوا له قطيعة» (٧١) ونحن نرجح أن قلة الأقوات مع شيركوه هى التى جعلته يوافق بسرعة على الصلح ٠

رجع شيركوه وكله رغبة فى العودة الى مصر ، «عاد منها وقد غرس فى قلبه الطمع فى البلاد وعرف أنها بلاد بغير رجال ، تمشى الأمور فيها بمجرد الايهام بالمحال » (٧٢) ٠ ولكنه انشغل مع نور الدين فى تدبير أمور بلاد الشام ولم ينس مطلقا التفكير فى الرجوع الى مصر « أقام بالشام مدبرا لأمره

=

على أسوار بلبيس لتخويف المحاصرين (Setton : Op. Cit., V. 1, p. 551)
ولكن الراجح أنها لم تكن قد وصلت الى شيركوه بعد ٠

ولو أن أبو شامه يعود فى موضع آخر فيذكر أن أسد الدين علم بذلك ونفذ طلب نور الدين (أبو شامه : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٧ عن السيرة الصلاحية ليحيى بن ابي طى الحلبى)

69. Setton : Op. Cit., V. 1, pp. 550-551,

ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٠

(٧٠) ابن واصل : نفس المصدر السابق والصفحة ٠

والواقع أن هذا يتعارض مع ما ذكر من الاشادة بشجاعة شيركوه وانه خـرج وأصحابه أمامه « يحمى ساقتهم وفى يده لت حديد والمسلمون ، والفرنج ينظـرون اليه فجاءه رجل من الفرنج وقال له أما تخاف أن يغدر بك ، هؤلاء المسلمون والفرنج قد أحاطوا بك وبأصحابك فلا يبقى لك معهم بقية ٠ فقال شيركوه يا ليتهم فعـلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثله كنت والله أضع فيهم السيف فلا أقتل حتى أقتل رجالا ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى أبطالهم فيملك بلادهم ويفنى من بقى منهم ووالله لو أطاعنى هؤلاء — يعنى أصحابه — لخرجت اليكم أول يوم لكنهم امتنعوا ٠ فصلب الفرنجى على وجهه وقال كنا نتعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم فى صفتك وخوفهم منك والان فقد عذرناهم » ٠ (ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٢ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٣٢) ٠

(٧١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٥٥٩ هـ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٢ ، ١٦٧ ٠ فقد تعهد شاور لشيركوه بدفع ثلاثين ألف دينار أخرى ٠ أما ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٢٧ فيذكر أنه كانت هناك عقبات فى طريق عودة أسد الدين الى الشام فأخذ منه الملك عمورى بعض المال فى مقابل افساح الطريق لهم ٠ وهو يشير لعمورى بملك الروم كما سبق الذكر ٠

(٧٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ ٠

مفكرا فى كيفية الرجوع الى البلاد المصرية » (٧٣) ٠

ويرى (ستون) أن تلك الحملة التى كان يرجى من ورائها نتائج مختلفة تماما للصليبيين ، « انتهت وهم فى مأزق بسبب الحكم المتفائل للملك » (٧٤) عمورى الأول ، اذا أخذنا فى اعتبارنا شدة الحاجة الى تقوية الحدود الشمالية فى مواجهة نور الدين ٠

هنا يشير (ستون وبروييه) أنه منذ ذلك الوقت أيضا بدأ نور الدين يشعر بالخوف من أى تدخل بيزنطى يحفظ توازن القوى فى شمال سوريا (٧٥) وان ذلك كان سبب احجامه عن مهاجمة انطاكية نفسها (٧٦) ٠

وهكذا انتهت تلك الجولة وعاد الجميع وكلهم رغبة فى العودة ثانية الى مصر : فأسد الدين كانت فى قلبه « نار لا تنطفىء من فعل شاور » (٧٧) وكان تفكيره دائبا فى كيفية الرجوع الى مصر (٧٨) ٠ وربما كان نور الدين نفسه مهيأ جدا فى ذلك الوقت لما يدور فى خلد شيركوه لأنه كان فى قلبه من شاور

---

(٧٣) ابن شداد : نفس المصدر والصفحة ٠ هنا يضيف أستاذنا الدكتور سعيد عاشور عن (شلومبرجيه) الذى لم يسعدنا الحظ بالاطلاع عليه أنه لوترك الامر لشيركوه لعاد الى مصر سنة ١١٦٥ أو ١١٦٦ م (٥٦٠ ــ ٥٦١ هـ) ولكن يبدو أن نور الدين خشى أن يقوم بمحاولة جديدة ضد مصر فى هاتين السنتين خوفا من تشتيت جهوده وتقسيم قواته فى الوقت الذى كان الموقف فى بلاد الشام يستدعى شيئا من اليقظة والانتباه (د٠ سعيد عاشور : بحوث ودراسات ٠٠٠ ص ٢٠٧

74. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 551.

هنا تتضح لنا مدى خطورة الوضع بالنسبة لمملكة بيت المقدس بل وللصليبيين عامة مما ذكره (ستون) من أن نور الدين بعد استيلائه على حارم كان قد أسر عددا كبيرا من كبار أمراء الصليبيين وفرسانهم مثل بوهيموند الثالث أمير أنطاكية وريموند الثالث أمير طرابلس وقنسطنطين كولومان حاكم قيليقية البيزنطى وجوسلين الثالث أمير الرها الاسمى ، هذا بالاضافة إلى أن عمورى الاول كان قد أخذ معه فى حملته على مصر معظم القوات الصليبية ، وبذلك كانت المملكة معرضة للهجوم والخطر ٠

75. Setton : Ibid., V. 1, p. 552, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 434.

بل قيل ان الامبراطور مانول كان يفكر فى الاستيلاء على انطاكية نفسها آنذاك
Stevenson : Op. Cit., p. 189.

76. J. Prawer : Ibid., T. 1, p. 434.

(٧٧) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٨ ٠

(٧٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧ ٠

حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالفرنج (٧٩) ٠

أما عمورى فكان يطمع فى العودة الى مصر لينعم بثرائها وبموقعها الاستراتيجى الممتاز ، لكى يستطيع فى نفس الوقت أن ينعم بشىء من الراحة تجاه نور الدين وتوسعاته ٠

والحقيقة أن أشد ما كان يخشاه نور الدين ـ كما سبق الذكر ـ هو الخوف من تحالف بين الروم والصليبيين يضعه بين فكى الكماشة ، يضاف الى ذلك رغبته الملحة فى ضم مصر الى حظيرة المذهب السنى والسيادة العباسية ٠

ومهما يكن من أمر فقد رغب نور الدين فى أن يمتلك مصر ، لذلك أمر أسد الدين « بتجنيد الأجناد واستخدام الرجال » (٨٠) ٠

كذلك ما أن سبر شاور غور أسد الدين واستشف حقيقة ما فى نفسه من طمع فى مصر وأنه لابد له من قصدها (٨١) حتى اشتد خوفه على البلاد من الأتراك ، فأعاد الاستنجاد بالصليبيين مرة ثانية ، واتفق معهم على أن يحضروا الى مصر « ويمكنونه فيها تمكينا كليا ويعينونه على استئصال أعدائه » (٨٢) ٠

---

(٧٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٤٨ ٠

(٨٠) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٧ ٠ وثمة رأى لرنسيمان هنا يذكر فيه أن شيركوه كان له دور ملحوظ فى حث الخليفة العباسى نفسه فى بغداد كى يعلن أن تلك الحرب هى حرب مقدسة ضد (هرطقة) الخلافة الفاطمية الشيعية (Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 372) والواقع أنه بالرغم من أننا لم نعثر على ما يؤيد رأيه هذا فى المصادر العربية الا أننا نرجح صحة مضمونه على اعتبار أنه استشفه من طبيعة العلاقات السنية الشيعية آنذاك ٠

(٨١) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٢ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٢ ٠ كان أسد الدين يكثر من التحدث الى من يثق فيهم عن رغبته فى الرجوع الى مصر ، حتى وصلت تلك الاخبار الى شاور ٠

(٨٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ٠٠٠ ، ص ٣٧ ، اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ ٣ ، ص ٣٤١ ٠ وهنا يصور لنا أبو شامة فى الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٢ مدى خوف شاور من أسد الدين ببيتين من قصيدة لعرقلة الكلبى جاء فيها :

وهل هم يوما شيركوه بجلق ... الى الصيد الا ارتاع فى مصر شاور

هو الملك المنصور والاسد الذى ... ثنا ذكره فى الشرق والغرب سائر

وما أن علم عمورى الأول بخروج شيركوه - الذى يصفه ستون - « بالمثابر » فى يناير ١١٦٧ م / ٥٦٢ هـ متجها الى مصر « ليستعيد مكاسبه فيها » (٨٣) أو للانتقام من شاور (٨٤) ، حتى عقد مجلسا فى نابلس ضم كبار رجال مملكته وتقرر فيه ضرورة ارسال حملة جديدة لتعترض سبيل شيركوه، وقد قرر المجلس أن يدفع رجال الدين والمدنيين ممن لن يصاحبوا تلك الحملة الى مصر ضريبة تقدر بحوالى ١٠٪ على كل الممتلكات ، وعليه فقد جمع الملك قواته وتقدم بها فى آخر يناير فى حملته الثالثة على مصر ٠٠ وفى تلك المرة أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع شاور تضمن لهم أجرهم قبل أن يساعدوه فى محاربة شيركوه ، فما كان من شاور الا أن جدد تعهداته السابقة لعمورى من جديد ٠ وبالفعل تم توقيع اتفاق جديد بين عمورى من ناحية وشاور من ناحية أخرى ، بل ان الملك عمورى حرص على اعطائها صفة رسمية فأرسل سفارة الى الخليفة الفاطمى زارته فى مصر حيث تم اعتماد الاتفاق (٨٥) ٠

هنا يذكر (ابن شداد) أن جيش أسد الدين شيركوه وصل الى مصر فى نفس الوقت الذى وصل فيه جيش عمورى اليها « مقارنا لوصول الفرنج

---

83. Setton : Op. Cit.. V. 1, p. 552.

يوافق ذلك ربيع الاول سنة ٥٦٢ هـ (ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٣٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٨ ٠

84. L. Bréhier : Vie et Mort, p. 338.
85. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 552, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, pp. 434-435.

د٠ عبد الرحمن الرافعى ، د٠ سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٨ ٠ عن

(Schumberger : Campagnes du Roi Amoury.)

وقدرى قلعجى : صلاح الدين الايوبى ، ص ١٧٢ ٠ هنا يذكر ستون أن شاور تعهد بدفع ٤٠٠,٠٠٠ دينار دفع نصفها مقدما للصليبيين ، وتعهد الملك بألا يترك مصر حتى يسحق جيش شيركوه أو ينسحب من البلاد ٠ وكان الوفد المفوض عن الملك فى توقيع تلك المعاهدة برأسة هيو حاكم قيصرية ٠ وقد أيد الخليفة الفاطمى شاور فى استنجاده بالصليبيين وعضده بدليل ما ذكره ستون من كرم الخليفة الزائد وتواضعه فى مقابلة هيو رئيس الوفد وأنه أعاد وراءه نص المعاهدة فى صدق واخلاص ٠

اليها» (٨٦) ٠ أما غالبية المصادر العربية الأخرى (٨٧) فتشير الى أن شيركوه وصل أولا ثم تلى ذلك استنجاد شاور بملك بيت المقدس ٠ ويتفق رنسيمان مع الرأى الثانى حيث يذكر أن قوات عمورى « وصلت متأخرة جدا » (٨٨) ٠

بينما انفرد أبو شامة برواية أخرى توضح أن الملك عمورى هو الذى أخبر شاور بتحرك شيركوه الى مصر فأعاد شاور طلب النجدة منه فسار عمورى بجيشه الى مصر بجوار البحر بينما كان أسد الدين يسير فى البر فسبقه الفرنج ونزلوا بلبيس واجتمعوا بشاور وانتظروا وصول الجيش النورى ، عندئذ وصلت تلك الأخبار لأسد الدين فغير طريقه ووصل الى الصعيد وعبر الى البر الغربى فلم يستطع الفرنج وشاور اللحاق به (٨٩) ٠

---

(٨٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧ ٠ فى الوقت الذى يذكر فيه ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٨ أن جيش شيركوه كان ألفى فارس ٠ يذكر ابن العبرى انه وصل الى مصر فى عدد قليل من المشاه وذلك بسبب قلقه وميله الشديد للعودة الى مصر ، وذلك دون اعطاء رقم معين لهذا الجيش ٠
(The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 290).

ثم يعود بعد ذلك فيذكر أن عدد الجيش كان ألفى فارس

أما برويبه فيؤكد أن جيش شيركوه كان ألفى جندى يضاف عليهم بعض القوات من الاسكندرية على رأسها نجم الدين بن مصال ٠ أما جيش الصليبيين فكان يقدر بـ ٣٧١ فارس و ٥٠٠٠ راجل يضاف اليهم الجنود المصريين التابعين لشاور
(J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 435).

(٨٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٢ ، أبو شامه ٠ الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٩ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٢٨، اليافعى :مرآة الجنان ، جـ ٣ ، ص ٣٧٠ ٠

88. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 372.

(٨٩) أبو شامه : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٨ ٠ عن كتاب السيرة الصلاحية ليحيى بن ابى طى الحلبى هنا يذكر نفس المصدر أن أسد الدين حاول أن يتعاون مع شاور ضد الصليبيين وأنه أرسل اليه رسولا يقول له : « أنا أحلف لك بالله الذى لا اله الا هو وبكل يمين يثق بها مسلم من أخيه أننى لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود اليها أبدا ولا أمكن أحد من التعرض اليها ٠٠ وما أومل منك الا نصر الاسلام فقط وهوان العدو ٠٠٠ وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه ونتنهز فيه الفرصة التى قد أمكنت والغنيمة التى قد كتبت فنستأصل شأفته ونخمد نائرته » فلما وصل الرسول الى شاور قتله واطلع عمورى بفحوى الرسالة ٠ فلما علم أسد الدين ذلك ندم على ما فعله مع شاور وقال « لعنة الله لو أطاعنى لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج » عندئذ كتب الى =

جاء الصليبيون الى مصر وكان « الرجاء يقودهم والخوف يسوقهم » (٩٠) وكان أسد الدين شيركوه قد عبر النيل الى البر الغربى ، ذلك أنه عمل حسابا لاستنجاد شاور بالصليبيين ، فلم يشأ أن يغامر بقواته فى القيام بهجوم على القاهرة (٩١) ٠ وسار الى الصعيد واستقر فى مكان يعرف بالبابين فتتبعته القوات المصرية والصليبية وأدركوه فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى ٥٦٢ هـ (٩٢) / ١٨ مارس ١١٦٧ م (٩٣) ٠ وقد استطاع شيركوه أن ينزل بهم هزيمة ساحقة رغم قلة قواته بالنسبة لقواتهم ورغم محاولة بعض أصحابه اقناعه بالرجوع الى الشام (٩٤) ٠ وكان ذلك

= أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور ٠

هنا أيضا نقرأ رأيا خاطئا للذهبى يذكر فيه أن الصليبيين دخلوا الى مصر سنة ٥٦٢ هـ « من بحر دمياط » (الذهبى : دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ٧٦) ٠

(٩٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ٢٣٢ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٤٢ ٠

(٩١) د٠ عبد الرحمن الرافعى ، د٠ سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٧ ٠

(٩٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٢ ــ ١٤٣ . ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٠ ٠ هنا ذكر أبو شامه البابين خطأ (البانين) والراجح أنه خطأ مطبعى ٠

93. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 553, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 374,

أما بروييه فيذكر ان ذلك كان فى مارس أو أبريل ١١٦٧ م
(J. Prawer : T. 1, p. 435)

(٩٤) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٢ ، أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٤٣ ٠ فبالرغم من معرفة كثرة عدد المصريين والصليبيين وعددهم الا أن أسد الدين صمم على ضرورة قتالهم ، الا أنه خاف أن تضعف نفوسهم فى هذا المكان الخطير الذى « عطبهم فيه أقرب من السلامة لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقى والعودة الى الشام وقالوا له : نحن ان انهزمنا وهو الذى لاشك فيه فالى أين نلتجىء وبمن نحتمى وكل من فى هذه الديار عدو لنا ٠٠ فقام أحد المماليك النورية يسمى (برغش) وقال ما ملخصه : من يخاف القتل لا يخدم الملوك ، بل يبقى فى بيته مع النساء ، والله لو رجعتم الى الملك العادل نور الدين من غير غلبة فسوف يأخذ اقطاعاتكم وأموالكم التى أعطاها لكم الى يومنا هذا ويقول لكم تأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم ، فقال أسد الدين ، أن هذا رأيه وبه يعمل. ووافقه صلاح الدين ٠ ثم اجتمعت كلمتهم على ضرورة القتال ، فوضع أسد الدين خطة محكمة ضمنت لهم النصر ٠ وبالفعل انزلوا بالقوات المشتركة هزيمة منكرة ٠

« من أعجب ما يؤرخ أن ألفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل » (٩٥) ٠

وقد قتل فى تلك المعركة « العديد من فرسان الصليبيين وأسر حشدا كبيرا أيضا ، بالاضافة الى استيلاء المسلمين على كمية كبيرة من معدات العدو الحربية » (٩٦) ٠

وهكذا رجع شاور والملك عمورى الى القاهرة «فى أنحس الأحوال» (٩٧) أما أسد الدين فقد سار الى الاسكندرية « ففتح له حاكمها أبوابها » (٩٨) وتسلمها من أهلها بغير قتال (٩٩) ، ثم أناب بها ابن أخيه صلاح الدين وسار

---

(٩٥) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٣ ، أبو شامة ٠ الروضتين ، ج ١، ص ١٤٣

96. Setton : Op. Cit., V. I, p. 553.

هنا يدفرد ستون كمرجع أجنبى بالكلام عن الخسائر بين الجانبين فيذكر أن الملك عمورى أحصى القتلى فى الجانبين فوجد قتلاهم ١٠٠ وقتلى المسلمين ١٥٠٠ ٠ ويبدو أن هذا الرقم فيه شىء من المبالغة ٠ أما المصادر العربية فقد ذكرت عدة روايات مختلفة عن هذا الموضوع فمثلا أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٥ ذكر أن أسد الدين أسر « سبعون فارسا من باروناتهم » أما ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٩ فقد ذكر أن أسد الدين كسر قوات أعدائه كسرة عظيمة و « أخذ صاحب قيسارية أسيرا مع جماعة من أصحابهم » ٠ بينما ذكر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ، ص ٣٤٩ أن أسد الدين وصلاح الدين قتلا من الصليبيين « ألوفا وأسرا مائة وسبعون فارسا » ٠

أما برييه فيعطينا رأيا خاطئا عندما ذكر أن عمورى « عاقب شيركوه بهزيمة فاصلة » فى تلك المعركة ٠

L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339.

والواقع أن عمورى وجد أن « الواجب يحتم عليه أن يهرب حيا » فى ذلك اليوم كما ذكر رنسيمان ٠

Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 374.

(٩٧) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ٠٠٠ ، ص ٢٩ ٠

98. J. Prawer : Op. Cit., T. I, p. 436.

(٩٩) هنا يذكر ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣ أن أهل الاسكندرية ساعدوا جيش شيركوه خوفا من الفرنج ٠ أما ابن واصل مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٥١ فقد ذكر أن ذلك يرجع الى ميلهم لمذهب السنة وكراهيتهم لرأى المصريين ، بينما أعطانا أستاذنا الدكتور سعيد عاشور رأيا آخر له قيمته وهو أن أهل الاسكندرية عرفوا دائما بالنخوة والشهامة ٠ بالاضافة =

هو الى الصعيد فاستولى عليه « وجبى أمواله » (١٠٠) ٠

عندئذ حشد الصليبيون من جيش عمورى بالاضافة الى المصريين بقيادة شاور جيشا كبيرا تقدموا به الى الاسكندرية وحاصروها حصارا شديدا (١٠١) فأبدى صلاح الدين شجاعة نادرة فى الدفاع عن المدينة رغم قلة الطعـام والسلاح مع قواته (١٠٢) ٠ عندئذ توجه شيركوه بمن معه لنجدة صلاح الدين

= الى أن بعدهم عن العاصمة وملامستهم الخطر الصليبى عن طريق البحر جعلهم أكثر احساسا بذلك الخطر وأكثر حرية فى التعبير عن شعورهم (د٠ عاشور : بحـوث ودراسات ٠٠٠ ص ٢١٠) أما رنسيمان وستيفنسون فيذكران ان ذلك كان راجعا الى أن شاور كان مكروها من بعض السكندريين
(Runiciman : Op. Cit., V. 2, p. 375), Stevenson : Op. Cit., p. 191.

(١٠٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٥١ ٠ وقد ظل أسد الدين بالصعيد حتى شهر رمضان ٥٦٢ هـ ٠

وهنا يعقب الدكتور حامد غنيم . الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية جـ ٢ ، ص ٢٩ بأن مصر شهدت لمدة حوالى شهرين وجود نظامين متصارعين على أرضها ففى الاسكندرية والصعيد كان يوجد نظام يمثل حركة المقاومة الاسلامية ٠ وفىالقاهرة ومناطق أخرى كان يوجد نظام يمثل تحالف شاور مع الصليبيين وهو تحالف معاد لحركة المقاومة الاسلامية ٠

(١٠١) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٣، ١٦٨ ـ ١٦٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٥١ ، ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ٠٠٠ ، ص ٢٩ وهنا يذكر رنسيمان أن أسطولا صليبيا اشترك من البحر فى الحصار الى جانب تعزيزات برية وصلت من فلسطين
(Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 375).

وهنايذكر ابن ايبك أن الحصار استمر سبعة وخمسون يوما بينما ذكر جب أنه استمر ٧٥ يوما ، والراجح أنه أخطأ فى ترجمة العدد
(Gibb : The Life of Saladin, p. 5).

بل قيل استمر لمدة « أربعة أشهر » (أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٥) وفى موضع آخر ذكر نفس المصدر ص ١٦٨ ٠عن كتاب السيرة الصلاحية أنه اسـتمر ثلاثة أشهر » ويتفق برويه مع ذلك الرأى الاخير
(Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 436)

(١٠٢) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة الروضتين ، جـ ١ ص ١٤٣ ٠
J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 436.

هنا يعلق برويبه على موقف أهل الاسكندرية بقوله أنهم لم يكونوا معتادين على العمليات العسكرية باعتبارها مدينة تجارية لذا تعب أهلها كثيرا وقد نتج عن هذا الحصار مجاعة ٠

ومنمعه (١٠٣) أى أنه توجه الى الاسكندرية رأسا عندئذ علم الصليبيون أنه حشد لهم جيشا كبيرا « استنهض لقصد القوم العموم والخصوص ... فرحلوا عن الحصار » (١٠٤) .

وثمة رأى هنا لابن أيبك يذكر فيه أن أسد الدين جاء من الصعيد و « نازل القاهرة وحاصرها ، وضيق على من بها وعلى العاضد صاحب القصر »(١٠٥) والراجح أنه ربما فكر فى محاصرتهم وهو فى طريقه الى الاسكندرية ، ولكنه توجس من أن يقابل بمقاومة ضارية (١٠٦) . عندئذ وصلته رسل المصريين والصليبيين تطلب الصلح (١٠٧) . خصوصا بعد أن وصل للصليبيين أخبار هجمات نور الدين فى بلاد الشام على ممتلكاتهم (١٠٨)

---

(١٠٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥١ .

(١٠٤) ابو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٥ .

(١٠٥) ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٢٩ . يؤيد ذلك ما ذكره برويبه من أن القاهرة كان يقود الدفاع عنها Hugues d'Ibelin (Prawer : T. 1, p. 436)
أما ابو المحاسن فيذكر أن أسد الدين ضيع فرصة احتلال القاهرة فى الحال لانه لم يتبع الصليبيين اليها . (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، (القاهرة ١٩٢٥) ص ٣٤٩) .

(١٠٦) قدرى قلعجى : صلاح الدين الايوبى ، ص ١٧٨ .

(١٠٧) اذا كانت كل المصادر العربية تقريبا تذكر ذلك وعلى سبيل المثال لا الحصر:
ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٣ ،
The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 291,
ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥١ . فان (برييه أخطأ فى أنه ذكر أن عمورى وجيشه هو الذى أجبر أهل الاسكندرية على التسليم وعلى توقيع معاهدة »
(L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339)
كذلك أخطأ برويبه فى القول بأن شيركوه هو الذى بدأ مفاوضات الصلح
(J. Prawer : Op. Cit. T. 1, p. 436)
والراجح أن طلب الصلح بدأ من الجانب الصليبى المصرى وأنه جاء فى وقت كان شاور قد استمال فيه جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين فوافق الاخير على الصلح استنادا الى رأى ابن الاثير وابو شامه .

108. J. Prawer : Ibid., T. 1, p. 436.

اتفق الجانبان - المصريون والصليبيون من ناحية وشيركوه من ناحية أخرى - على عقد صلح وأن يقدم المصريون والصليبيون لشيركوه «خمسين ألف دينار» (١٠٩) وألا يقيم الصليبيون بمصر ولا يتسلموا منها قرية واحدة وأن تعاد الاسكندرية الى المصريين (١١٠) .

كذلك عقد اتفاق داخلى بين الصليبيين والمصريين - بمعنى أصح بين عمورى وشاور على أن يكون للصليبيين شحنة بالقاهرة ، وأن تكون أبوابها بيد فرسانهم ، ويكون للصليبيين كل سنة مائة ألف دينار (١١١) وهذا ما أورده (برييه) تحت اصطلاح « فرض الحماية الفرنجية الحقيقية على مصر » (١١٢) وأوضحه ستون فى قوله « أن شيركوه لم يكن قد حطم ولكن اللاتين كانت لهم السيادة فى مصر » (١١٣) .

عاد أسد الدين شيركوه حزينا الى دمشق فى سبتمبر ١١٦٧ م (١١٤) ذى القعدة ٥٦٢ هـ (١١٥) . أما الملك عمورى الذى وصل عسقلان فى أغسطس

= وصلت أخبار من بلاد الشام تشير الى عمليات لنور الدين قرب طرابلس وأنه هاجم مملكة بيت المقدس وهدم قلعة حنين على طريق صور فى الجليل الشمالى .

(١٠٩) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣
The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 291.

وفى موضع آخر يذكر أبو شامة (عن صاحب السيرة الصلاحية) : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٩ أن شاور اتفق مع أسد الدين على أن يعطيه كل ما تكلفته تلك الحملة وأن يعطى للصليبيين ثلاثين ألف دينار ويعود كل منهم الى بلاده وان صلاح الدين طلب من ملك الصليبيين مراكب حمل فيها الضعفاء من أصحابه فأرسل له عدة مراكب .

(١١٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥١ . هنا يذكر المصدر الاخير أن المصريين تسلموا الاسكندرية فى منتصف شوال .

(١١١) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة . الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٤٩ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٧٨ .

112. L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339.

113. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 554.

114. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 553, Stevenson : Op. Cit., p. 191.

(١١٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥١ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٧٨ .

١١٦٧ م (١١٦) / شوال ٥٦٢ هـ ، فقد رجع هو الآخر الى مملكته مضطرا نظرا لصعوبة موقف الصـــليبيين بالشـــام تحت وطأة ضربات نور الدين محمود (١١٧) الا أن الصليبيين لم يتخلوا مطلقا عن فكرة ضرورة الاستيلاء على مصر ، وهو ما ستثبته لنا الحوادث التالية .

---

116. Setton: Op. Cit., V. 1, p. 533, Runciman: Op. Cit., V. 2, p. 376.

(١١٧) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢١١ ، د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٩ .

الدور الايجـابى للتحالف بين الصليبيين والروم

رأينا كيف احتلت مصر مكان الصدارة فى خطط الصليبيين ، وكان ذلك هو سبب تعدد السفارات المبعوثة الى أوربا لطلب النجدة ولو أنها لم تأت بأية نتائج مثمرة . فقد كانت أوربا لا تزال تحت تأثير الآثار السيئة للحملة الصليبية الثانية . ومن ناحية ثانية كانت المشكلات المعقدة التى نتجت عن العلاقات بين فرنسا وانجلترا من ناحية والبابوية ودولة الروم من ناحية ثانية ، قد غطت على كل المشكلات الأخرى (١١٨) .

والحقيقة أن الملك عمورى كان فى بداية حكمه يرى فى الروم عدوا لايقل خطورة عن المسلمين ، وعليه فقد بنى آماله على لويس السابع ملك فرنسا ، الا أنه بمرور الوقت اتضح له أنه من الواجب عليه ألا ينتظر أى نجـدة من فرنسـا . (١١٩) .

وهنا نود أن نؤكد ما قيل من أنه اذا كانت أحداث الفترة المبكرة لحكم عمورى الأول قد أثبتت بوضوح مدى ضعف مصر حينئذ ، فانها أيضـا تركز الضوء على طبيعة الدفاع الصليبى المحفوف بالمخاطر فى شمال بـلاد الشام . وعليه فقد زاد نفوذ ومكانة امبراطور الروم مانويل كومنين فى الشمال ، وهو الذى كان ممسكا بيده توازن القوى فى الشرق ، ومن هنـا كان على الصليبيين أن يعملوا على حماية استقلالهم بتأييده فى أهدافه التى كانت منصبة فى الغالب على أنطاكية (١٢٠) .

لم تلبث العلاقات بين الصليبيين والروم أن دخلت فى دور ايجابى فعال عن طريق اتمام بعض الزيجات بين الجـانبين ، وعن طريق العـلاقات الدبلوماسية بين الطرفين .

فقد تزوج بوهيموند الثالث أمير أنطاكية من حفيدة الامبراطور مانويل

---

118. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 428.
119. J. Prawer : Ibid., p. 438.
120. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 554.

بينما تزوج الامبراطور مانويل كومنين من ماريا أخت بوهيموند نفسه • كذلك تزوج الملك عمورى من ماريا ابنه حناكومنين ، فى كنيســة صور فى ٢٩ أغسطس ١١٦٧ م ، وذلك بعد رجوع عمورى من حملته الثالثة على مصر مباشرة (١٢١) •

وهكذا دعمت تلك الزيجات الروابط بين الصليبيين والروم وشجعت الجانبين على الدخول فى علاقات دبلوماسية تزيد من تقوية تلك الروابط ولو لفترة محدودة •

ومما لا شك فيه أن عمورى كان قد أدرك بعد احتكاكه عن قرب بمصر أكثر من مرة أنه فى حاجة الى قوة خارجية تمكنه من تحقيق حلمه الكبير فى الاستيلاء عليها ، بل وفى المحافظة على مركزه بها ، الى جانب القدرة على مواجهة نور الدين المتكررة (١٢٢) •

لذلك فكر فى تقوية الرابطة مع امبراطورية الروم ، ولم يتوان عن الزواج من الأميــرة مارى كومنين • وفى نفس الوقت لــم يكن أباطــرة القسطنطينية فى غفلة عما جرى فى مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية وتنافس نور الدين محمود وعمورى الأول حول الفوز بوادى النيل ، لذلك لم يلبث الامبراطور أن أرسل مبعوثين سنة ١١٦٨ م / ٥٦٣ هـ الى بيت المقدس للاتفاق على عمل مشترك بحيث تقوم القوات الرومية الصليبية بفتح مصر على أن يكون الثمن الذى اتفق على أن يتقاضاه الامبراطور لقاء مساعدته للصليبيين هو جزء من مصر ، فضلا عن أنطاكية (١٢٣) •

---

121. Setton : Ibid., V. 1, p. 554, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 438. L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339, Runciman : Op. Cit., V. 2, pp. 362, 377.

فبعد انفصال الملك عمورى عن زوجته الاولى Agnes دى كورتناى – أم بلدوين الرابع وايزابيلا – بتدخل الكنيسة بسبب شدة القرابة بينهما ، أرسل عمورى بعثة الى القسطنطينية فعادت ومعها ماريا كومنين حيث قابلهم عمورى فى صور بعد عودته من مصر وهناك تم الزواج

122. L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339.

(١٢٣) د• سعيد عاشور : بحوث ودراسات •• ، ص ٢١١ عن
Schlumberger : Campagnes du roi Amoury de Jerusalem en Egypte.

وقد أورد لنا وليم الصورى نصا لتلك الرسالة التى بعث بها الامبراطور الى الملك عمورى (١٢٤) ٠

وسواء أكان الملك عمورى هو الذى بدأ المفاوضات من أجل مصر (١٢٥) أم أن الامبراطور نفسه هو الذى بدأها (١٢٦) فان الملك عمورى أرسل بعثة من قبله الى القسطنطينية ، كان أحد أعضائها المؤرخ المشهور وليم الصورى، رئيس أساقفة صور (١٢٧) ٠

=

هنا يذكر بروييه أن المفاوضات فى ذلك الموضوع بدأت فى صور فى فترة زواج الملك عمورى من ماريا كونين وأن مبعوثا الامبراطور فى تلك المفاوضات كانا الكسندر الجرافيني . Alexandre de Conversano Michel d'Otranté
(J. Prawer : Op. Cit., T. 1, pp. 438-439)

أما اديلى بابكوك Emily Babcock مترجمة كتاب وليم الصورى الي الانجليزية فتشير فى احدى الحواشى الى أنه من الطريف أن يكون مبعوثى الامبراطور مانويل من جنوب ايطاليا ، وأنه فى ذلك الوقت كان هناك العديد من الغربيين فى بلاط القسطنطينية وأن مانويل اعتمد عليهم فى الاحداث ذات الاهمية الكبرى ٠
(William of Tyre : A History of deeds done beyond the Sea, V. II, p. 347).

124. William of Tyre : Ibid., V. II, p. 348.

وفحواها « أن الامبراطور قد أدرك أن مملكة مصر التى كانت حتى الوقت الحاضر أى عهد عمورى ومانويل — قوية وغنية غنى مفرطا قد وقعت فى أيدى سلالة ضعيفة متخنثة ، وأن الشعوب المحيطة بها قد تيقنت من عجز وعدم قدرة الحاكم والامراء ٠٠، وأن الامبراطور يعتقد أنه بمساعدة الملك يستطيع أن يضع مصر بسهولة تحت سيادته »٠٠

125. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 438, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 379, Stevenson : Op. Cit., p. 193, Setton : Op. Cit., V. 1, p. 555.

126. William of Type : Op. Cit., V. II, p. 348, L. Bréhier: Vie et Mort, p. 339.

127. William of Tyre : Ibid., V. II, p. 348, Setton : Op. Cit., V. I, p. 555.

هنا يذكر وليم نفسه « أنه أضيف للوفد كأحد أعضائه بأمر الملك ٠٠ » وأنه فوض فى التوقيع على الاتفاق ، وربما دفع ذلك بربيه وبروييه الى القول بأن وليم كان رئيسا لتلك البعثة (L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339, J. Prawer : T. I, p. 439)

ولم يكن وليم هو المبعوث الوحيد للامبراطور ، كما أشارت دائرة المعارف البريطانية
(The New Encyclopaedia Britannica, V. 5, 1768, p. 302)

لان وليم ذكر فى مكان آخر من كتابه : أنه انضم للمبعوثين الامبراطوريين الذين انتظروا قدومه فى طرابلس (William of Tyre : V. 11, p. 348)

لم يكن الامبراطور موجودا آنذاك بالقسطنطينية ، بل كان مشغولا باخماد احدى الثورات فى بلاد الصرب (١٢٨) ، وبعد أن تم له اخضاعهم وأسر زعمائهم ، وفى طريق عودته للقسطنطينية ، تقابل مع الوفد الصليبى عند بلدة Butella فى اقليم Pelagonia (١٢٩) .

هنا يروى لنا وليم الصورى أن الامبراطور استقبل مبعوثى الملك عمورى « استقبالا مشرفا ، وعاملهم برقة امبراطورية » عندئذ أوضحوا الهدف من رحلتهم وسفارتهم ، كما شرحوا له بعناية فائقة فحوى المعاهدة ، فاستمع الامبراطور للتقرير الكامل بسرور زائد ، وبلباقة وأدب جم وافق عليها ، بل أقر كل ما اتفق عليه . وبعد أن حلف الجانبان قسما مقدسا كل منهما للاخر ، أقر الامبراطور بماله من سلطة التفاصيل التى كانت قد وضعت بواسطة المبعوثين ، وصدق على المعاهدة ، وبذلك نجحت تلك السفارة ، وبدأ وليم ورفاقه رحلة العودة الى بيت المقدس وذلك « فى اليوم الأول من أكتوبر » ١٩٦٨ م (١٣٠) .

---

128. William of Tyre : Ibid., V. II, pp. 348-9.

هنا يذكر وليم « أن بلاد الصرب هى البلاد الجبلية الواقعة بين دلماشية وهنغاريا وايلليريا . وهى متشابكة الغابات ، صعبة الاجتياز .. ولذلك فاعتمادا على الطبيعة الجغرافية الصعبة لبلادهم والممرات الضيقة داخلها ، ثار الصرب ، وكانوا يستمدون أصولهم من المنفى أى لم يكونوا من سكان البلاد الاصليين ، وأنهم اقتيدوا الى تلك البلاد للعمل فيها كأرقاء فى المناجم ، وفى قطع أحجار الرخام ، وأنهم استمدوا اسمهم من حالة العبودية تلك . خضع الصرب للامبراطور فى بعض الاحيان ، وفى أحيان أخرى - باعتبارهم شعوبا كانت فى الاصل شجاعة محبة للحرب - كانوا ينطلقون من جبالهم ويشيعون الخراب والدمار فى كل ما حولهم من أقاليم . ولقد اتجه الامبراطور ضدهم بجيش كبير ، بسبب الاعتداءات التى لا تحتمل التى ارتكبوها ضد جيرانهم »

129. William : Ibid., V. II, p. 349.

ويضيف وليم هنا أن ذلك المكان كان قريبا من المدينة القديمة التى كانت تعرف فى الماضى باسم Justiniana Prima التى كانت الوطن الاصلى للامبراطور جستنيان ... والتى كانت تعرف آنذاك باسم Ochrida أو Acreda أما برويبه ورنسيمان فيذكران أن البعثة التقت بالامبراطور فى البلقان فى مدينة Monastir (J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 439, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 379).

130. William of Tyre : Ibid., V. II, p. 349, Setton : Op. Cit., V. I, p. 555.

يذكر لنا وليم هنا أنهم زودوا بخطابات امبراطورية تحوى النص الكامل للمعاهدة

واذا كان وليم الصورى لم يذكر لنا تفاصيل المعاهدة التى تم الأتفاق عليها فان بريبيه قد ذكر لنا باختصار أنها نصت على « اقتسام مصر » (١٣١)

ومهما يكن من أمر فانه قبل أن تعود البعثة الملكية من عند امبراطور الروم الى بيت المقدس ، كان الملك عمورى قد خرج فى حملته الرابعة على مصر والتى بدأت آخر أكتوبر ١١٦٨ م / ٥٦٤ هـ (١٣٢) .

فما مغزى ذلك التحرك المفاجىء لعمورى ؟ وما سر انفراده بتلك الحملة على مصر وهو الذى كان حريصا على وقوف امبراطور الروم الى جواره فيها ، وخير دليل على ذلك تلك البعثة التى أرسلها والتى كان يعلم مسبقا مصيرها ؛ وانها كانت ستأتى بموافقة الامبراطور على المشاركة فى الاستيلاء على مصر .

هنا تضاربت الأقوال وكثرت الآراء للرد على هذا التساؤل فبروييه ذكر لنا رأيين أولهما يستند الى بنود الاتفاق الذى لم يتوافر لدينا نصه ، وهو أن عمورى ، كان ينوى أولا مهاجمة مصر ، ثم يحضر الامبراطور لتأييده . بينما ذكر رأى آخر ـ وهو فى رأيه أكثر الافتراضات قربا من الحقيقة ـ أن عمورى رغب فى أن يختبر قواته كى لا يضطر الى تقسيم ثمرة انتصاره مع الامبراطور (١٣٣) . وبمعنى آخر عدم رغبة عمورى فى أن يشاركه الروم فى اقتسام مصر ولو أن ذلك كان رأى « العناصر المحبة للحرب والشرهة من بارونات المملكة » والتى كانت تضغط بشدة على الملك (١٣٤) .

أما وليم الصورى فقد أوضح لنا أن الملك تحرك بسرعة الى مصر «مثارا بواسطة السخط الذى فجرته الاشاعات التى انتشرت فى مملكة بيت المقدس

=

فى صيغتها النهائية ، وأنهم انصرفوا محملين بالهدايا القيمة وفقا للعادة المتبعة آنذاك

131. L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339.
132. William of Tyre : Op. Cit., V. II, pp. 349-350, J. Prawer : Op. Cit., T. 1,p. 439, The New Encyclopaedia Britannica. V. 5, 1768, p. 302.
133. J. Prawer : Ibid., T. 1, p. 439.
134. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 555.

من أن شاور كان يرسل باستمرار السفراء الى نور الدين مناشدا اياه سرا المساعدة ، وأنه ادعى أنه ضد ارادته تماما ، أنه ارتبط بأى معاهدة من معاهدات السلم مع أى عدو ، كما أنه رغب فى الانسحاب من الاتفاق الـذى عقده مع الملك وأنه اذا استطاع الاعتماد على مساعدة نور الدين فانه سوف يخرق المعاهدة ويتخلى عن الملك تماما » (١٣٥) ٠

والحقيقة أن ذلك الرأى وأمثاله كان من آراء الاسبتارية (١٣٦) التى كان رئيسها المحرك الأول للملك (١٣٧) ٠ وأيدهم فى رأيهم هذا وليـم

135. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 350.

وقد أخطأ وليم الصورى هنا فى تسمية شاور بسلطان مصر ٠

(١٣٦) ثمة رأى يقول أن جذور هيئة الاسبتارية ترجع الى ما قبل قيام الحروب الصليبية ، عندما أسس بعض تجار مدينة أمالفى سنة ١٠٧٠ جمعية خيرية فى بيمارستان قرب كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، للعناية بفقراء الحجاج ، ومن ثم أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى Hospitallers التى حرفت بالعربية الى اسبتارية ٠ ولم يلبث أولئك الاسبتارية أن دخلوا تحت لواء النظام الديرى البندكتى المعروف فى غرب أوربا، وصاروا يتبعون البابا فى روما تبعية مباشرة ٠ وعند وصول الصليبيين الى بيت المقدس وحصارهم لها، قام أولئك الاسبتارية ــ بحكم درايتهم بأحوال البلاد ــ بتقديم مساعدات قيمة للصليبيين ٠ ومنذ ذلك الوقت أخذت هيئة الاسبتارية تتبلور ويصبح لها كيان ثابت مستقل ونظام خاص بها ٠ وقد تعاقب فى رآسة تلك الهيئة بعض الرؤساء المصلحين الذين عملوا دائما على اكساب منظمتهم أهمية خاصة فى النشاط الصليبى ٠ وساعد الاسبتارية على ذلك حصولهم على كثير من الاراضى والاعانات ، فضلا عن أن كثيرا من كنائس بيت المقدس خصصت عشر دخلها لمساعدة الاسبتارية على النهوض برســالتهم ٠ وهكذا لم تحل سنة ١١٣٧ الا وكان للاسبتارية دور فعال فى محاربة المسلمين ٠ (د٠ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٥٠١) ٠

137. William of Tyre : Ibid., V. II, p. 350, L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339.

ويعقب برييه على تصرف عمورى هذا بأنه كان « غلطة كبيرة » ارتكبها وأدت الى تحول مصر الى سيادة نور الدين وممثله الحقيقى صلاح الدين ٠ أما وليم الصورى فيذكر أن Gerbert وكنيته Assallit سيد بيت الاسبتارية فى بيت المقدس « كان المحرك الاول لتلك الحملة السيئة المصير ٠ وأنه كان رجلا ذو روح عالية ، شديد الكرم لكنه متردد متذبذب فى أخلاقه ٠ فبعد استنفاد كل ثروات الاسبتارية اقترض مبلغا كبيرا من المال وأنفقه كله على فرسانه الذين حشدوا له من كل مكان ، وبذلك أصبح فرســانه مكبلين بدين ثقيل ، يبلغ حوالى مائة ألف دينار ٠ وقد قيل أنه أنفق تلك المبالغ الهائلة على الاتفاق الذى عقد بينه وبين الملك على أساس أنه اذا استولى الملك على مصر يكون نصيب رئيس الاسبتارية هو مدينة بلبيس ٠

الرابع دوق نيفر الذى قدم الى فلسطين فى نهاية صيف ١١٦٨ م وكان بصحبته عددا كبيرا من الفرسان (١٣٨) . بينما وقف فرسان الداوية (١٣٩) موقفا معارضا بسبب تنافى الحملة مع ما يمليه عليه الضمير ، أو لأن سيد المجموعة الاسبتارية كان هو المحرك الأول لها ـ كما سبق الذكر ـ لذلك رفضوا أن يمدوا الملك بالقوات لأن اعلان الحرب ضد أى قوة صديقة ، يعتبر خطأ مخالفا لمغزى المعاهدة ودون أى اعتبار للحق والعدالة ، وباعتبار أن مصر حافظت على حسن نواياها ، فانها لا تستحق تلك المعاملة (١٤٠) . وهنا نود أن نشير الى أن الخرق المتكرر للمعاهدات هو الذى دفع نورمان دانييل الى القول بأن « المبادىء الخلقية للقانون الدولى لم تكن واضحة فى القـــرن الأول للمملكة اللاتينية » (١٤١) .

والواقع أن عمورى الأول وجد نفسه مضطرا الى الاسراع بهذه الحملة نتيجة لانقلاب سياسة شاور ضد الصليبيين (١٤٢) .

ذلك أن شاور أخذ يتخوف من المساعدة الصليبية التى تحولت الى حماية بل الى نوع من الوصاية على الدولة الفاطمية ، فوجود مندوب أو

---

138. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 379.

(١٣٩) يرجع تأسيس هيئة الداوية الى ١١١٨ م عندما وضع أساسها فارس فرنسى اسمه هيودى باينز ، وقد اختار هيو جزءا من هيكل سليمان فى المسجد الاقصى ببيت المقدس ليكون مقرا لمنظمته الجديدة . ومن ثم أطلق على أتباعها اسم فرسان المعبد Templars التى حرفت فى العربية الى الداوية . ثم ذهب هيو الى فرنسا وانجلترا لحث الفرسان على الانضمام لهيئته وبالفعل أصبحت تضم نخبة ممتازة من الفرسان والنبلاء الذين جمعوا فى الاراضى المقدسة بين الحياة الدينية والحيـــاة العسكرية . (د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٠١ ـ ٥٠٢) .

140. William of Tyre : Op. Cit., V. II, pp. 350-351.

هنا يعزى رنسيمان رفض الداوية هذا الى أنهم كانوا يحسدون الاسبتارية لانهم شرطوا على عمورى أن يعطيهم مدينة بلبيس مكافأة لهم على مساعدته فى ذلك المشروع. وهى فى الحقيقة كانت فى مقابل قلعة غزة التى كانت بيد الداوية فعلا .
(Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 380)

141. Norman Daniel : The Arabes and Mediaeval Europe, p. 197.

(١٤٢) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ، ص ٢١٢ ،
د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٩٥ . عن
(Chalendon : Les Commens II).

شحنة عن ملك بيت المقدس الصليبى فى القاهرة يشاركه فى شئون الحكم ، ووجود حامية صليبية تحرس أبواب القاهرة كل ذلك أزعج الفكر الاسلامى خصوصا وأن اولئك الصليبيين أساءوا معاملة أهل البلاد (١٤٣) « فنال المسلمون منهم أذى شديد ، وجور عظيم وقهر زائد » (١٤٤) ٠

ولقد كان ذلك الاستياء أمرا طبيعيا وكان لابد من حدوث انفجار نتيجة للسيادة الفرنجية المباشرة » فلا يمكن لأى مسلم أن يقبل بدون مجـــادلة أن تصبح بلاد النيل تحت السيادة المسيحية (١٤٥) ٠

هذا بالاضافة الى أن الضريبة السنوية التى فرضها عمورى عـلى شاور - وهى مائة ألف دينار - أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية فى الوقت الذى ضعفت تلك الدولة ونضبت مواردها ٠ وهكذا لم يجد شاور مفرا أمام ضغط الرأى العام وشعوره بالاستياء من أن يقلب سياسته رأسا على عقب ، لذلك اتصل بنور الدين محمود طالبا مساعدته فى التخلص من الحماية الصليبية (١٤٦) ٠

والراجح أن شاور قد تناقش فى ذلك الموضوع مع ابنه الكامل شجاع الذى كان باستمرار دائم النصح لوالده بالابتعاد عن الصليبيين وعمل كـل ما يهم المصلحة الاسلامية ، وانتهى الأمر باتفاق الوالد وابنه على سياسة جديدة يتم الاتفاق عليها مع نور الدين ٠ والدليل على ذلك أن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين « ينهى محبته وولاءه ، ويسأله أن يأمره باصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته وبجمع كلمة الاسلام ، وبذل مالا يحمله كل سنة » فوافق نور الدين (١٤٧) ٠

وقبل أن نستطرد فى الحديث عن حملة عمورى تلك نود أن نورد هنـا رأيا غريبا لميخائيل السريانى جعله السبب الأساسى لتحرك ملك بيت المقدس

---

(١٤٣) د٠ سعيد عاشور : بحوث ودراسات ٠٠٠ ، ص ٢١٢ ٠

(١٤٤) ابن الاثير الباهر ، ص ١٣٧ ٠

145. J. Prawer : Op. Cit., T. I, p. 429.

(١٤٦) د٠ عاشور : بحوث ودراسات ٠٠٠ ، ص ٢١٢ ، د٠ عبد الرحمن الرافعى ، د٠ سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٩٠ ولو أن ستيفنسون يرى هنا أن عمورى كان غير راضيا عن الضريبة السنوية التى يدفعها « سلطان مصر ، وأنه كان يطمع فى امتلاك مصر كلية ٠ (Stevenson : Op. Cit., p. 193)

(١٤٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٣

الى مصر تلك المرة · حيث يقول ما ملخصه : « ان المسلمين فى مصر كانوا منقسمين الى حزبين أحدهما الشيعة والثانى السنة ، أيد الشيعة نور الدين، وأيد السنة الصليبيين · وقد أرسل نور الدين مبعوثين للحزب السنى لكى يحثوهم على الانفصال عن الصليبيين ، وأن يرفضوا اعطائهم الضريبة السنوية وأن يعملوا كل ما فى وسعهم على تدعيم دينهم ، فوافقوا على ذلك الاقتراح ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الأتراك · ثم حصنوا بلبيس وامتنعوا عن دفع الضريبة المألوفة للصليبيين عندئذ أسرع ملك بيه المقدس بأخذ بلبيس » (١٤٨)·

ويكفى للتدليل على عدم صحة ذلك الرأى من القول بأن (الشيعة هم الذين أيدوا نور الدين) لأن نور الدين كان سنيا وبالتالى كان من الأحرى أن يؤيده السنة لا الشيعة ·

أما عن المثير الأول لفكرة حملة عمورى الرابعة على مصر فهو الحزب الصليبى الذى كان موجودا فى مصر آنذاك — وفقا للاتفاق السابق بين الصليبيين وبين شاور — فقد راسلوا الملك عمورى وأخبروه بسهولة الاستيلاء على البلاد فقد « أعلموه خلوها من ممانع » (١٤٩) وأنه « ليس بها راد ولا عن أخذها صاد » (١٥٠) ·

عندئذ انقسم الصليبيون فى مملكة بيت المقدس الى قسمين — وفقا لما دونه وليم الصورى — فريق حرض الملك وحثه بالحاح على ضرورة القيام بتلك الحملة وعلى رأس هؤلاء الاسبتارية ومقدمهم — كما سبق الذكر — وفريق عارض بشدة ذلك المشروع وحذر الملك من مغبة عواقبه وعلى رأسهم الداوية (١٥١) ·

ولكن ما سر ذلك الانقسام فى الرأى الصليبى تلك المرة ؟ ولماذا لم نرى منهم ذلك الموقف من قبل فى حملات عمورى السابقة ؟

---

148. Michel Le Syrien : Recueille des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1, p. 363.

(١٤٩) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ،
The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 293,

ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخه ، مجلد ٤ جـ ١ ص ٢٠

(١٥٠) ابن واصل : المصدر السابق ، ص ١٥٥ ·

151. William : Op. Cit., V. II, pp. 350-351.

هنا يعطينا بروييه ردا موجزا وكافيا فى نفس الوقت عندما يقول « آن الصليبيين تحركوا فى تلك المرة الى مصر ، لا لتأثرهم بحزب من الأحزاب المصرية ، بل لانبعاث فكرة جديدة من داخلهم هى السيطرة على مصر لا حمايتها » (١٥٢) · ولو أن المصادر العربية تشير الى وجود بعض المؤيدين للفكرة داخل مصر ممثلين فى بعض أعداء شاور (١٥٣) · ولكن هناك فارق كبير بين أن يكونوا مشايعين فقط للفكرة ، وأن يكونوا هم أصحابها الأصليين ·

والحقيقة أن الملك عمورى تردد بعض الشيء فى توجيه حملته تلك ، وعندما ألح عليه الحزب المتطرف المؤيد للحرب (١٥٤) رد عليهم بأنه لا يريد أن يتوجه اليها لأن أموالها تساق اليهم فيتقووا بها على نور الدين ، أما اذا صمموا على قصدها « فان صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلوننا دونها » (١٥٥) · أو يسلمونها الى نور الدين وفى ذلك هلاك الصليبيين (١٥٦) · فأكدوا رغبتهم فى التوجه اليها وانه

152. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 437.

(١٥٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١، ص ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخه م ٤ ، ج ١ ص ٢٠ ، هنا ينقل لنا البندارى تعبير العماد فى البرق الشامى فى هذا المعنى بقوله « شايعهم على قصدهم من أعيان مصر جماعة ما كانت للمصريين عليهم طاعة وشاوروا الفرنج على شاور لانهم أعداؤه وأعداهم داؤه وهم ابن الخياط وابن قرجله وأمثالهم » ·

154. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 437.

(١٥٥) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٧ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ١٩ ·

هنا يعقب أستاذنا الدكتور سعيد عاشور على ذلك القول بأنه مما يشرف مصر وتاريخها أن الملك عمورى والصليبيين عملوا حسابا لعامة أهل مصر وفلاحيها فى الوقت الذى كانوا يعلمون جيدا مدى انحلال حكام مصر وضعف حكومتها (د · سعيد عاشور : بحوث ودراسات ··· ، ص ٢١٣) ·

(١٥٦) يذكر ابن العبرى أن ذلك فيه هلاك الصليبيين لانهم سيحصرون بين هؤلاء الموجودين فى داخل مصر وبين قوات نور الدين فى الخارج ، وبذلك لا يستطيعوا الاستيلاء على مصر ·

The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 293.

بامكانهم أخذها قبل أن يصل الخبر الى نور الدين . فما كان منه الا أن وافق « على كره شديد » وتجهز للسفر (١٥٧) .

وعليه فلا عبرة هنا بما ذكره ابن أيبك وابن الفرات من أن الملك عمورى توجه بتلك الحملة الى مصر بدافع شخصى بحت ، والراجح أن ابن الفرات نقل رأيه هذا عن ابن أيبك (١٥٨) .

والحقيقة أن الصليبيين جاءوا الى مصر تلك المرة « ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد طمعا فى البلاد » (١٥٩) .

وكل ما يهمنا هو أن الملك عمورى تحرك من عسقلان فى منتصف محرم ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ووصل بجيشه الى بلبيس أول يوم من صفر ٥٦٤ هـ / (١٦٠) أوائل نوفمبر ١١٦٨ م (١٦١) فقتل الصليبيون الكثير من أهالى

---

(١٥٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٧ - ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ١٩ .

(١٥٨) ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٧ الدر المطلوب .. ص ٢٩ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ١٩ .

(١٥٩) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٣٨ .

وربما يظهر لنا ذلك الطمع فى أرض مصر بصورة أوضح اذا رجعنا الى ما دونته المصادر الاسلامية من أن الملك عمورى أحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لفرسانه وفرق قراها على جنوده . وهنا يذكر أبو شامة أن عمورى كان قد عرف أسماء القرى المصرية كلها عن طريق بعض أصحابه الذين صحبوه الى مصر . (أبو شامة : الروضتين جـ ١ ، ص ١٦٩ ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ جـ ١ ، ص ١٩) .

(١٦٠) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ .

161. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 351, Stevenson : Op. Cit., p. 193.

ولقد ذكرنا من قبل وفقا لرواية وليم الصورى نفسه أنه كان قد بدأ هو ورفاقه رحلة العودة الى بيت المقدس أول أكتوبر ١١٦٨ م أى أنه لم يكن موجودا بالمملكة عند خروج الملك بتلك الحملة (William : Ibid, V. II, p. 349).

بلبيس وأسروا عددا آخر ، كما تعرضت المدينة نفسها للسلب والنهب (١٦٢) — وذلك لمدة خمسة أيام (١٦٣) أو ثلاثة (١٦٤) ٠

وقد أوضحت لنا المصادر السريانية واللاتينية الى جانب المراجع الأجنبية الحديثة مدى التنكيل الذى حصل بأهالى بلبيس آنذاك ٠ فقد ذكر ميخائيل السريانى أن الملك « وجد بالمدينة اثنا عشر ألف فارسا ومائتى ألف من المشاه فوضع فيهم حد السيف » (١٦٥) ٠ أما وليم الصورى فيقول « أعمل فيهم السيف دون مراعاة لسن أو جنس » (١٦٦) ٠ فى حين ذكر رنسيمان أنه تلى دخول الصليبيين بلبيس مذبحة مروعة للاهالى (١٦٧) ٠

وبعد أن قضى عمورى عدة أيام فى بلبيس لاعادة تنظيم قواته (١٦٨)،

---

(١٦٢) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤،
The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 293,

ابن واصل ٠ مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٧ ٠

(١٦٣) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٧ ٠

164. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 351, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 381.
165. Michel Le Syrien : (R.H.C.), Documents Arméniens, T. 1, p. 363.
166. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 351.

هنا يضيف وليم الصورى نفسه أن الذين قتلوا كانوا الشباب القادرين على حمل السلاح ٠ أما من استطاع الفرار من الموت بأى وسيلة فقد فقد حريته ووقع تحت نير العبودية ٠٠٠ » وهو شيء أشد قسوة على النفس، خصوصا اذا كان الشخص من أصحاب المرتبة العالية، ومن أمثلة ذلك ابن شاور وحفيده، والواقع أن شهادة وليم الصورى هذه تدلنا دلالة واضحة على مدى الجور الذى تعرض له أهل بلبيس آنذاك ٠ ويقال أن أسرى بلبيس ظلوا « اكثر من أربعين سنة فى أسر الفرنج » ٠ (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٠ ، ابن الفرات ٠ تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ٢٣) ٠

167. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 381.

ويقال أن عدد كبير من الضحايا « كانوا من المسيحيين الوطنيين »
Setton : Op. Cit., V. 1, p. 555.

168. Runciman : Ibid, V. 2, p. 381.

تقدم الصليبيون الى القاهرة فوصلوها فى العاشرة من صفر ٥٦٤ (١٦٩) ، وعسكروا قرب بركة الجيش قرب الفسطاط (١٧٠) ، وبدأوا يستعدون لمحاصرة القاهرة فخاف أهلها أن يتعرضوا لنفس المصير الذى تعرض له أهل بلبيس « فحفظوا البلد وقاتلوا دونة وبذلوا جهدهم فى حفظه » والحقيقة أنه ربما سلمت القاهرة للصليبيين اذ لم تكن بلبيس قد تعرضت للمصير السابق الذكر « ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضى أمرا كان مفعولا » (١٧١) ٠

بل ان شاور نفسه أمر باشعال النار فى مدينة مصر (أى الفسطاط) فى تاسع صفر ٥٦٤ هـ / ١٢ نوفمبر ١١٦٨ م وذلك قبل نزول الصليبيين عليها بيوم واحد (١٧٢) « بعد أن أمر أهلها بالانتقال الى القاهرة وأن ينهب البلد فانتقلوا ، وبقوا على الطرق ، وذهبت مصر وافتقر أهلها وذهبت أموالهم ونعمهم » (١٧٣) ويقال أن النار ظلت مشتعلة فى الفسطاط حوالى أربعة وخمسين يوما (١٧٤) ٠ والراجح أن شاور لجأ الى هذا الأسلوب المدمر

---

(١٦٩) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٥٧ ٠

170. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 440.

استقروا بجوار باب خطة البرقية فى شرق القاهرة ٠

(١٧١) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٤ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ٢٤ ٠

(١٧٢) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، البندارى ٠ سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ١٧٠ ــ ١٧١ ،

Michel Le Syrien : (R.H.C.) Documents Arméniens, T. 1, p. 363.

هنا يضيف أبو شامة عن صاحب كتاب السيرة الصلاحية ، ص ١٧١ من الروضتين أن شاور أرسل الى عمورى رسولا بعد اشعال النار فى مصر مباشرة وقال له « هذا دخان مصر وما أتيت الا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نفط وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل وما بقى فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه » ٠

(١٧٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٥٧ ٠

هنا يذكر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٥٠ أن شاور أخرج « من كان بمصر من الفرنج بعد أن أساء فى حقهم قبل ذلك ، وقتل منهم جماعة كبيرة وهرب الباقون » ثم أمر بعد ذلك بانتقال أهل مصر الى القاهرة ٠

(١٧٤) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٤ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ٢٤ ، ويذكر المصدر الاخير أن أجرة الجمل الى القاهرة بلغ ثلاثين دينارا ٠

بعد أن أعيته الحيلة فى رد عمورى عن مصر بطريقة هادئة (١٧٥) ٠

أما الخليفة العاضد فقد أفزعته تلك الأخبار فأرسل يستنجد بنـــور الدين ويعرفه « ضعف المسلمين عن الفرنج » وبعث مع الرسائل بعض من شعور نسائه لكى يزيد من حثه على التقدم لنجدته « هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج » (١٧٦) وذلك لما لحق نساء مصر فى ذلك الوقت من « أحوال تقشعر لسماعها الأبدان » (١٧٧) على أيدى الصليبيين ٠ وما أن وصلت تلك الأخبار الى نور الدين حتى « قام وقعد » وشرع فى الحال فى تجهيز قواته الى مصر (١٧٨) ٠

وبوصول الأمر الى هذا الحد كان على شاور أن يتحرك بسرعة حتى لا تضيع منه البلاد فقد « اشتد الأمر وعظم الخطب ، وضاق الحصار وخيف البوار وعلم شاور عجزه وضعفه وأن البلاد ذاهبة لا محالة فسلك طـريق التمحل » (١٧٩) أى أنه بدا يطرق طريق الحيلة والخداع ٠ فأرسل الى الملك

---

(١٧٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٠ ، ابن الفرات : تاريخه م ٤ ، ج ١، ص ٢١ وهنا يضيف المصدران أنه عندما وصل عمورى الى الداروم كان شاور قد أرسل اليه يسأله عن سبب قدومه تلك المرة ، فرد عليه بقوله « أنه قدم وفقا لما تقرر بينهما وانه جاء لاخذ ما قرره له كل عام » فأجابه شاور أن الذى قرره جعله متى احتاج اليه أو اذا قدم عليه عدو « وأما مع خلو بالى من الاعداء فلا حاجة لى اليك ولا لك عندى مقرر » فأجابه عمورى بأن لابد من حضوره وأخذ المقرر ٠ عندئذ تيقن شاور من غدر عمورى ٠

(١٧٦) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٤٠ هنا يذكر ابن العبرى خطأ أن الذى أرسل شعور نسائه هو « أسد "Asad" خليفة مصر ٠ والراجح أنه خلط بين اسم العاضد وبين أسد الدين شيركوه ٠
The Chronography of Bar Hebraeus V. 1, p. 283.

(١٧٧) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ٠٠٠ ، ص ٣٠ ٠ فهو يفصل ذلك هنا بقوله : « انتشر الملاعين فى سائر الاعمال ، وعادوا يأخذون حريم أهل مصر وينزلون فى الزوارق ما بين مصر والجزيرة ويشربون عليهم الخمور ويفسقون فيهم ٠٠٠ »

(١٧٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٧، هنا يذكر ابن العبرى أنه استغرق شهرين فى تجهيزها ٠
The Chronography of Bar Hebraeus V. 1, p. 283.

(١٧٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٧ ٠

عمورى « يذكر له مودته ومحبته القديمة » وأنه معه قلبا وقالبا لولا خوفه فقط من العاضد ونور الدين وطلب منه الصلح على أن يأخذ « ألف ألف دينار مصرية ، يعجل البعض ويؤخر البعض » فأجابه الى ذلك (١٨٠) ٠

ووفقا لرأى وليم الصورى فان الملك عمورى كان قد طلب مليونين من الدينارات من شاور فى مقابل عقد ذلك الصلح لكى تعوضه عن الخسائر التى لحقت بمملكته من جراء حروبه مع شاور وجعل ذلك شرطا لاطلاق سراح ابن شاور وحفيده وبقية من معه من أصـــــحاب المنزلة العالية فى مصر من أسرى (١٨١) ٠

أما المصادر العربية فلم تحدد مقدار المال الذى طلبه عمورى آنذاك بل ذكر بعضها أن شاور طلب من عمورى أن يمهله بعض الوقت كى يجمـــع له بعض المال وأطمعه فى « ألف ألف دينار معجلة ومنجمه » وقال له « ترحـــل عنا وتوسع الخناق وتظهر الارفاق » (١٨٢) ٠ بينما أشار مصدر آخر أن شاور طلب من عمورى الرحيل وأن يأخذ فى مقابل ذلك ما يريده من المال كى لا تقع البلاد فى يد نور الدين ، لأنه لو حدث ذلك فلن يأخذ مصر ولن يأخـــذ أى مال (١٨٣) ٠

هنا انقسم الصليبيون الى فريقين أمام ذلك العرض ، فالبعض ومعهم الملك حبذ فكرة العودة وأخذ المال ليتقوا به ويعودوا مرة أخرى بعد ذلك ــ خصوصا وأن بعض الأخبار وصلتهم بتحرك قوات نور الدين اليهم ٠ والفريق الثانى رأى ضرورة الاستيلاء على القاهرة (١٨٤) ٠

والحقيقة أن أخبار حملة عمورى تلك على مصر لم تصل أخبارها الى

---

(١٨٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، البندارى : سنا البرق الشامى ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٥٨ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٥ ٠

181. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 352.

(١٨٢) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ ٠

183. The Chronography of Bar Hebraeus V. 1, p. 294.

184. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 353, J. Prawer : Op. Cit., T. 1 pp. 440-441.

نور الدين عن طريق الخليفة العاضد فقط بل عن طريق شاور نفسه أيضـا الذى بدأ يلعب على الوترين فى وقت واحد · ففى نفس الوقت الذى بدأ يفاوض الصليبيين فى الصلح · أرسل أيضا الى نور الدين يستنجد به · فقد أرسل كتبه الى نور الدين « مستصرخا ومستنفرا وبما نال الاسلام من الكفر مخبرا، وسير الكتب مسودة بمدادها ، كاسية لباس حدادها » ومعها أيضا بعض شعور أهل القصر « للاشعار بما عراهم من بلية الحصر » (١٨٥) ·

أما الخليفة العاضد فبمجرد أن علم بأخبار المفاوضات التى دارت بين شاور والصليبيين وأنها انتهت باتفاقهم على أن يعطيهم شاور مائة ألف دينـار وأن يرحلوا عن البلد حتى يتمكن من جمع المال ، حتى أعاد مراسلة نور الدين وأعلمه بما لقى المسلمين من الصليبيين ، وأغراه بعدة وعود منها أن يكون له ثلث مصر واعطاء أراضى أخرى لأسد الدين شيركوه يقيم فيها هو وجنـده وأن يكون اقطاعهم عليه خارجا عن الثلث الذى لنور الدين (١٨٦) ·

والراجح أن أخبار عمورى وحملته على مصر وصلت بسرعة الى أسـد الدين شيركوه قبل وصولها الى نور الدين (١٨٧) ، لذلك سار من حمص الى حلب فى « ليلة واحدة » وطلب من نور الدين التوجه بنفسه اليهم لأنه وحده القادر على ردهم عن مصر ، فما كان من نور الدين الا أن وضع كل خزائنه تحت تصرف أسد الدين لكى يأخذ منها ما يشاء لاعداد جيش قوى يتـوجه به الى مصر « ان خزائنى لك فخذ منها ما تريد » وبالفعل تم ذلك فى وقت قصير وخرجت القوات النورية متوجهة الى مصر فى منتصف شهر ربيـع الأول ٥٦٤ هـ (١٨٨) بقيادة أسد الدين شيركوه الذى توجه الى مصر

---

(١٨٥) البندارى : سنا البرق الشام ، ق ١ ، ص ٧٤ ـ ٧٥ ·

(١٨٦) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٨ ،
J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 441.

(١٨٧) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٨ ·

(١٨٨) البندارى : سنا البرق الشامى ··· ق ١ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٥ · وهنا يذكر أبو شامة أن أسد الدين عندما وصلته كتب =

« بسيفه وملكه وماله وأهله ورجاله » (١٨٩) • وصحبه عدد من الأمـراء والمماليك ـ من صفوة الجيش وصلاح الدين ابن أخيه على كره منه (١٩٠) •

أما عن الصليبيين وحملتهم فقد رأينا أنهم توقفوا أمام القاهرة ، وكان شاور قد أشعل النار فى الفسطاط ، وكان ما كان من أمر المحادثات بين شاور والصليبيين •

وفى نفس الوقت الذى كان فيه عمورى قد غادر مملكته ، كان قد أعطى

=

المصريين بخبر الصليبيين « بقى مسلوب القرار مغلوب الاصطبار لانه كان قد طمع فى بلاد مصر فخاف خروجها من يده وأن يستولى عليها الكفر فساق فى ليلة واحدة من حمص الى حلب » عندئذ تعجب نور الدين الذى كانت الاخبار قد وصلته منذ وقت قليل ، وفى نفس الوقت تفاءل بها وشكر أسد الدين وأمره بالتجهز لحرب الصليبيين • أما ابن واصل فيذكر أنه عندما خرج رسول نور الدين من حلب الى حمص كى يطلب من أسد الدين التجهز للحرب كان أسد الدين نفسه قد وصل الى حلب (ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٥٨)

(١٨٩) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٩ • وهنا يشير ابن شداد أن نور الدين لم يخرج بنفسه اليها لانه كان مشغولا بالموصل التى توفى حاكمها زين الدين على بكتكين فى ذى الحجة ٥٦٣ هـ وسلم ما كان بيده من الحصون الى قطب الدين أتابك ما عدا اربل التى كانت له من أتابك زنكى ، لذلك طمع نور الدين فى أخذها • أمـا عن عدد القوات التى صحبت شيركوه فى حملته تلك فكان عددها يقدر بـ ٨٠٠٠ فارس (J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 441) فصلها لنا ابن واصل فى كتابه: مفرج الكروب، ج ١ ص ١٥٨ بأن أسد الدين اختار من قوات نور الدين ألفى فارس وجمع من التركمان ستة آلاف فارس • أما اليافعى : مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٣٧٤ ، ابن الفرات : تاريخه ، م٤ ، ج ١ ، ص ٢٧ فالراجح أنهما أخطأ عندما ذكرا أن عدد القوات كان سبعين الفا ما بين فارس وراجل • أما الذهبى : دول الاسلام ، ج ١ ، ص ٧٧ فقد انفرد بالقول بأن عدد القوات كان عشرة آلاف فارس وخمسين الف راجل •

(١٩٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٩ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٩، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٥ ،
Gibb : Op. Cit., p. 5, L. Bréhier : Vie et Mort... p. 339.

هنا يذكر أبو شامة أن أسد الدين طلب من ابن أخيه صلاح الدين المسير معـه الى مصر فكان كمن ضرب قلبه بسكين • فقال له والله لو أعطيتنى ملك مصر ما سرت اليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبدا ، عندئذ طلب أسد الدين من نور الدين أن يأمره بمصاحبة عمه ففعل فكان صلاح الدين كمن يساق الى الموت •

أوامر لأسطول صليبى أن يتحرك الى شواطىء مصر ليهاجمها من جهة البحر، وبالفعل وصل الأسطول ودخل فرع النيـــل الذى تقع عليه مدينة تنيس ، واستولى عليها وأخذت قواته فى نهب وسلب المدينة ، ثم بدأت قـــوات الأسطول الصليبى تحاول اللحاق بالملك مستخدمة فرع النيل فى تحركها ، فوقف المصريون وقفة جريئة وسدوا النيل بواسطة مراكبهم ومنعوا الصليبيين من المرور . فى الوقت الذى أصدر عمورى أوامره الى Humphrey of Toron ـ المسئول عن الأمن فى قصره ـ بأن يستولى على الشاطىء المواجه بواسطة بعض الفرسان ، ولكن ما أن بدأ همفرى فى تنفيذ الأوامر حتى وصلت أخبار تفيد باقتراب شيركوه ، عندئذ كان لابد من تغيير الخطط فصدرت الأوامر للاسطول بالعودة الى البحر ثم الى المملكة (١٩١) .

ويقال أن شاور ورجاله بذلوا كل ما فى وسعهم كى ينسحب الملك آنذاك من الأراضى المصرية ، وأنه دفع لعمورى مائة ألف دينار مقابل انسحابه ، واستعاد شاور ابنه وحفيده اللذان كانا رهينة عند عمورى . عندئذ تقـدم الملك حتى وصل الى سرياقوس . ولم يلبث شاور بعد ذلك أن أخذ يلهب

---

191. William of Tyre : Op. Cit. V. II, p. 354, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 441, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 381, Setton : Op. Cit., V. 1, p. 556.

د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ... ص ٢١٥ . عن Schlumberger

وهنا يذكر رنسيمان أن الجيش الصليبى كان يعسكر فى ذلك الوقت فى المطـرية وأنه مكث هناك ثمانية أيام ثم وصلت أخبار جيش شيركوه

(Runciman : V. 2, p. 382)

أما وليم الصورى فيفصل لنا الحديث عن جانب من تصرفات بعض أمراء الصليبيين الشاذة ويخص بالذكر Milon de plancy الذى كان يمثل الرجل الذى لا حياء عنده ، الرجل الذى يهوى المنازعات وتشويه سمعة الغير ، والذى كان دائما وأبدا نشطا فى اثارة المشاكل . فقد نصح الملك بالاحتيال على « المملكة المصرية » وأن يأخذ المـال المتفق عليه منها ، ثم يعمل بعد ذلك على الدخول فى اتفاق جديد مع شاور والخليفة بدلا من مهاجمة القاهرة . وكان رأيه يرتكز على أنه اذا أخذت القاهرة بالقوة فسوف يستولى كل فرد من الجيش الصليبى على ما يقع تحت يده من غنيمة ، أما اذا دخلها الملك وفقا لاتفاق معين فسوف يضع الملك يده على كل شىء ، عندئذ يوزعه على كبار رجال مملكته ومنها بالطبع ملون البلنسى نفسه .

(William : Ibid, V. II, p. 355)

حماس المصريين للدفاع عن بلدهم فسدوا كل الثغرات واعدوا كافة وسائل الدفاع بعد أن جمع القوات من كافة أرجاء مصر وزود القاهرة بالمؤن الكافية (١٩٢) ٠

والواقع أن شاور أخذ يماطل ويسوف مع الصليبيين فى اعطائهم المال المتبقى بحجة أنه مشغول بجمعه حتى أصبح جيش شيركوه على مقربة منه (١٩٣) ٠ وكان وصول جيش أسد الدين الى مصر فى ربيع الأول ٥٦٤ هـ (١٩٤) ٠

وهكذا جاء شيركوه بحملته الجديدة الى مصر « كمحرر ومنقذ لا كعدو » (١٩٥) ، فقد جاء شيركوه لينقذ مصر كلها خليفة وشعبا بعد استنجادهم بنور الدين ٠

وثمة رأى لابن العبرى هنا يجعل هدف نور الدين من وراء ارسال تلك الحملة هو « الوصول الى حكم مصر ، دون أن يكون دافعه تقديم المساعدة للمصريين » (١٩٦) ٠

والراجح أن نور الدين رمى الى الوصول للهدفين معا ، تحرير مصر من الصليبيين المتربصين بها والذين الحقوا بها الأذى ، ثم ضمها الى حوزته حتى تدخل تحت ظل المذهب السنى الذى يعضده ، ولما فيه أيضا من تأمين لبلاد الشام ٠ وهذا ما عبر عنه ابن الأثير بعد فتح مصر على يد شيركوه تلك المرة بقوله « أنه كان فتحا جديدا لمصر وحفظا لسائر بلاد الشام وغيرها » (١٩٧) ٠

---

192. William of Tyre : Ibid, V. II, p. 354.

هنا يذكر وليم « أن شاور ذكرهم بما حدث للمدينة المجاورة من كارثة مروعة - وهو يقصد بذلك ماحدث فى بلبيس - وذكرهم أيضا بمرارة العبودية حتى يقفوا معه قلبا وقالبا ٠

193. William : Ibid, V. II, p. 356.

(١٩٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ٠٠٠ ، ص ٣٩ ٠

195. J. Prawer : Op. Cit., T. 1,p. 441.

196. The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 294.

(١٩٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٩ ٠

والحقيقة أنه بمجرد وصول أخبار اقتراب جيش شيركوه من مصر خشى الملك عمورى أن يصبح محصورا بين نارين (١٩٨) ٠ فأعطى أوامره للجيش الصليبى بالعودة الى بلاد الشام وبدأ تحركه بالفعل فى ٢ يناير ١١٦٩ م ٠

واذا كانت تلك الحملة ذات سمات مميزة عما سبقها من حملات للملك عمورى على مصر ، باعتبارها تحركت بأهداف تخص الصليبيين وحدهم دون استنجاد من داخل مصر ، ولأنها كانت ترمى الى السيطرة على مصر لا حمايتها لذا كانت أصداء اخفاقها كبيرة ، لذلك أبرزت المصادر العربية تلك النقطة بما تستحقه من الازدراء والشماته (١٩٩) ٠ وأوضحت أنهم جاءوا عن غير حق ورحلوا دون أن يجنوا شيئا الا الندم ٠ فابن الأثير ذكر أنهم « رجعوا بخفى حنين خائبين مما أملوا » (٢٠٠) ، أما ابن شداد فيقول « رحلوا راجعين وعلى أعقابهم ناكصين » (٢٠١) ٠ بينما يقول البندارى « وأجفلوا اجفال النعام » (٢٠٢) ٠ أما ابن واصل وابن الفرات فيقولا « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال » (٢٠٣) ٠ وقد توجه عمورى أولا الى بلبيس ثم عاد الى مملكته (٢٠٤) بل ان ابن الأثير يبرز لنا مدى ضيق عمورى وضجره من نتيجة تلك الحملة الخاسرة بقوله « وسب ملكهم كل من أشار عليه بقصد مصر » (٢٠٥) ٠ فقد كانت « نهاية واهنة لمحاولة حمقاء » على حد تعبير (ستيفنسون) (٢٠٦) ٠

---

198. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 441.
199. William : Op. Cit., V. II, p. 356, J. Prawer : Ibid, T. 1, p. 441.

(٢٠٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٩ ٠

(٢٠١) ابن شداد : النوادر السلطانية ٠٠٠ ، ص ٣٩ ٠

(٢٠٢) البندارى سنا البرق الشامى ٠٠٠ ق ١ ، ص ٧٧ ٠ عن العماد الاصفهانى

(٢٠٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦٠ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٨ ٠

J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 441.

(٢٠٤) البندارى ٠ سنا البرق الشامى ٠٠٠ ق ١ ، ص ٧٧ ،

(٢٠٥) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٩ ٠

206. Stevenson : Op. Cit., p. 194.

وهكذا كانت نتائج حملات عمورى حتى ذلك الوقت فى رأى برييه « لا تبشر بأى خير ، فقد أنهكت حملاته المتـــكررة على مصر ميزانية الامارات الصليبية ، وفى مقابل توجيه عمورى نظره الى مصر اضطر الى التنازل عن أنطاكية ، بل ترتب على تلك الحملات أيضا نقص امكانيات التدخل السياسى والعسكرى فى الدبلوماسية السورية الاسلامية » (٢٠٧) ٠

وكان وصول أسد الدين شـــيركوه الى مصر فى بداية ربيـــع الآخر ٥٦٤ هـ (٢٠٨) / ٨ يناير ١١٦٩ م (٢٠٩) ٠ فخلع عليه الخليفة « الخلعة العاضدية وفرح به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة » (٢١٠) ٠ أما شاور فقد بدأ يخادع شيركوه من جديد ويظهر له الود « تودد شاور الى أسد الدين وتردد ، وتجدد بينهما من الوداد ما تأكد » (٢١١) ٠

فقد كان شاور يخرج كل يوم الى معسكر شيركوه الذى كان موجودا أمام القاهرة فيقدم له فروض الود والمحبة الى جانب بعض الهدايا ، ويعود مرة أخرى الى القاهرة (٢١٢) ٠ وكان شاور يلحظ هوى العاضد والشعب وميلهم لشيركوه ، فظل يماطل فى اعطاء شيركوه المال والاقطاع المتفق عليه مع تخصيص ثلث البلاد لنور الدين (٢١٣) ٠ وكان الحقد قد أذهب صوابه من جديد ودفعه الى مكاتبة الصليبيين حيث طلب منهم الحضـــور بحملة برية بحرية الى دمياط « يكون مجيئكم الى دمياط فى البحر والبر » (٢١٤) ٠

---

207. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 430.

(٢٠٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٩ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٦، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦١ ، أما ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ص ٧٨ فينفرد بالقول بأن ذلك كان فى جمادى ٥٦٤ هـ والراجح انه كان فى ربيع ٠

209. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 442, Stevenson : Op. Cit., p. 194.

(٢١٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٩ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦١ ٠

(٢١١) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٧ ٠

212. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 357.

(٢١٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ٠

(٢١٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٥١ ٠

بل انه فكر فى التخلص من شيركوه لولا تدخل ابنه فى الأمر ومنعه من ذلك (٢١٥) ٠

فلما أحس شيركوه ومن معه بمماطلة شاور لهم قرروا التخلص منه، وبالفعل عهد شيركوه الى صلاح الدين بتلك المهمة فتم التخلص من شاور بقتله ، تنفيذا لرغباتهم الى جانب رغبة الخليفة العاضد أيضا (٢١٦) ٠ «فحم حمامه وحمـــل الى القصر هامه وذلك يوم السبت ســـابع عشر ربيـــع الآخر » (٢١٧) ٠

عندئذ تقلد أسد الدين الوزارة ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش (٢١٨)

---

(٢١٥) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦١ ، أبو المحاسن : المرجع السابق ، ص ٣٥١ ٠

(٢١٦) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٩ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ص١٧١ـ ١٧٢ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ، اليافعى: مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٣٧٤ ،

William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 359, The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 294, Gibb : Op. Cit., p. 6.

هنا يستخدم وليم الصورى فى التأريخ لذلك الحادث تعبيرات غريبة حيث يطلق على شيركوه اسم وزير الموت Minister of Murder وعلى صلاح الدين وأعوانه فى قتل شاور اسم عملاء الموت Agents of death ٠ أما ابن العبرى فيسمى الخليفة العاضد خطأ باسم (أسد) كما سبق الذكر ٠ أما أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧١ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ص ٧٩ ، فيوضحا أن الخليفة العاضـد كان أول من أوحى الى شيركوه بفكرة التخلص من شاور ٠

(٢١٧) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٨ ٠

(٢١٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٠ ، البندارى سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٨ ـ ٧٩ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١، ص ١٥٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٣ ٠

هنا كتب البندارى عن العماد الاصفهانى أنه بمجرد وصول تلك البشرى الى الشام كتب العماد الى شيركوه مهنئا :

بالجـد أدركت ما أدركت لا اللعب	كم راحة جنيت من دوحة التعب
افخر فان ملوك الارض قاطبـة	أفلاكهـا منك قد دارت على قطب
فتحت مصر وأرجو أن تصير بها	ميسرا فتح بيت القـدس عن كثب

وقد اعتبر وليم الصورى أن شيركوه بوضعه الجديد ، أصبح « سيدا لمصر كلها » (٢١٩) · ولم يستطع أن يخفى تحسره الشديد لذلك واعتبره فاصلا بين عهدين مختلفين تماما بالنسبة لمصالح مملكة بيت المقدس (٢٢٠) ·

والواقع أن شيركوه لم يستقر فى الوزارة سوى شهرين وخمسة أيام، فقد توفى فى « الثانى والعشرين من جمادى الآخرة» سنة ٥٦٤ هـ (٢٢١)

=

أما أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧٢ فقد كتب عن ابن أبى طى صاحب السيرة الصلاحية أن نور الدين أظهر قلقه لتولى شيركوه الوزارة الفاطمية للعاضد وظهرت الكراهية منه لذلك فى ألفاظه ووجهه · ويعقب أبو شامة على موقف نور الدين هذا بأنه ربما خاف من ميل شيركوه الى المصريين ومذهبهم الشيعى وبذلك يفسد جنده عليه · ومن الراجح أن ابن أبى طى كتب ذلك لانه كان متحاملا على نور الدين الذى نفى اباه من حلب لانه كان من رؤوس الشيعة ، كما روى أبو شامة : الروضتين، جـ ١ ، ص ١٧٤ · أما أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ فقد أورد نصا لمنشور الوزارة الذى أرسله العاضد الى شيركوه وكان بخط القاضى الفاضل ·

219. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 357.
220. William of Tyre : Ibid., V. II, p. 358.

« كان العهد الاول ـ يقصد به عهد شاور ـ عهد الهدوء فى الجبهة الصليبية والرخاء والتبادل التجارى الهادىء مع مصر ، ففيه كان المصريون يفدون الى المملكة لزيارتهم مما كان يعود عليهم بفائدة كبرى ويشرفهم فى نفس الوقت ، الى جانب ان ما كان يحمل من جانبهم كل عام من مال كان يثرى خزانة المملكة · أما فى عهد شيركوه فقد أصبح الامر على عكس ما كان عليه فكل شىء تغير للاسوأ فلم يعد هناك معبرا هادئا بالبحر ، وأصبحت كل المناطق المحيطة بالمملكة خاضعة للعدو ، وكانت كل الممالك المجاورة تستعد لتحطيمهم » ·

(٢٢١) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤١ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٠ البندارى : سنا البرق الشامى ··· ، ق ١ ، ص ٨١ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٠ ، ابن أيبك : كنز الدرر ··· ، جـ ٧ ، ص ٣٧ ·

هنا يذكر البندارى أن وفاته كانت يوم الاحد أما ابن أيبك فيقول يوم الاربعاء بينما تذكر بقية المصادر الاخرى أن ذلك كان يوم السبت ·

واذا كان ابن الاثير وابن شداد وأبو شامة يذكرون أنه توفى بعد حوالى شهرين من تقلده الوزارة ، فان ابن أيبك يذكر أن وفاته كانت بعد ثمانية أشهر من توليه لها · أما وليم الصورى فيقول أن ذلك كان بعد سنة ·

=

/ ٢٣ مارس ١١٦٩ م (٢٢٢) ٠

وبوفاة شيركوه ولى الخليفة العاضد ابن أخيه صلاح الدين مكانه فى الوزارة (٢٢٣) ٠ وذلك فى الخامس والعشرين من شهر جمادى الآخـــرة ٥٦٤ هـ (٢٢٤) ٠ ولقبه بالملك الناصر ، وكان مما كتبه العاضد فى منشور الوزارة لصلاح الدين : « فيومك واسطة فى المجدين يومك وأمسك ٠٠ وكل ناد من أندية الفخار لك أن تقول فيه ، ولغيرك أن يمسك ، فبشراك أن أنعمه منكم موصولة بوالد وولد ، وان شمس ملكه بكم كالشمس أقوى ما كانت فى بيت أسد » (٢٢٥)٠

وبتولى صلاح الدين الوزارة وزع على قواته كل ما جمعه أسد الدين

William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 358.

بينما يذكر ابن خلدون أن هناك رأى يذكر أنه توفى بعد أحد عشر شهرا ٠ (ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٧٩) والراجح أن ذلك كان بعد شهرين ٠

وبينما يذكر ابن شداد وأبو شامة أن سبب وفاته كان مرض الخانوق ، يشير ابن العبرى الى أن سبب الوفاة كان مرض تقطر البول ٠

The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 295.

بل ان هناك رأى فريد لا نرجح صحته لابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ٥٤ ٠ يذكر فيه أنه قيل أنه مات مسموما ٠

222. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 442, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 383.

(٢٢٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٢ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ص ٨١، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٦٠ ــ ١٦١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٦٨ ٠ وهنا يذكر ابن الاثير وأبو شامة أن الذى حمل العاضد على تولية صلاح الدين هو أنه ظن أنه اذا ولاه « وليس له عسكر ولا رجال ، كان فى ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة » ٠ ويضيف أبو شامة أن صلاح الدين وافق على مضض ٠ ويعقب على ذلك بقوله « ان الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بسلاسل »٠ والواقع أن الخليفة العاضد كان يعلم تماما أن شخصية صلاح الدين فى حد ذاتها من الشخصيات التى يمكن الاعتماد عليها فى الجهاد والزود عن بيضة الاسلام لما له من قدرات تؤهله لذلك وهو ما أشير اليه فى منشور توليه الوزارة « والجهاد أنت رضيع دره وناشئه حجره وظهور الخيل مواطنك وظلال الخيام مساكنك ٠٠٠ » أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦١ عن العماد الاصفهانى ٠

(٢٢٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ص ١٧٣ ٠

(٢٢٥) البندارى : سنا البرق الشامى ٠٠٠ ، ق ١ ، ص ٨١ ٠

فى حياته ، الى جانب جزء طلبه من الخليفة العاضد فأحبه الجميع (٢٢٦) ٠ فما زالت محبته غالبة على مهابته وهو يبالغ فى تقريبهم كأنهم ذوو قرابته » (٢٢٧) ٠

وبذلك خيب صلاح الدين آمال الخليفة العاضد وأمسك بيد من حديد على زمام الحكم فى مصر ، مما ترتب عليه أيضا سريان موجة من الذعر والقلق فى مملكة بيت المقدس بل وفى كل الممالك الصليبية فى بلاد الشام ، والراجح أن ذلك الذعر ظهر بجلاء بعد تخلص صلاح الدين من مؤتمن الخلافة الذى كاد أن يعيد من جديد دور ضرغام وشاور ويستنجد بالصليبيين ضد صلاح الدين (٢٢٨) ٠

وقد صور لنا وليم الصورى فى تلك السطور القليلة التالية مدى القلق الذى أصاب الصليبيين بتولى الأتراك حكم مصر : « كان خضوع مصر للاتراك أمرا غاية فى الخطورة بالنسبة لنا فقد أصبح وضعنا غاية فى السوء، فاذا خرج نور الدين بأسطوله الضخم من مصر ، كان بامكانه أن يسد علينا منافذ المملكة وأن يحاصر كل المدن الساحلية بواسطة البر والبحر بجيشه ٠

---

(٢٢٦) ابن الاثير : الباهر « ص ١٤٣ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦١.
The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 295.

ولا عبرة هنا بما ذكره وليم الصورى
(William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 359)
من أن صلاح الدين قتل الخليفة عندما كان فى احدى زياراته لتقديم فروض الولاء والطاعة له ، بل وقتل معه أيضا كل أبنائه ما عدا واحد فقط وأخذ كل ما يملك وقدمه ببذخ زائد لقواته ، لذلك لم تمض سوى أيام قليلة حتى كانت الخزائن خالية ، حتى خزائن الثياب أيضا ٠ ثم اقترض ممن حوله بعد ذلك وأصبح مكبلا بدين ثقيل ٠ والراجح أن وليم الصورى خلط بين قتل صلاح الدين لشاور بالحديث عن مقتل الخليفة ثم استنتج بعد ذلك استنتاجا خاطئا هو أن صلاح الدين أخذ أموال الخليفة وأنفقها على قواته ، وهو ما لم نقرأ عنه فى أى مصدر من المصادر العربية حتى التى تناولت صلاح الدين أحيانا بشىء من الغمز مثل ابن الاثير ٠

(٢٢٧) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦١ ٠

(٢٢٨) عن مؤتمن الخلافة وحركته والتخلص عنه انظر أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧٨ ٠

بالاضافة الى ذلك فانه كان بامكانه أن يعرقل وصول الحجاج الى بيت المقدس أو حتى يرفض السماح لهم بالمرور كلية » (٢٢٩) ٠

كما أعطانا (ستون) رأيا آخر عن نفس الموضوع حين قال : « تسببت الأحداث التى وقعت آنذاك فى قيام ثورة فى ميزان القوى فى الشرق ٠ فقد انتهت الحماية الفرنجية على مصر بكل مميزاتها الاقتصادية والسياسية ٠ واتحد مسلمو مصر وسوريا وبدأ تطويق الدويلات المسيحية الذى أثبتت السنوات التالية مدى خطورته » (٢٣٠) ٠

أما (ستانلى لين بول) فقد زودنا بتفسير ثالث لخطورة الوضع على الصليبيين حين قال : « ان مينائى دمياط والاسكندرية جعلا للمسلمين القيادة على الأسطول ، وجعلهم قادرين على قطع اتصالات الصليبيين بأوربا وعلى ايقاف سفن الحج السنوية كما وضع أيدى المسلمين على امدادات الصليبيين » (٢٣١) ٠

والواقع أنه كرد فعل لتولى شيركوه الوزارة فى مصر مباشرة (٢٣٢) وبالتحديد فى بداية ١١٦٩ م تكونت سفارة اختيرت بالاجماع من المبرزين من أصحاب المكانة العالية فى الكنيسة ، توجهت من بيت المقدس الى أمراء الغرب المسيحيين مدفوعة ــ وفقا لتعبير وليم الصورى ــ « بهول المحنة » التى كانت مملكة بيت المقدس ترزح تحتها آنذاك ٠ وحمل السفراء رسائل من الملك ومن

---

229. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 360.

وهو يسمى نور الدين هنا « عدونا الاكثر قوة » ٠

230. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 556.

231. Stanly Lane Poole : Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 103.

(٢٣٢) هنا يذكر لنا ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ (١٩٦٦) ص ٣٥١ ٠ ان السفارة التى أرسلت للغرب كانت قد تحركت لاداء مهمتها فى عهد أسد الدين ٠ وكان ذلك فى يناير ١١٦٩ ولكنها رجعت بعد وفاته فى مارس ١١٦٩ م ٠

Cam. Med. Hist., V. IV. Part 1, p. 236.

أى بعد أن خلفه صلاح الدين ٠

كل القساوسة الى فردريك امبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك انجلترا ووليم ملك صقلية ، بل لكل النبلاء والكونتات البارزين فى الغرب وما أن أبحرت تلك البعثة براسة البطريرك هرنسيوس Hernesius رئيس أساقفة قيصرية ووليم أسقف عكا حتى هبت عاصفة شديدة فى الليلة التالية مما اضطرهم للعودة بصعوبة بعد ثلاثة أيام بعد أن نجوا من حادث غرق سفينتهم ٠ عندئذتكونت سفارة أخرى من فردريك رئيس أساقفة صور، وحنا أسقف بانياس ولقد وصلت تلك السفارة بنجاح الى الغرب ولكنها لم تحقق سوى نجاحا جزئيا فى المهمة التى عهدت اليها ٠ فقد مات الأسقف فى باريس بعد وصوله الى فرنسا بفترة وجيزة وعاد رئيس الأساقفة بعد أن أمضى سنتين بالخارج دون أى نجاح فى مهمته (٢٣٣) ٠

والحقيقة ان الأوضاع السياسية فى غرب أوربا عندئذ لاسيما فيما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والامبراطورية ، حالت دون تحقيق أمنية عمورى الأول فقد اتفقت تلك الفترة مع الدور الثانى من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية ٠ وهكذا لم يبق أمام الصليبيين بالشام سوى الاتجاه الى دولة الروم وطرق أبواب القسطنطينية طالبين مساعدتها (٢٣٤) ٠

ولقد شجع عمورى على أن يتمسك بموقفه فى ضرورة الاستيلاء على مصر ، أن ظروف البلاد فى ذلك الوقت كانت مهيأة لنجاح فكرته خصوصا وأنه كان يوجد بمصر عناصر مستعدة لتأييد الصليبيين ، ممثلة فى اتباع

---

233. William : Op. Cit., V. II, pp. 360-361.

واذا كان وليم الصورى قد افادنا بأن الغرب لم يقدم شيئا من المعونة لعمورى آنذاك ، فان المصادر العربية ذكرت أن الصليبيين عندما أرسلوا الى الاندلس وصقلية وغيرها لطلب المعونة أمدوهم بالمال والرجال والسلاح (ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٣ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، وأشار ابن خلدون فى تاريخه ، ج ٤، ص ٨٠ الى ذلك بانهم « جاءهم المدد من كل ناحية » لكن الراجح أن المصدر العربى خلط هنا بين الغرب وبين دولة الروم التى أمدت الصليبيين بالنجدة الحقيقية كما سنرى فيما بعد ٠

(٢٣٤) د٠ عاشور : بحوث ودراسات ٠٠٠ ، ص ٢١٩ ، قدرى قلعجى : صلاح الدين الايوبى ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ٠

شاور القدماء بالاضافة الى هؤلاء الذين تصارعوا للحفاظ على الحكم الفاطمى والذين كانوا موجودين داخل قصر الخليفة نفسه (٢٣٥) ٠

ومن حسن حظ الصليبيين أن امبراطور الروم مانويل كومنين لم يكلفهم مشقة تجديد طلب المساعدة منه فقد « كان يقظا مافيه الكفاية للاتفاق الذى قطعه على نفسه » فى العام السابق ، وعليه فقد « أرسل الأسطول الذى وعد به وفقا لمتطلبات المعاهدة التى عقدها مع الملك » ، والتى كانت قد جاءت ـ مطابقة تماما لمقترحات الصليبيين ورغباتهم (٢٣٦).٠

وبمعنى آخر كان امبراطور الروم « لا يزال تواقا لانجاز ما تعهد به فى الاتفاق الذى عقده من قبل مع وليم الصورى فى سبتمبر ١١٦٨ م » (٢٣٧) وعلى ذلك وجد الملك عمورى فى التعاون الذى وعد به الامبراطور مانويل كومنين (٢٣٨) ، ضالته المنشودة ومطلبه الملح ، على عكس ما كان يظن خصوصا بعد موقفه المتسرع فى حملته الرابعة كما أوضحنا من قبل ٠

وهكذا يفهم من كلام وليم الصورى ومن نقل عنه من مراجع أجنبية حديثة ، أن الامبراطور أرسل أسطولا من قبله دون أن يطلب الملك ذلك ، أما ميخائيل السريانى فيعطينا رأيا آخر فى حوليته هو أن الملك عمورى طلب من نسيبه وقريبه امبراطور الروم بعض القوات كى يسير ضد مصر وأن الامبراطور أرسلها له عن طريق البحر (٢٣٩) ٠ واذا كان وليم غير موجودا فى مملكة بيت المقدس ١١٦٩ م فانه عرف تفاصيل الحملة من مصادر وثيقة (٢٤٠) ٠ بينما كان ميخائيل السريانى هو البطريرك اليعقوبى لأنطاكية من ١١٦٦ م حتى ١١٩٩ م (٢٤١) ٠ الا أننا نميل الى الأخذ برأى وليم لأنه كان أكثر معرفة بمشاعر الامبراطور لأنه كان أحد أعضاء البعثة التى تفاوضت معه ١١٦٨ م٠

---

235. J. Prawer : Op. Cit., T. I, p. 442, Stanley Lane-Poole : Op. Cit., p. 103.
236. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 361.
237. Setton : Op. Cit., V. I, p. 556.
238. J. Prawer : Op. Cit., T. I, pp. 442-443.
239. Michel Le Syrien (R.H.C.) Documents Arméniens, T. 1, p. 369.
240. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 369.
241. Grousset : L'Empire du Levant, p. 312.

ومهما كان الأمر فان وليم الصورى أعطانا وصفا تفصيليا للاسطول الذى أرسله امبراطور الروم للصليبيين فى ١٠ يوليو ١١٦٩ م فقال : أنه كان مكونا من مائة وخمسين سفينة منقارية الشكل ذات صفين من المجاديف . وكانت تسمى Galleys وكانت مصممة خصيصا للاستخــدام الحربى . بالاضافة الى ستين مركبا كبيرا مسلحة تسليحا جيدا ، وكانت معدة لحمل الخيول .. وكان الأسطول يحتوى أيضا على عشرة أو عشرين سفينة من الحجم الكبير المسمى Dromones التى كانت مخصصــة لحمل المؤن من كل نوع بكميات كبيرة الى جانب الآلات الحربية (٢٤٢) .

ووضع الامبراطور على رأس ذلك الأسطول ثلاثة من كبار النبلاء هــم grand duke أو Megalducas, Contostephanus وكان على صلة رحم بالامبراطور ، Maurice أو Theodore Maurozumes الذى كانت له عالية لدى الامبراطور الى جانب Alexander of Gravina Conversana, أحد نبلاء أبوليا Apulia ، والذى ورد اسمه من قبل فى السفارة التى ارسلت من قبل مانويل ١١٦٨ م الى ملك بيت المقدس .

وفى أواخر سبتمبر ١١٦٩ م دخل الأسطول الرومى ميناء صور ثم تقدم الى عكا (٢٤٣) . ليكون تحت تصرف ملك بيت المقدس .

والواقع أن ذلك الأسطول كان قد توجه أولا الى قبرس وأرسل جــزء صغير منه فقط الى عكا محملا بالاعانة المالية لقوات الملك ، وطلب من عمورى أن يرسل الى قبرص ليحدد التوقيت الذى يرغب أن يتحرك الأسطول فيه . والحقيقة أننا اذا نظرنا الى تاريخ تحرك أسطول الروم من موانيه

---

242. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 361.

أما ستانلى لين بول وستيفنسون فيذكران أن الروم أرسلوا للصليبيين أسـطولا مكونا من مائتى سفينة

Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 103, Stevenson : Op. Cit., p. 196.

243. William of Tyre : Op. Cit., V. II, pp. 361-362.

الأصلية (٢٤٤) فى ١٠ يوليه ١١٦٩ م حتى دخول ميناء عكا فى أواخــــر سبتمبر من نفس السنة كما أشرنا من قبل نجد أن الأسطول تأخر عن القيام بمهمته حوالى شهرين يقال أن عمورى أعاد فيها المفاوضات من جديد مع الروم وكان مترددا خلالها (٢٤٥) ٠

---

(٢٤٤) يشير رنسيمان أن الاسطول الامبراطورى تحرك من Hellspont

Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 385.

245. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 443, L. Bréhier : Vie et Mort, 339.

هنا يتساءل بروييه هل كان سبب ذلك التردد ناتجا عن اختيار بقعة الهجوم ؟ أم عن برنامج الرحلة ؟؟ هل جاء ذلك التردد نتيجة رغبة عمورى فى التراجع عن الحملة والبحث عن وسيلة للاختفاء ؟ ثم يشير بروييه الى أنه ليس له رد عن تلك الاسئلة ٠ أما عن نتيجة ذلك التأخر فهى أن صلاح‌الدين عرف الاستعدادات الصليبية عن طريق الرسائل المتبادلة بينهم وبين مؤتمن الخلافة (رئيس ديوان) قصر الخليفة والتى وقعت بين يديه ـ كما سبق الذكر ـ وانه استعد لمواجهة الصليبيين وحلفائهم الروم ٠

(J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 443)

وقد حدد لنا رنسيمان تاريخ التخلص من مؤتمن الخلافة بـ ٢٠ أغسطس ١١٦٩م (Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 386).

الهجوم الصليبى الرومى على دمياط ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م

رأينا كيف اجتمعت القوات الرومية والصليبية فى شواطىء بلاد الشام استعدادا للهجوم على مصر التى كانت تمثل فى نظرهم بؤرة الخطر على الوجود الصليبى فى ذلك الوقت ، خصوصا بعد تولى صلاح الدين الأيوبى ـ الذى كان يعشق الجهاد (٢٤٦) ـ الوزارة فى مصر . وبذلك أصبحوا مطوقين من الشمال من ناحية نور الدين ومن الجنوب والغرب من ناحية صلاح الدين .

بدأ الملك عمورى استعداداته لحملته الخامسة على مصر والتى يشير اليها بروييه بأنها كانت « آخر محاولة بدون أمل لتغيير مجريات الأمور »(٢٤٧)

لم يستطع عمورى أن يتخذ قرار الهجوم على مصر فور وصول الأسطول الرومى المرسل اليه من قبرص . لأن حملة ١١٦٨ م كانت قد أحدثت اضطرابا شديدا فى قواته . فقد كانت خسائر الاسبتارية هائلة فى حين ظل الداوية على رفضهم للمشاركة فى أى حملة بالاضافة الى أن البارونات كانت تجربتهم السابقة غير مشجعة بالمرة (٢٤٨) . ولكى يغرى عمورى فرسان الاسبتارية على مساندته فى مشروعه الكبير أصدر مرسوما هاما فى ١١ أكتوبر ١١٦٩م يقضى بمنح الاسبتارية جزءا هاما من ايراد مصر ونسبة ضخمة من دخل أهم المدن المصرية مثل الفسطاط وتنيس ودمياط والمحلة والاسكندرية وقوص

---

(٢٤٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ... ، ص ٢١ . فهو يقول : « كان رحمه الله شديد المواظبة عليه ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف أنه ما أنفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولا درهما الا فى الجهاد أو فى الارفاد ، لصدق وبرفى يمينه . ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا فى آلته ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة » ..

247. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 442.

248. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 385, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 443, Setton : Op. Cit., V. 1, p. 557.

وأطفيح وأسوان والفيوم (٢٤٩) • وهكذا لم يستطع عمورى أن يستدعى الأسطول الرومى الى عكا الا فى آخر سبتمبر •

ويقال أن ميناء عكا لم يستطع استيعاب ذلك الأسطول ، لذلك ظلت بعض القوارب بين نهر النعمان والميناء (٢٥٠) •

هنا يعلق (ستون) على عظمة أسطول الروم آنذاك بقوله : « ان الأسطول والمعدات التى جاءت معه كانت أكثر عظمة مما كان الامبراطور قد تعهد بارساله للصليبيين ، وقد أعاد ذلك القيادة المسيحية على البحر» (٢٥١)

وبعد أن اطمأن عمورى على شئون المملكة ، وذلك بترك قوة من الفرسان لحمايتها خلال فترة غيابه من هجمات نور الدين (٢٥٢) • أمر « كل الجيش الصليبى والرومى » بالاجتماع فى ١٥ أكتوبر ١١٦٩ م فى عسقلان وكان أسطول الروم قد أبحر قبل ذلك بعدة أيام واتجه نحو الأراضى المصرية (٢٥٣)•

وهنا نتوقف قليلا عند عبارة « كل الجيش الصليبى والرومى » التى ذكرها وليم الصورى فنرى فيها ما يؤكد أن الروم شاركوا بقوة برية الى جانب الأسطول البحرى الذى أرسلوه للصليبيين ، وقد أيد ذلك ما ذكره (ستانلى لين بول) من أن الأسطول الذى أرسله الروم للصليبيين ، كانت تعاونه قوة برية لها ثقلها (٢٥٤) •

ويقال أن قائد الأسطول الرومى كان غاضبا أشد الغضب لتأخر تحركهم الى مصر وأنه عرض على عمورى أن ينقل معظم قوات الجيش الصليبى بواسطة سفنه ولكن عرضه قوبل بالرفض • ومن المرجح أن غضب قائد

---

(٢٤٩) د• سعيد عاشور : بحوث ودراسات ••• ص ٢١٩ عن King

250. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 443.
251. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 557.
252. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 362, Setton : Op. Cit., V. 1, p. 557.
هنا يذكر ستيفنسون أن اندفاع الصليبيين حل محله الجبن
Stevenson : Op. Cit., p. 196.
253. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 362.
254. Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 103.

الأسطول كان راجعا الى أن التموين الذى كان قد زوده به الامبراطور كان يكفى فقط لمدة ثلاثة أشهر ، ظنا منه أنها حملة قصيرة ، ولكن لم تلبث الشهور الثلاثة أن قاربت على الانتهاء دون أن يتخذ الملك عمورى أى خطوة ايجابية بالنسبة للحملة المرتقبة (٢٥٥) ٠

وفى ١٦ أكتوبر ١١٦٩ م بدأ الجيش المشترك التحرك من عسقلان ، وبعد مضى حوالى تسعة أيام وصل الجيش البرى الى الفرما فوجد أسطول الروم قد وصل اليها أيضا » وعن طريق المجدفين عبر الجيش الى الشاطىء المواجهة الى تنيس ثم بعد مسيرة يومين وصل الى دمياط وذلك فى ٢٧ أكتوبر (٢٥٦) أوائل صفر ٥٦٥ هـ (٢٥٧) وبدأ الجيش فى حصارها بالفعل ولكنه لم يبدأ الهجوم انتظارا لوصول الأسطول الرومى الذى تأخر وصوله ثلاثة أيام بسبب « هبوب رياح عاتية » ٠ أعاقت حركته بعض الشىء وفى النهاية هدأت الأمواج ووصل الأسطول عند مدخل النهر (٢٥٨) ٠ حيث أعاق تحركه الى الميناء نفسه سلاسل حديدية على جانبيها برجين حصينين (٢٥٩)

---

255. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 386.

256. William of Tyre : Op. Cit., pp. 362-363.

هنا يفصل لنا وليم الحديث عن الرحلة البرية بقوله : أنه لكى لا تسأم قوات المشاه نقدموا على مراحل مستفيدين من الاستراحات الموجودة فى الطريق ، لاخذ شىء من الراحلة ٠ وعند الوصول الى الفرما القديمة فى اليوم التاسع كانوا يرغبون فى اتبـاع الطريق الساحلى ، لكن حادث جديد جعل من الضرورى اتخاذ طريق الداخل الاطول لان بعض الخنادق بين الساحل والمناطق المجاورة للبحر تكسرت بسبب الاندفاعات المتكررة للامواج ، وبذلك أحدثت ممرات خلال الحواجز المواجهة لها لذلك اضطروا للتوغل فى الطريق السهلى الخلفى حيث تكونت فى المنطقة المجاورة للساحل بركة كبيرة غطتها المياه وامتلات بالاسماك التى استخدمت كمصدر هام للتموين ولقد كانت الفرما تقع فى مكان متوسط بين البحر والنهر والصحراء وكانت تبعد ثلاثة أميال عن فـم النيل ٠ أما دمياط فكانت تقع على جانب النهر الاقرب لهم عند التقاء النهر بالبحر ٠

(٢٥٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٣ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٦ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٨٠ ٠

258. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 363.

259. Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 104.

هنا نتساءل عن سبب توجه الصليبيين وحلفائهم تلك المرة الى دمياط بالذات ؟

وللرد على هذا السؤال هناك اجابتين ، احداهما لابن الأثير والأخرى لابن شداد • فابن الأثير يذكر أنهم استعدوا للنزول الى دمياط « ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به ديار مصر » (٢٦٠) • أما ابن شداد فيذكر أنهم أرادوا قصد دمياط « لتمكن القاصد لها من البر والبحر ولعلمهم أنها ان حصلت لهما حصل لهم مغرس قدم يأوون اليه » (٢٦١) •

وقد اصطحب الصليبيون والروم معهم « المنجنيقات والدبابات والجروخ وآلات الحصار وغير ذلك » (٢٦٢) •

هنا يذكر ابن الفرات « نزل الفرنج على دمياط •• فى عالم عظيم لايدرى حصره وكان وصولهم فى ألف ومائة مركب ما بين شينى ومسطح وطريدة » (٢٦٣) والراجح أن ابن الفرات يقصد بالفرنج هنا الصليبيين والروم ، لأنه يعود بعد ذلك فيشير الى المحاصرين لدمياط بأنهم « الفرنج والروم » •

---

(٢٦٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٣ •

(٢٦١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤١ •

(٢٦٢) ابن شداد: المصدر السابق نفس الصفحة، ابن الفرات: تاريخة، م٤ ، جـ١، ص ٨٢ والمنجنيق آلة منآلات الحصار فىالعصور الوسطى يقوم مقام المدفع الحالى، وانكانت قذائفه من الحجارة • أما الدبابة فهى آلة تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه وتقيهم ما يرمون به من فوقهم ، وقد سميت بذلك لانها تدفع فتدب (ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨٠ ، وحاشية للدكتور جمال الدين الشيال محقق نفس الكتاب ، ص ١٨١) • أما الجرخ فهى مأخوذة عن الفارسية والجمع جروخ وهو نوع من القوس الرامى الذى ترمى عنه النشاب أو النفط ••• ويقال للذى يرمى عن قوسه السهام أو النفط (الجرخى) والجمع الجرخية • (حاشية للدكتور الشيال محقق كتاب النوادر السلطانية لابنشداد ، ص ٤٢) •

(٢٦٣) ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ٨٣ • والشينى هى السفينة الحربية الكبيرة • أما الطريدة والجمع طرائد فهى أنواع من المراكب الحربية أكثر شبها بالبرميل الهائل من السفينة ، وكانت تستعمل فى حمل الخيول والفرسان •

وما أن حاصر المهاجمون دمياط حتى دعا حاكم المدينة « شمس الخواص ياروقتاش ــ صلاح الدين لنجدته وأقفل مدخـــل الميناء بواسطة الأواصر الحديدية الثقيلة » (٢٦٤) وكان أهالى دمياط فى بادىء الأمر قد أصابهم « اليأس والبؤس » لكن صلاح الدين لم يلبث أن أرسل اليهم ابن أخيه تقى الدين وخاله شهاب الدين (٢٦٥) ، كما أرسل القوات فى النيل « وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر » (٢٦٦) ٠

أما ابن شداد فيقول أن السلطان صلاح الدين أنفذ الى دمياط « وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه وعـــز المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات » (٢٦٧) ٠

كما تابع صلاح الدين فى نفس الوقت رسله الى نور الدين يشـــكو ما هو فيه من المخاوف وأنه « ان تخلف عن دمياط ملكها الفرنج وان ســار اليها خلفه المصريون من مخلفيه ومخلفى عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه » (٢٦٨) ٠

والواقع أن صلاح الدين كان قد أسرع عندما علم بهجوم الصليبيين الى تحصين بلبيس والقاهرة والاسكندرية ظنا منه أن الحملة الصليبية فى تلك المرة ستحذو حذو الحملات السابقة فقصد القاهرة عن طريق الشرقية ٠ فلما

---

264. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 444,

ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٨٠

(٢٦٥) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٦ ، ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٤١ ٠

(٢٦٦) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٣ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ ٠ هنا يذكر ابن خلدون فى تاريخه ، ج ٤ ، ص ٨٠ أنه أمدهم بالعساكر والاموال مع بهاء الدين قراقوش وأمراء الغز ٠ أما وليم الصورى فقد أرخ لتلك النقطة بقوله أنه قدم جيش من الاتراك من مصر العليا ، ضخم العدد ، وسفن محملة بالرجال المسلحين ٠

(William of Tyre : V. 11, p. 364)

(٢٦٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ٠٠٠ ، ص ٤٣ ٠

(٢٦٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٣ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨١ ٠

اتجهت الحملة الى دمياط ، وجد صلاح الدين نفسه فى موقف حــرج لا سيما وأنه ظل يخشى باستمرار خطر مؤامرة أو ثورة ضده فى الداخل بتحريض من الخليفة الفاطمى ورجاله ٠ ومع ذلك فانه لم ييأس ولم يستسلم وأرسل يطلب النجدة من نور الدين (٢٦٩) ٠

كان رد نور الدين حاسما قويا سواء فى داخل بلاد الشام أو فى الجبهة المصرية ، فقد حشد القوات وكانت « كلما تجهزت طائفة سيرها » ، فســارت القوات الى صلاح الدين فى مصر « يتلو بعضها بعضا » ٠ وفى نفس الوقت شدد نور الدين هجماته على الصليبيين فى بلاد الشام وأغار على بلادهم ونهبها واستباحها ، « ووصلت الغارات الى ما لم تكن تبلغه لخلو البــلاد من ممانع » (٢٧٠) ٠

والواقع أن بعد نظر صلاح الدين وحسن تصرفه وسرعة تحركه ، جعل دمياط مدينة جيدة التحصين فى وقت قصير ، وقد ساعد على ذلك موقعها نفسه الذى سهل امدادها بالرجال والسلاح والمؤن عن طريق استخدام نهر النيل ، بالاضافة الى أن الأواصر الحديدية الثقيلة أعاقت دخول الأسطول اليها من ناحية البحر فقد كانت تقف كحاجز يعوق اجتياز الجزء العلوى من النهر وشكلت عائقا ضخما للقوات المهاجمة (٢٧١) ٠

هنا يجدر بنا أن نقول أنه يكفى دمياط بل مصر كلها فخرا أن جيوش الحليفين الكبيرين ، الصليبيين والروم ، بكل ما جهزوا وأعدوا وخططـــوا ودبروا ، وجدوا أنفسهم منذ اللحظة الأولى فى شدة الحاجة الى اعادة النظر فى خططهم العسكرية ولا عبرة هنا مما قيل من أنه كان من الســهل اليسير الاستيلاء على دمياط ، اذا كان المهاجمين قد سارعوا بالهجوم عليها

---

(٢٦٩) د٠ سعيد عاشور : بحوث ودراسات ٠٠٠ ، ص ٢٢٠ ، د٠ عبد الرحمن الرافعى ، د٠ سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٩٥ ٠

(٢٧٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ ٠

271. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 364, Setton : Op. Cit., V. 1, p. 557.

منذ اللحظة الأولى دون تأخر (٢٧٢) ٠

وربما كان أسطول الروم هو الأكثر تلهفا على المسارعة بالهجوم لأن امداداته ومؤنه كانت قد قاربت على النفاذ (٢٧٣) ٠ أما الصليبيين فكان الهجوم السريع ، أبعد ما يكون عن تفكيرهم فقد ذكر لنا وليم الصورى أن جيشهم بدا من الوهلة الأولى يشعر باليأس والقنوط ، فقد أصبحت المدينة طافية فى مياه الفيضان ٠ وبدا بوضوح أنه بدون مساعدة آلات ومعدات الحرب لا يمكن الاستيلاء عليها ، كما أنه بدون وصول قوات مسيحية اضافية كان من غير الممكن أن تستطيع قواتهم الصمود للهجوم الأول (٢٧٤) ٠

والراجح أن فكرة المهاجمين عن دمياط كانت غير حقيقية عن مدى حصانتها ، بالاضافة الى الاستعدادات الغاية فى السرعة التى زودها بها صلاح الدين ٠

وبذلك ساد من جديد جو من التردد بين المهاجمين وكان ذلك هو سبب قول (بروييه) أن « أول عملية عسكرية لم تظهر الا بعد تردد » (٢٧٥) ٠ وقد

---

272. William of Tyre : Ibid, V. 11, p. 365, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 444, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 387.

هنا يرجع وليم الصورى التأخر فى مهاجمة دمياط الى وسوسة الشيطان فهو يقول أنه عند وصول قواتهم الى المدينة كانت خالية ولم يكن بها سوى أهلها الاصليين «الذين كانوا ضعفاء مسالمين ، جاهلين كلية بفن الحرب فلو أن المسيحيين هاجموا المدينة بشجاعة فى الحال ، لسقطت فى الهجوم الاول ولكن المحاصرين أخذوا مهلة ، زاد عددهم خلالها زيادة كبيرة بواسطة التعزيزات بالفرسان الشجعان الاقوياء ، وكانت النتيجة أنهم أصبحوا قادرين على مقاومة هجماتنا داخل وخارج المدينة » ٠ والواقع أن وليم الصورى نسى أو تناسى هنا أن الملك كان مترددا منذ البداية سواء عند الخروج من مملكته أو عند الوصول الى دمياط وأنه لم يبدأ بالهجوم الا بعد وصول الاسطول الرومى الذى أخرته الرياح القوية التى قامت حينئذ ، والتى هدأت فيما بعد ربما بسبب سقوط الامطار الغزيرة كما سنرى فيما يلى ٠

273. Stenvenson : Op. Cit., p. 196, Runciman : Ibid, V. 2, p. 387.

274. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 364.

والراجح أن مياه الفيضان هنا كانت مياه الامطار الغزيرة التى سيأتى ذكرها والتى اغرقت كل شىء مع جيش عمورى ٠

275. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 444.

انتهت تلك الفترة بالوصول الى حل هو ضرورة اقامة بعض الأبراج العالية حول المدينة لتساعد فى عملية الحصار . وبالفعل اختير العمال المناسبين الذين زودوا بالمواد اللازمة « وبالمزيد من النفقات والعمل » أمكن اقامة برج عالى مكون من سبعة طوابق يمكن مشاهدة المدينة بأكملها من قمته ، هذا بالاضافة الى اقامة العديد من الآلات المختلفة الخاصة بالحصار (٢٧٦) .

ولكن يبدو أن المهاجمين لم تكن تعوزهم المعدات والقوات الاضافية فقط بل كان ينقصهم أيضا البراعة والذكاء الحربى المطلوب فى مثل تلك المواقف . وذلك بشهادة مؤرخيهم أنفسهم . فقد كتب وليم الصورى « ان قواتنا أظهرت قلة براعة وذكاء عن المعتاد .. ، فقد أمر القادة أن يوضع أحد الأبراج الجديدة بجوار سور المدينة فى مكان غاية فى الحصانة ، فى الوقت الذى كان هناك أماكن عديدة من السور أقل تحصينا ، وكان من الممكن أن تكون أسهل فى السقوط ، لولا وضع البرج المتحرك فى البقعة الأكثر تحصينا ، وفى مكان ملىء بالصعوبات عن أى مكان اخر .. وعلى ذلك كان التخريب أكثر ليس على أهالى البلد ومساكنهم بل على كنيسة الأم المقدسة فقط The Holy Mother of God التى كانت ملاصقة للسور » (٢٧٧) أما ستيفنسون فقد أشار الى « أن اللاتين أظهروا نشاطا غير كافيا » فى ذلك الوقت (٢٧٨) .

فاذا أضفنا الى التردد وعدم البراعة فى فن القتال عنصرا جديدا تمثل فى نقص المؤن بين رجال الأسطول الرومى ، والذى سبق أن أشرنا الى أنه كان مجهزا بمؤن تكفيه لمدة ثلاثة أشهر فقط ، وأنها انتهت بالفعل . لذلك بدأ الروم الذين قدموا فى اعداد ضخمة مع الأسطول يعانون من المجاعة ونقص المؤن (٢٧٩) . وعلى ذلك بدأ الروم يتساقطون من الجوع ، دون أن يوفر لهم حلفاؤهم الصليبيين أى مصدر للطعام على الساحل (٢٨٠) .

---

276. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 364.
277. William of Tyre : Ibid, V. II, p. 365.
278. Stevenson : Op. Cit., p. 196.
279. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 366 Stevenson : Op. Cit., p. 196.
280. Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 105.

هنا لا يملك وليم الصورى الا أن يدافع عن اتباع الملك من الصليبيين فيعطى تبريرا لعدم تقديمهم المــؤن لحلفــائهم الروم بقوله أنه « كان لدى الصليبيين مصدرا كافيا من الخبز والعديد من المواد الغذائية الأخرى ، ولكن اليقظة للمستقبل ، جعلتهم يقتصدون مما لديهم رغم قلته ، لأنهم لو أسرفوا فى اقتسام تلك المؤن مع هؤلاء المعدمين – يقصد الروم – فسوف يكون ذلك خطرا عليهم ، لأنهم سيصبحون حتما يوما ما فى شدة الحاجة ، وأكثر من ذلك انهم كانوا غير متأكدين من مدة اقامتهم على دمياط ٠٠ » (٢٨١) وقد عبـر (برويبه) عن ذلك بصورة أكثر ايجاز عندما قال أن « الخيمة اللاتينية رفضت اقتسام مؤنها مع الحلفاء » (٢٨٢) ٠

ووسط ذلك الجو المشحون بعدم الاخلاص والجبن والفرقة بين الروم والصليبيين (٢٨٣) ، ظهر عامل جديد ليوسع شقة الخلاف بين الطرفين بل ليضرب بعرى التحالف الصليبى الرومى عرض الحائط فقد هطلت الأمطـار بشدة بسبب هبوب الرياح العاتية فأضافت عاملا جديدا من عوامل القــلق والازعاج (٢٨٤) ، وأغرقت جميع خيام الصليبيين ، ذلك أنهم « أصبحوا غير قادرين على منع المطر من الانسياب داخل خيامهم بأية وسيلة ، وحتى الأغنياء الذين كانوا فى حالة أحسن ابتلت خيامهم بوابل الأمطار المفاجئة ٠٠ وكان كل ما استطاعوا عمله هو حفر بعض الحفر حول خيامهم كى تنجرف اليها مياه الأمطار ، وبذلك حموا أنفسهم حماية بسيطة » (٢٨٥) ٠

واذا كان ذلك هو وضع الجيش الصليبى الرومى فماذا كان وضــع المصريين عامة وأهالى دمياط خاصة ؟

كان صلاح الدين يرسل من القاهرة المدد بعد الآخـر ورغم تشــديد المهاجمين للحصار الا أن الأهالى صبروا « وصابروا وتآزروا ، وأمســوا على القتال وأصبحوا وتاجروا الله وربحوا ، وهددوا بنيان الكفر المرصوص

---

281. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 366.
282. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 444.
283. William : Op. Cit., V. 11, p. 365.
284. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 557.
285. William : Op. Cit., V. 11, p. 366.

المرصوف وأهلكوا بالعشرات الألوف ٠٠ » (٢٨٦) ٠

وقد فطن المصريون الى خطة ناجحة أسرعت بوضع الفصل النهـــائى وانزال الستار على تلك الحملة ٠ ذلك أنهم استفادوا من سرعة جريان مياه النيل ، بسبب هبوب رياح جنوبية قوية فأخذوا قارب ذى حجم عادى وملؤه حتى نهايته بالأخشاب الجافة والقار وقذفوا عليه بعض المواد المشتعلة فاشتعل على صفحة النهر ، وحملته الأمواج الشديدة فى اتجاه الأسطول الراسى عند مصب النهر فى البحر المتوسط ، عندئذ اشتعلت النار بسرعة وامتدت الى المواد القابلة للاشتعال التى كان القارب محملا بها ٠ ثم أبحر القارب المشتعل فى اتجاه الأسطول وأمسك فى سفنه المتراصة واشـــتعلت النار به ٠ وهكذا « احترقت ست سفن منقارية الشكل وهى المسماه Galleys ثم انتشرت النار فى كل الأسطول فى ضراوة » (٢٨٧) ٠

والحقيقة أننا نلمح من خلال عرض وليم الصورى لأحداث ذلك الهجوم وتطوراته (٢٨٨) ، عدة نقاط هامة منها أولا : تحامله الشديد على المصريين الذين يطلق عليهم (الكفار) فى أكثر من موضع ، بل وتحامله أيضا على الروم أنفسهم من خلال سطور روايته فهو يقول أن المحاصرين كانوا يهاجمون أحيانا معسكر الروم ويشنون عليه هجوما غير متوقعا ، وذلك راجع الى ما قد يكونوا سمعوه من أن القوات الرومية أقل قوة من قواتنا ٠٠ » واذا كان وليم أحيانا يعزى ذلك الى أنه قد يكون نوعا من الاشاعات ، الا أن كل اشاعة لها جانب من الحقيقية ٠

ثانيا : اعترافه بأن المحاصرين ـ أى المصريين ـ « رغم أنهم كـانوا

---

(٢٨٦) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٦ ـ ٨٧ ٠

287. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 367.

هنا أيضا يدافع وليم الصورى عن الملك بقوله أن ما حدث لم يكن مرجعه الى عدم يقظة الملك لانه عندما اكتشف النار ـ لم ينتظر حتى يرتدى حذاءه ـ امتطى صهوة جواده بسرعة وأيقظ البحارة ٠ وعن طريق الصيحات المفزعة دعاهم الى اخماد النار ٠ وكل ما نجحوا فيه هو فصل السفن عن بعضها فقلت ضراوة اشتعال النار ٠ ثم اطفأت السفن المشتعلة بواسطة مياه النهر ٠ ولذلك عقب وليم على ذلك بتقديم شكره للنهر الذي كان فى متناول اليد ٠

288. William of Tyre : Ibid, V. II, pp. 367-368.

محجوزين داخل المدينة تحت وطأة الحصار ـ الا أنهم كانوا مصدر رعب كبير لخصومهم ، أكثر مما كان المسيحيون بالنسبة لهم » ٠

ويكفى المصريين تلك الشهادة من وليم الصورى ، والحقيقة أنهم جعلوا كل ثقتهم وآمالهم فى الله ودافعوا باخلاص وصدق عن حقهم فكان الله معهم يعضدهم بنصره ويذلل لهم كل الصعاب ٠

والواقع أن وليم الصورى يؤيدنا فى هذا الرأى عندما قال أن الحملة « كانت ضد ارادة السيد المسيح وأن وجهه قد أدير عنا فى غضب » (٢٨٩)٠

وبمرور الوقت وتأزم الموقف قرر قائد أسطول الروم ضرورة القيام بهجوم سريع على دمياط مهما كان فى الأمر من مخاطرة (٢٩٠) ، وبالرغم من أنه أرسل فى بادىء الأمر ليكون تحت امرة عمورى (٢٩١) ٠ هنا بدأ قـــادة الجيش الصليبى يتهامسون فيما بينهم ـ وهم الذين كانوا باستمرار يشكون فى نوايا الروم ـ بأن حماس قائد أسطول الروم يرجع الى أنه كان يرغب فى أن يجعل من دمياط جزءا من غنائم الامبراطورية (٢٩٢) ٠

وعليه فقبل أن ينفرد قائد الأسطول بهجومه على دمياط وصلته أخبـار مفاوضات الملك عمورى من أجل الصلح والانسحاب (٢٩٣) ٠

وثمة رأى هنا لميخائيل السريانى يجعل عنصر الخيانة كان موجودا أصلا لدى الروم وأنهم منذ وصولهم الى مصر ، كانوا مدفوعين بقدرتهم وقوة معداتهم الى مخادعة الملك والاستيلاء على تلك البقعة لحسابهم الخاص » الا أن بعض الأشخاص حذروا الملك فى الوقت المناسب من نوايا الروم (٢٩٤)٠

289. William : Ibid, V. II, p. 368.
290. Runcimann : Op. Cit., V. 2, p. 387.
291. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 557.
292. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 387.
293. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 557.
294. Michel Le Syrien : (R.H.C.), Documents Arméniens, T. I, pp. 369-370.

هنا يخطىء ميخائيل حين يشير الى أن بعض الاشخاص حذروا الامير (Ce Prince) ولم يشر اليه على أنه الملك ٠

لكن ما هى الأسباب الحقيقية للانسحاب ؟ وما هى ملابساته ؟ هنا نجد الاجابات مختلفة للرد على هذا التساؤل ، بعضها يمثل وجهة نظر المؤرخين الصليبيين والغربيين والبعض الآخر يمثل وجهة نظر المؤرخين المسلمين ٠

أما الجانب الأول وعلى رأسهم وليم الصورى فنراه يرجع ذلك الى أنه كان من الحكمة أن تعود الحملة الى بلاده بدلا من التوغل فى مصر مع المجاعة أو الهلاك بسيوف المسلمين (٢٩٥) ٠

أما برويبه فيقول أن الصليبيين كانوا يخشون أن يجدوا أنفسهم بين جيشين من الأعداء : جيش المدافعين عن دمياط من ناحية ، وجيش النجدة القادم من الجنوب من ناحية أخرى (٢٩٦) ٠ بينما يذكر (ستانلى لين بول) « أن الجنود البائسين ، النصف موتى من الجوع والنصف غرقى توسلوا أن يعودوا الى بلادهم » (٢٩٧) ٠ أما (بريبيه) فيعزى ذلك الى سوء التفاهم بين كل من قائد أسطول الروم وبين الملك عمورى ، مما أعاق سير العمليات الحربية (٢٩٨) ٠

أما المؤرخون المسلمون فيذكر بعضهم أن رحيلهم جاء على أثر توالى ارسال القوات من بلاد الشام الى مصر وتشديدهم الهجوم على الصليبيين والروم ، وفى نفس الوقت انزال نور الدين أشد الضرر بممتلكاتهم فى بلاد الشام ونهبها وتخريبها (٢٩٩) ٠ بل ان بعضهم يجعل شدة هجمات نور الدين على ممتلكاتهم الشامية هو السبب المباشر فى رحيلهم (٣٠٠) ٠ بينما جعل

---

295. William of Tyre : Op. Cit., V II, p. 368.

وهو هنا يشير الى المسلمين بالكفار كما عهدناه دائما فى تحيزه لاخوانه فى الدين ٠

296. J. Prawer : Op. Cit., T. I, p. 444.
297. Stanley Lane Poote : Op. Cit., p. 105.
298. Bréhier : Vie et Mort..., p. 339.

(٢٩٩) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٤ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨١ ٠

(٣٠٠) أبو الفدا : المختصر ٠٠٠ ، جـ ٣ ، دار المعرفة ، بيروت ، ص ٤٨ ، الذهبى : دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ٧٨ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ١١٩ ٠

بعضهم انتشار الوباء والمرض فيهم هو سبب الرحيل . فقد ذكر البندارى «دب فيهم الفناء وهب عليهم البلاء » (٣٠١) أما ابن أيبك فيقول « وقع فيهم وباء ومرض ، حتى لا عاد منهم من يطيق يقف على قدميه » (٣٠٢) . أما ابن شداد فيذكر أنه « بان للافرنج الخسران وظهر على الكفر الايمان ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم ويسلمون بنفوسهم » (٣٠٣) .

هنا أيضا يعطينا ميخائيل السريانى رأيا فريدا عن شروط الصلح الذى وقع بين صلاح الدين من ناحية والملك الصليبى من ناحية أخرى ، فقد ذكر أن « الضريبة التى أجبر المصريون على تقديمها للملك ، دفعت على شكل مبلغ كبير من الذهب ، وأنهم تعهدوا بتقديم نفس المبلغ فى المستقبل ، بل وتعهدوا لاثبات حسن نواياهم أن يقدموا له بعض الرهائن ، ويرجع ذلك الى أن يوسف (صلاح الدين) لم يكن آنذاك فى وضع يسمح له بدفع الفرنج » (٣٠٤) .

والحقيقة اننا نلمح فى ثنايا السطور التى دونها ميخائيل السريانى أنه يجعل صلاح الدين فى شكل المتلهف على عقد تلك المعاهدة وأنه لم يكن بوسعه الصمود لهم . ولكن واقع الأمر كان غير ذلك تماما لأن الصليبيين هم الذين كانوا تواقين لعقد الصلح والعودة السريعة للاسباب التى أشرنا اليها من قبل ، وربما طلبوا ذلك المبلغ الذى دفع لهم كى يستطيعوا أن يشتروا بعض المؤن ، كى يتقوا بها هم وحلفائهم الروم ، وبذلك يستطيعوا أن يبدأوا رحلة العودة بعد أن أضعفهم الجوع والمرض .

وبالاضافة الى ذلك فان بعض المؤرخين الغربيين المحدثين ذكروا فقط أنه اتفق على أن تدفع دمياط فدية للصليبيين قبل أن يرحلوا (٣٠٥) . ومن المرجح أنهم نقلوا رواياتهم عن مصادر أخرى غير ميخائيل السريانى .

---

(٣٠١) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ١١٧ .

(٣٠٢) ابن ايبك الداودارى : كنز الدرر ... ، جـ ٧ ، ص ٤١ .

(٣٠٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ... ، ص ٤٣ .

304. Michel Le Syrien (R.H.C.), Documents Arméniens, T. 1, p. 370.

305. J. Prawer : Op. Cit., T. I, p. 444, Runiciman : Op. Cit., V. 2, p. 387.

والحقيقة أنه تم بالفعل توقيع معاهدة للسلام والصلح بين الجانبين الصليبى والمصرى ، ووافق الروم على شروطها ، وأعلن السلام وبدأ الجميع يتحركون بحرية حتى أن وليم الصورى ذكر لنا « أن الجانبين استطاعا بحرية أن يتاجرا مع بعضهما البعض ، وأعطى السماح للجميع ليبيعوا ويشتروا أو يتبادلوا كما يريدون » (٣٠٦) ٠

بينما ذكر (ستانلى لين بول) أن السكندريين الذين عرفوا بالكرم وبأنهم عمليين أكثر فتحوا أسواقهم للغزاة الذين كانوا يعانون من المجاعة(٣٠٧) ولا ندرى هل كان يقصد هنا أهل الاسكندرية أم أهل دمياط ، خصوصا وأن الحديث هنا عن دمياط ٠ ومما يرجح أن تكون المقصودة هى مدينة دمياط ما ذكره (ستون) من أنه سمح للمسيحيين بالدخول الى دمياط والمتاجرة كيفما شاءوا (٣٠٨) ٠

والحقيقة أن حصار الصليبيين والروم لدمياط استمر حوالى شهرين من نهاية أكتوبر حتى نهاية ديسمبر ١١٦٩ م كما دونت المصادر والمراجع الأجنبية (٣٠٩) ٠ أما المصادر العربية فبعضها ذكر مدة الحصار باحصاء عدد أيامه ، وبعضها الآخر دونها بالتاريخ الهجرى ٠ فمثلا الغالبية العظمى من المصادر العربية ذكرت أن الحصار استمر خمسين يوما (٣١٠) ٠ فى

---

306. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 368.

هنا يذكر وليم أن ذلك استمر لمدة ثلاثة أيام وأن المسيحيين استخدموا السوق نفسه مع المسلمين الذين يصر باستمرار على نعتهم (بالكفرة) ٠ ومما يجدر ذكره أن وليم الصورى لم يصرح لنا بشىء من تلك الشروط وربما يرجع ذلك الى أنه لم يكن لديه بيان وافى عنها مما جمعه من معلومات ٠

307. Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 105.

308. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 558.

هنا يعطينا رنسيمان تفسيرا له وجاهته عن سبب اقدام الملك عمورى على عقد الصلح مع صلاح الدين ، أنه رغب فى « أن تحرره صداقته لصلاح الدين من نور الدين الذى كانت علاقاته معه تتسم بشىء من قلة المودة ٠

309. William of Tyre : Op. Cit., V. II, pp. 363, 368, L. Bréhier · Vie et Mort..., p. 340.

(٣١٠) ابن الاثير : الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، الباهر ، ص ١٤٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨٢ ، أبو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ، دار المعرفة لبنان ، ص ٤٨ ، الذهبى : دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ٧٨ ، اليافعى : مرآة الجنان

=

حين أشارت بعضها الى أنه دام احدى وخمسين يوما (٣١١) بينما ذكر البعض الآخر أنه استمر ثلاثة وخمسين يوما (٣١٢) ٠ كذلك ذكرت بعض تلك المصادر أن الحصار بدأ فى مستهل صفر وانتهى فى الحادى والعشرين من ربيع الأول ٥٦٥ هـ (٣١٣) ٠ أو « لتسع بقين من ربيع الأول » سنة ٥٦٥ هـ (٣١٤)٠

وهكذا رحل الصليبيون والروم خائبين خاسرين « وحرقت مناجيقهم ونهبت آلاتهم وقتل منهم خلق عظيم » (٣١٥) ٠

ولقد كانت تلك النتيجة دافعا لكثير من مؤرخى الغرب الى اعتبارها « كارثة » (٣١٦) أو الى القول بأن تلك الحملة « انتهت نهاية مخزية شائنة » (٣١٧) وهكذا توج الفشل ذلك المجهود الحربى الكبير الذى قام به الصليبيون والروم ضد مصر فى ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م ٠

ويقال أنه عند عودة الصليبيين الى بلادهم وجدوها خاوية خربة وأهلها بين قتلى وأسرى فانطبق عليهم المثل القائل : « خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين » (٣١٨) ٠

=

وعبرة اليقظان ، جـ ٣ ، ص ٣٧٨ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، جـ ١ ، ص ٨٥ ، ابن خلدون :تاريخه ، جـ ٤ ، ص ٨٠ ٠

(٣١١) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٧ ٠

(٣١٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٨٢ ٠

(٣١٣) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٦ ــ ٨٧ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٨٠ ــ ١٨١ ، ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٤١ ٠

(٣١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨٣ ٠

(٣١٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٣ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ جـ ١، ص ٨٥ ٠ هنا يذكر لنا وليم الصورى ومن أخذ عنه مثل رنسيمان أنهم هم الذين أحرقوا بأنفسهم آلاتهم الحربية وحطموها كى لا تقع فى أيدى المسلمين وأن ذلك كان فى ١٣ ديسمبر ١١٦٩ م ٠
William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 368, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 388.

(٣١٦) على سبيل المثال لا الحصر :
Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 105, Cam. Med. Hist., V. IV, Part, 1, p. 236.

317. Stevenson : Op. Cit., p. 196.

(٣١٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٤ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ٠

وهنا يتبادر للذهن سؤال هو : ماذا كان مصير الحملة الصليبية الرومية المشتركة على مصر بعد عقد الصلح مع صلاح الدين ؟

وللاجابة عن هذا السؤال يجب علينا أن نبرز نقطتين ٠ الأولى هى طبيعة العلاقة بين القوات الصليبية والقوات الرومية آنذاك ٠ والثانية عن رحلة العودة لكل من الطرفين ٠

أما النقطة الأولى فاننا نقرأ عن تأنيب الطرفين بعضهما لبعض (٣١٩)٠ وربما كان الروم أكثر تأنيبا للصليبيين بسبب تأخرهم المستمر حتى تسببوا فى النهاية فى نفاذ مؤنهم وغير ذلك من المواقف الحرجة التى تعرضوا لها ، بل ان كل منهما كان يشك فى الآخر ، فالصليبيين فسروا رغبة قائد أسطول الروم الملحة فى الاسراع بالهجوم بأنة كان يريد كسبا لامبراطوريته فقط ، وفى نفس الوقت تهامست القوات الرومية بخيانة الملك عمورى للقضية التى قدموا من أجلها وأنه دخل فى مفاوضات مع المسلمين من أجل الصلح ٠

وبالنسبة للنقطة الثانية ، فقد رجع الصليبيون بخطوات مكرهة من حيث أتوا ، سالكين نفس الطريق الذى قدموا منه ، فوصلوا عسقلان فى ٢١ ديسمبر ثم وصلوا الى عكا عشية عيد ميلاد السيد المسيح عليه السلام (٣٢٠) ٠ أما فيما يخص القوات الرومية فاننا نعود مرة ثانية لنقرأ رأيا ينفرد به ميخائيل السريانى يشير فيه الى « أن ملك القدس عاد الى بلاده وترك القوات الرومية وأنها عندما لم تستطع الاستيلاء علىأى أراضى رحلوا عن طريق البحر» (٣٢١) ونحن نستبعد أن تكون القوات الرومية قد تخلفت فى مصر بعد رجوع الملك عمورى لكى تستولى على أى أراضى خصوصا وأن تلك القوات كانت فى حالة يرثى لها من الضعف كما أسلفنا ٠

والواقع أن القوات الرومية أبحرت عائدة فى حالة من الاضـــــطراب

---

319. Stevenson : Op. Cit., p. 196, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 388, The New Encyclopaedia Britannica, V. 5, (1768), p. 302.
320. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 368.
321. Michel Le Syrien : (R.H.C.), Documents Arméniens, T. 1, p. 370.

والفوضى الشديدة (٣٢٢) · « وبدأت رحلة العـــودة فى صعوبة ومشـــقة بالغة » (٣٢٣) · والراجح أن ذلك كان راجعا بالطبع الى سوء حالتهم الصحية الى جانب انخفاض روحهم المعنوية أيضا · وفجأة هبت ريح عاتية أدت الى تحطيم غالبية قطع الأسطول الباقية · وقذفت بحطامها على الشاطىء « وهكذا غرق كل شىء تقريبا » (٣٢٤) · وراح ضحية تلك العاصفة أعدادا كبيـرة من الروم (٣٢٥) ·

وهكذا جاء تعليق (لين بول) أصدق ما يكون على ما لحق الأسـطول الرومى من ضرر فى ذلك الوقت حين قال : « ألقيت جثث موتى الروم عـلى الشاطىء الذى قدموا من أجل الاستيلاء عليه » (٣٢٦) ·

هنا يحاول وليم الصورى أن يفلسف لنا حقيقة موقف قوات الروم ، ومدى مسؤوليتها عن النتيجة النهائية لتلك الحملة · فيقول أنه بالرغم من عدم تواجده بالمملكة معظم سنة ١١٦٩ م الا أنه بمجرد عودته سأل الملك وبعض رجال المملكة البارزين عن سبب النتيجة المؤلمة لتلك الحملة الكبيرة التى وجهت لأداء مهمتها تحت امرة عدد من الأمراء المشهورين وأنه ظل يجمـع التقارير المختلفة المستفيضة عن هذا الموضوع كى يكشف حقيقة الأمر ·

وكل ما توصل اليه وليم فى النهاية هو « أن مبعوثى الامبراطور بذلوا كل الجهود الممكنة لانجاز المهمة الموكلة اليهم لكنهم أجبروا على العودة دون احراز النجاح ، عادوا حزانا القلب ، مروعين بمنافسة القدر · لأنهم خافوا أن امبراطورهم المعظم سوف يتهمهم بجانب ترك مهمتهم بدون اذن ، بأنهم سبب النتيجة المؤلمة للحملة » · ثم يعود وليم فى موضع آخر فيؤكد أن الروم لايمكن أن يخرجوا بدون لوم من هذا الحادث · فقد وعد الامبراطور وعدا أكيدا بارسال المال الكافى لتأييد الجيش العظيم ، ولكن الأحداث أثبتت أن وعود

---

322. Bréhier : Vie et Mort..., p. 340.
323. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 369.
324. William of Tyre : Ibid., V. II, p. 369.
325. Michel Le Syrien : (R.H.C.), Documents Arméniens, T. 1, p. 370.
326. Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 105.

كانت زائفة · فمنذ اللحظة التى ذهب فيها مندوبوه الرئيسيين الى مصر ، كان المفروض أن يمدوا حلفائهم من السخاء الامبراطورى ، الا انهم بدأوا هم أنفسهم يعانون ضغط الحاجة » (٣٢٧) ·

والواقع أنه بقدر ما كشفت حملة الصليبيين والروم على دمياط ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩ م من فرقة وتنافر فى الاتجاهات بين الحليفين ، بقدر ما أبرزت مدى الترابط بين المسلمين فى الشرق ، ولو فى ذلك الوقت على الأقل ، فقد تناسى الجميع الى حد ما خلافاتهم المذهبية بين الشيعة والسنة وجعلوا الدفاع عن الاسلام هو هدفهم الاسمى · فهذا نور الدين لم يبخل بارسال كل ما من شانه أن يعلى كلمة الاسلام والمسلمين الى مصر ، دون النظر الى وضع مصر آنذاك ضمن دائرة الخلافة الفاطمية الشيعية · كما أنه يجب علينا أن ننوه هنا بالدور المرموق والجهد الايجابى الكبير الذى بذله صلاح الدين فى صد تلك الحملة مما كان دافعا لكثير من شعراء ذلك العصر على مدحه والاشادة بجهده البارز (٣٢٨) ·

ويعضد رأينا فى أهمية القيادة المحنكة ما ذكره الدكتور حامد غنيم حين عقد مقارنة جميلة ومعبرة جدا بين صورتين لمصر ، صورة سجلتها أحداث شهر صفر سنة ٥٦٤ هـ ، والصورة الأخرى سجلتها أحداث شهرى صفر وربيع الأول من السنة التالية · ففى الصورة الأولى هوجمت مصر وانتهكت حاضرتها ، أما فى الثانية فقد صمدت دمياط ، وأرغمت الغزاه على التقهقر دون أن يحققوا شيئا من مخططاتهم ، والفارق بين الحالتين أمر واحد هو تغيير القيادة ، ففى سنة ٥٦٤ كان شاور الذى كانت تحكمه مصالحه الشخصية هو الذى يقود مصر ، وفى سنة ٥٦٥ هـ كان القائد هو

---

327. William of Tyre : Op. Cit., V. II, pp. 369-370.

(٣٢٨) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٨٢ · على سبيل المثال لا الحصر :

رجا الكلب ملك الروم اذ ذاك فتحها
فخاف فأم الملك والروم هابل
هنيت صونك دمياط التى اجتمعت
لها الفرنج فما حلو ولا ربطوا

انظر الملحق رقم (٥) ·

صلاح الدين بما يمثله من فكرة المقاومة الاسلامية ضد الصليبيين (٣٢٩) ٠

بل ان الخليفة العاضد الفاطمى نفسه جعل كل امكانياته المالية والعسكرية مسخرة تحت تصرف صلاح الدين كى يتمكن من صد العدوان الصليبى الرومى عن مصر ٠ وقد أشاد صلاح الدين نفسه بكرم وسخاء الخليفة حين قال : « ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل الى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها » (٣٣٠) ٠

بل ان انتصار صلاح الدين والمصريين على الصليبيين والروم أثلج صدر نور الدين وجعله يسرع بارسال تهنئة غاية فى قمة التعبير اللغوى ، تعبر عما يجيش فى صدره آنذاك بعد ذلك « الظفر الذى أضحك سن الايمان » (٣٣١) ٠

والحقيقة أن هزيمة التحالف الصليبى الرومى عند مدينة دمياط يعتبر باكورة النتائج الايجابية التى سجلها التاريخ للجبهة الاسلامية نتيجة لتحمل مصر لأعباء الدور الذى كان من المحتم أن تقوم به فى حركة المقاومة الاسلامية ضد الصليبيين (٣٣٢) ٠

وبتعبير (ستون) كان اخفاق الحملة الصليبية الرومية فى ١١٦٩ م / ٥٦٥ هـ « نقطة فاصلة فى تاريخ الشرق » (٣٣٣) ٠ وكانت أهم نتائج تلك الحملة تقوية مركز صلاح الدين فى مصر (٣٣٤) ٠ لذا بدأ العاضد يتخوف

---

(٣٢٩) د٠ حامد غنيم ٠ الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٤ ٠

(٣٣٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٤ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨٣ ، أبو الفدا . المختصر ، جـ ٣ ، دار المعرفة ، بيروت ، ص ٤٩ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ١١٩ ٠

(٣٣١) انظر الملحق رقم (٤) ٠

(٣٣٢) د٠ حامد غنيم ٠ الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٤ ٠

333. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 558.

334. Setton : Ibid., V. 1, p. 558, L. Bréhier : Vie et Mort..., p. 340.

من ازدياد نفوذه هو ورفقائه من الأتراك ، وأرسل الى نور الدين يطلب منـه أن يسحب القوات التركية المصاحبة لصلاح الدين بمصر وأن يقتصر فقط على صلاح الدين وأصحابه ، فما كان من نور الدين الا أن رد عليه بخطـاب يمدح فيه الأتراك وأنه ما أرسلهم واعتمد عليهم الا لعلمه أن « قنطاريات الفرنج ليس لها الا سهام الأتراك » (٣٣٥) ٠

وعليه فان الخليفة العاضد لم يجد بدا من الرضوخ للامر الواقع لأنه كان قد وصل الى حالة من الضعف لا تمكنه من أن يتخذ أى قرار معادى لنور الدين أو حتى لصلاح الدين الذى سطع نجمه بسرعة فى مصر ٠ وستثبت لنا الأحداث التالية أن صلاح الدين سيصبح صاحب الكفة الراجحة على حساب النوريين والفاطميين معا ٠

نعود مرة أخرى الى الملك عمورى بعد وصوله الى مملكته فى أواخر ديسمبر ١١٦٩ م هل عاوده الحنين الى الدخول فى مخاطرة جديدة عـلى أرض مصر ؟ وماذا كان موقفه من امبراطورية الروم آنذاك ؟ ثم ماذا كان موقف الروم من مصر وشواطئها بعد تلك الحملة التى ذاقوا فيها الأمرين ؟

هنا يذكر لنا (ستيفنسون) أن عمورى ملك بيت المقدس قصر جهوده من ذلك الوقت فصاعدا على « الدفاع عن أراضيه الخاصة » (٣٣٦) ٠

ولكن لما كان دفاعه عن أراضى مملكته لا يمكن أن يتأتى له الا بضـمان الاستقرار والهدوء لجبهته الجنوبية والغربية من ناحية مصر أولا ومن ناحية

---

(٣٣٥) أبو شامة: الروضتين، جـ ١، ص ١٨١، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ١٨٣، ابن الفرات: تاريخه، م ٤، جـ ١، ص ٨٧ ٠ هنا يعطينا الدكتور جمال الدين الشيال محقق كتاب مفرج الكروب لابن واصل تفسيرا لمعنى القنطاريات بقـوله : القنطارية نوع من الرمح وهى لفظ من أصل يونانى وسميت هكذا لانها تصنع من نوع من الخشب يحمل هذا الاسم باليونانية ٠ وقد وصفها مرضى بن على بن مرضى الطرطوسى فى مخطوطته (تبصير ارباب الالباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الاسواء) بقوله أنها أقرب فى شكلها من الرماح المصنوعة من الخشب الزان وما يشبهه ٠ وهى ليست بالطويلة ويطعنون بها ٠٠ وأسنتها قصار عراض كهيئة البلطية ٠٠ »

336. Stevenson : Op. Cit., p. 196.

الشمال أى مع نور الدين ثانيا ، لذا نجده يعاود من جديد مراسلة الغـرب الأوربى « ليتوسل اليهم أن يرسلوا حملة صليبية جديدة » (٣٣٧) الى الشرق، وربما يرجع ذلك الى أنه لم يجرؤ فى ذلك الوقت بالذات ، ووسط تلك الظروف الصعبة أن يعاود طلب أى نجدة من امبراطور الروم خصوصا وأن النفـوس لم تكن صافيه تماما بسبب الظروف التى مرت بها حملتهما المشتركة عـلى دمياط سنة ١١٦٩ م / ٥٦٥ هـ ٠

لكن ما هى الظروف الملحة التى طرأت فى أفق مملكة بيت المقدس والتى جعلت عمورى يسارع بطلب النجدة من الغرب فى ذلك الوقت بالذات ؟ والرد هو الجهود الايجابية المتتالية التى قام بها صلاح الدين بمهاجمته لقلعة الداروم Darom وهى أهم قلاع الصليبيين على ساحل البحر المتوسط الجنوبى، ومهاجمته أيضا لقلعة غزة واستيلائه على أيلة على خليج العقبة ، وبذلك بدأ بالفعل تطويق الامارات الصليبية (٣٣٨) ٠

فماذا كان رد الغرب على سفارته ؟

ان كل ما عادت به سفارته من الغرب ١١٧١ م هو « وعود مبهمة غامضة عن ارسال نجدات » (٣٣٩) دون أن تنجز شيئا ايجابيا (٣٤٠) ٠

والحقيقة أن عمورى ظل مخلصا باستمرار لسياسته التى ترمى الى التحالف الشـــديد مع امبراطور الروم والاســـتنجاد المستمر والدائم بالغـــرب (٣٤١) ٠

ثم لم يلبث عمورى أن وجد نفسه مرة ثانية فى حاجة ملحة الى الالتجاء الى امبراطور الروم وطلب المساعدة منه ، ولكى يتلافى كل ما كان من نتـائجه فشل الحملة التى وجهت الى دمياط من قبل ، توجه بنفسه الى القسطنطينية

---

337. L. Bréhier : Vie et Mort... p. 340.
338. Runciman : Op. Cit., V. 2, pp. 390-391, Stevenson : Op. Cit., p. 199, The Cambridge Hist. of Islam, p. 202.
339. L. Bréhier : Vie et Mort.., p. 340.
340. Setton : Op. Cit., V. I, p. 558.
341. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 390.

للوصول مع الحكومة الامبراطورية الى خطة جديدة لمهاجمة مصر (٣٤٢) ٠ وقد غادر الملك عمورى عكا فى ١٠ مارس ١١٧١ م (٣٤٣) متوجها الى دولة الروم ٠

وهناك استقبل من الامبراطور مانويل كومنين استقبالا وديا فاخرا ٠ واذا كان (برييه) قد ذكر أن الامبراطور قد وقع من جديد معاهدة تحالف مع عمورى (٣٤٤) ٠ فان (ستيفنسون) ذكر أن الملك قد وعد بتقديم المساعدة له (٣٤٥) ٠ أما (رنسيمان) فيقول أن شروط المعاهدة الجديدة التى تم الاتفاق عليها « لم تدون » (٣٤٦) وربما اكتفى فيها فقط بالاتفاق الشفوى ، وكل ما يهمنا من تلك الشروط هنا هو أن الامبراطور وعد بالتكفل بالمساعدة البحرية والمالية فى أى حملة مقبلة ضد مصر ٠ وهكذا غادر الملك ومن معه القسطنطينية فى ١٥ يونية وكلهم أمل فى المستقبل (٣٤٧) ٠

ولكن مهما كانت الشروط ومهما كان الاختلاف فى مدى نجاح تلك السفارة التى قام بها الملك عمورى بنفسه الى عاصمة الروم ، فان ما نود أن نؤكده هنا هو أنه لم ترسل حملات مشتركة ـ صليبية رومية ـ فى المستقبل ضد مصر وأن حملة ١١٦٩ م كانت آخر حملة من ذلك النوع ٠

ومهما كان الأمر ، ففى المحرم سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م قطعت خطبة العاضد لدين الله الفاطمى فى مصر وخطب فيها للمستضىء بأمر الله العباسى٠ وقد حدث ذلك بالتدريج ، ففى الجمعة الأولى دعى للمستضىء بأمر الله فلم

342. L. Bréhier : Vie et Mort..., p. 340.
343. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 559, Runciman : Op. Cit. V. 2, p. 391.

وقد صحبه فى رحلته بعض كبار رجال المملكة مثل اسقف عكا وجيرارد البوجى Gerard of Pougi مارشال البلاى ٠

344. L. Bréhier : Op. Cit., p. 340.

هنا يذكر برييه انه تم فيها ابعاد كل الشروط والظروف التى لم تعد مجدية ٠

345. Stevenson : Op. Cit., p. 200.
346. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 391.
347. Runciman : Ibid., V. 2, p. 392.

وهكذا قضى الملك عمورى الفترة ما بين مارس ويونيه فى القسطنطينية
Stevenson : Op. Cit., p. 200.

ينكر أحد ذلك ، وفى الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد واقامة الخطبة للمستضىء بأمر الله ، ففعلوا ذلك « ولم ينتطح عنزان » (٣٤٨) ٠

ثم توفى الخليفة العاضد فى يوم عاشوراء ، ولم يعلم بقطع الخطبة ، فتولى صلاح الدين حكم مصر ، وأصبح يسيطر على قصر الخليفة وجميع ما فيه (٣٤٩) ٠

والواقع أن العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين كانت على أحسن ما تكون حتى ذلك الوقت ، ففى صيف ١١٦٩ م عزز نور الدين صلاح الدين فى مصر بكل القوات والاحتياجات ضد المؤامرة والدسائس الداخلية ، كما عززه مرة ثانية فى خريف وشتاء نفس العام ضد الحملة الصليبية الرومية ضد مصر بل انه ضاعف من هجماته على الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام فى نفس الوقت وكان لذلك أثره الواضح فى وضع الصليبيين بين فكى الكماشة ، وكان ذلك أيضا من الأسباب الجوهرية لانسحابهم كما مر بنا ٠

لكن لم تلبث أن حدثت جفوة بين نور الدين وصلاح الدين ، لكن حسن رأى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، كان له اليد الطولى فى ازالتها وعليه فقد توفى نور الدين دون أن يكون لديه شك فى اخلاص صلاح الدين له وكان ذلك فى « يوم الأربعاء حادى عشر شوال » (٣٥٠) من سنة ٥٦٩ هـ / مايو ١١٧٤ م ، ثم لم يلبث أن لحق به الملك عمورى فى يولية من نفس العام (٣٥١) ٠

---

(٣٤٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٥٦ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤

(٣٤٩) ابن الاثير : نفس المصدر والصفحة ، أبو شامة نفس المصدر ، ص ٢٠٠ هنا يخطىء (ستيفنسون) فى القول بأن الخليفة العاضد توفى فى ١٣ سبتمبر ١١٧١ م وفى الجمعة التالين تم الدعاء للخليفة العباسى على المنابر ٠
(Stevenson : Op. Cit., p. 197).

لكن الراجح أن الدعوة للخليفة العباسى سبقت وفاة العاضد كما أوضحت المصادر العربية ذلك ٠

(٣٥٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٦١ ٠ وعن الجفوة بين نور الدين وصلاح الدين انظر المصدر نفسه ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ٠

351. L. Bréhier : Op. Cit., p. 340, Runciman : Op. Cit., V. 2, pp. 398-399, Stevenson : Op. Cit., p. 203.

(هجمات الروم)

الخـــــاتمة

وهكذا كان الاستيلاء على شواطىء مصر حلما راود باستمرار المتربعين على عرش الروم فعبأوا له الجهود ورسموا الخطط وحشدوا القوات وأرسلوا الأساطيل ، ولا غرو فقد كان امتلاك مصر بصفة دائمة هو الأمل المنشود بالنسبة للروم ، لما كانت عليه من موقع جغرافى ممتاز الى جانب غناها الاقتصادى المرموق وخاصة كمنتج هام للقمح ٠

ومما يجدر ذكره أن ندون هنا تلك الملحوظة الهامة لأحد المراجع الغربية، وهى التى أكد فيها أن مصر كانت باستمرار بلدا مميزا بالنسبة لحضـــارة البحر المتوسط ، حيث « أثرت فى تلك الحضارة ولم تتأثر بها » ، ولم تنس الاسكندرية على الاطلاق أنها كانت العاصمة الباعثة على الفخار للبطالمـة وأنها لم ترضخ على الاطلاق لسيادة روما أو القسطنطينية سواء فى النواحى السياسية أو الدينية ٠ وبالاضافة الى ذلك فان الملامح والســـمات المميزة للحضارة الهندوأوروبية لم تمد جـــذورها بعمق على الاطـــلاق فى أرض مصر » (١) ٠

والحقيقة أن الساحل الشمالى لمصر كان باستمرار عقبة كأداة لأى غازى أو مهاجم لمصر من ناحية البحر المتوسط وعليه فقد صدق القول بأنه «لا يوجد أى غزو ناجح لمصر من البحر فى الفترة مابين قيصر وبونابرت » (٢)

واذا كانت شواطىء مصر الشمالية قد تعرضت ـ كما مر بنا ـ للعديد من هجمات الروم البحرية ، فان دميـــــاط بالذات منيت بأكبر عدد من تلك الهجمات ، ولكنها اثبتت باستمرار قدرتها وشجاعتها فى الزود عن أرضـــها واستطاعت على الدوام أن ترد كيد الروم الى نحرهم وتعيدهم خاسرين ٠

واذا كنا قد ركزنا الضوء فى هذا الكتاب على فترة العصور الوسطى بالذات فاننا بتناولنا لجميع الهجمات الرومية على الشواطىء المصرية منذ

---

1. Allan Chester Johson and Louis C. West : Byzantine Egypt, p. 4.
2. The Cambridge Hist. of Islam, V. I, p. 192.

أمثال فردريك بربروسا وفيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد فى حملة صليبية جديدة - الحملة الثالثة - عندئذ اختار فردريك الطريق البرى ، وكان قد وصل الى اتفاق مع الروم فى خريف ١١٨٨ م بخصوص مرور القوات الألمانية ووقع معهم معاهدة بهــذا الشأن ولكن الروم ساورهم الشك . لدخول بربروسا فى مفاوضات مع أعدائهم أمثال سلطان قونية الســلجوقى (١٠) . بل ان بربروسا عقد تحالفا مع الصرب والبلغار ضد البيزنطيين (١١) .

ولقد صعد علاقات العداء بين بربروسا من جهة وبين امبراطور الروم من جهة أخرى تلك الزيجة التى تمت بين الامبراطور الألمانى والنورمان ، فقد تم الاتفاق فى عام ١١٨٤ م / ٥٨٠ هـ بين كل من بربروسا وبين وليم الثانى النورمانى ملك صقلية ١١٦٦ - ١١٨٩ م على زواج ابن الأول هنــرى السادس ، وخليفته فى حكم الامبراطــورية الرومانية المقدسة من الأميرة كونستانس ابنة وليم الثانى والوريثة الشرعية لمملكة صقلية لذلك لم يكن غريبا أن يرتاب اسحاق الثانى فى نوايا الامبراطور فردريك حليف وليم الثانى لذا بدأ فى وضع العراقيل فى طريق الجيش الألمانى (١٢) .

بل ان امبراطور الروم اتجه الى صلاح الدين الأيوبى الذى كانت تربطه

---

10. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 406, Cam. Med. Hist. V. IV Part. 1, p. 246,

هنا يذكر د. حامد زيان : الامبراطور فردريك بربروسا ، ص ٢٧ . أن معاهدة ١١٨٨ م التى عقدت فى نوزمبرج بين اسحاق الثانى وفردريك بربروسا كانت تنظــم العلاقة بين الجيش الالمانى الذى سيمر بأراضى الامبراطورية البيزنطية وبين الامبراطور البيزنطى وتعهد اسحاق الثانى بمقتضاها أن يقدم المؤن والعلوفات اللازمة للجيش الالمانى .

11. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 406.

(١٢) د. حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٣١ . هنا يذكر نفس المرجع عن Tout, Finlay أن الاوامر الامبراطورية صدرت بقطع الاشجار الضخمة ووضعها فى الممرات والطرق والمسالك لتسدها وتشل تحركات الجيش الالمانى وتقدمه فى أراضى الامبراطورية البيزنطية كما وضعت الخطط لاختطاف كل من يتخلف أو يخرج عن صفوف الجيش الالمانى وفى نفس الوقت منع الامبراطور البيزنطى عن الجيش الالمانى تزويده بالمؤن والعلوفات اللازمة والتى كانت ضرورية بالنسبة للجيش الالمانى الضخم البالغ عدده مائة ألف مقاتل » .

به آنذاك علاقات ودية وتحـالف ضد عدوهما المشـترك سلطان سلاجقة الروم (١٣) · وجدد اسحاق الثانى انجليوس مرة أخرى المعاهدة التى كانت قد عقدها أندرونيكوس مع صلاح الدين على شرط ضرورة «تعويق مرور الجيش الصليبى الألمانى » (١٤) ·

وأكثر من ذلك فقد أرسل اسحاق الثانى الى صلاح الدين يخبره بقدوم بربروسا على رأس حملة صليبية جديدة لاسترداد بيت المقدس وذلك حتى يتخذ صلاح الدين من التدابير ما يكفل له الصمود فى وجهه (١٥)

ولكن رغم كل الاجراءات التى اتخذها الامبراطور اسحاق الثانى لتعويق

---

(١٣) د· حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٣٥ · فقد اتفق صلاح الدين الايوبى والامبراطور الروم اسحاق الثانى على اقامة الخطبـة العباسية على منابر جـوامع القسطنطينية وأرسل صلاح الدين المؤذنين والقراء الى القسطنطينية لهذا الغرض ·

14. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 407, Cam. Med. Hist. V. IV Part. 1, p. 246.

هنا يذكر رنسيمان أن هدف اسحاق الثانى من وراء ذلك التحالف لم يكن تحطيم مصالح الصليبيين بقدر ما كان هدفه كبح جماح قوة السلاجقة
(Runciman : Op. Cit., V. 3, p. 12)

أما الدكتور حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٧ فيوضح لنـا أبعاد المعاهدة التى كانت بين اندرونيكوس وصلاح الدين والتى حالت بعض نصوصها بالاضافة الى الظروف المحيطة بامبراطورية الروم نفسها دون تنفيذها · فقد اقترح الامبراطور أندرونيكوس عن طريق سفارة أرسلها الى صلاح الدين فى صيف ١١٨٥ قيام تحـالف بينهما وأن يقوما بفتح فلسطين وأن تقسم بينهما على أن ينال الروم بيت المقدس والمدن الساحلية ما عدا عسقلان · وأنه اذا تم الاستيلاء على آسيا الصغرى فسوف تعـود للروم ، وفى مقابل ذلك وعد اندرونيكوس صلاح الدين بالمساعدة فى صراعه ضـد الصليبيين فى الشام · وهنا يضيف الدكتور ربيع أنه من المحتمل أن القسطنطينية ادعت دون وجه حق نوعا من السيادة وطالبت بتنازلات كثيرة فى فلسطين بما فى ذلك بيت المقدس ومختلف المدن الساحلية لذلك عارض صلاح الدين ذلك ولم يتلق صلاح الدين ردا جديدا على شروطه الخاصة بالتحالف الا فى عهد اسحاق الثانى ، حيث تلقى الامبراطور الجديد رد صلاح الدين بالترحاب ·

(١٥) د· حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٣٥ ـ ٣٦ ·

الامبراطورية موجهة اليها من جانب نورمان صقلية الذين شنوا من جـديد هجوما قاسيا ضد الروم ٠

هنا حاول أندرونيكوس أن يخلص نفسه من هـذا المأزق الحـرج بالتحالف مع صلاح الدين فى مصر من ناحية ومع البنادقة فى الغرب من ناحية أخرى (٧) ٠

لكن لم تلبث سالونيكا Thessalonica ـ وهى المدينة الثانية فى الامبراطورية أن سقطت فى يد النورمان فأنزلوا بأهلها اشد أنواع العـذاب والموت ٠ عندئذ قامت فى العاصمة الرومية ثورة عاصفة فى ١٢ سبتمبر ١١٨٥ م انتهت بتقطيع آخر أباطرة أسرة آل كومنين اربا ونودى باسحاق الثانى انجيلوس Isaac II Angelus امبراطورا (٨) ١١٨٥ ـ ١١٩٥ م ٠ وهكذا شغل عرش الروم خلال الفترة الممتدة ما بين عامى ١١٨٥ ، ١٢٠٤ م بأفراد من بيت انجيلوس الذين لم يكن لأحد منهم حسن سياسة حنا أو مانويل كومنين (٩) ٠

تطورت الأحداث بسرعة بعد انتصار صلاح الدين الأيوبى الباهر على الصليبيين فى حطين فى يوليه ١١٨٧ م ٠ هنا تحرك ملوك أوربا البارزين

---

7. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 399, Cam. Med. Hist., V. IV, Part, 1, p. 245.

هنا يحدد لنا الاستاذ الدكتور حسنين ربيع ملابسات ذلك التحالف المصرى الرومى بقوله « أن الاستاذ اهرنكريتز Ehrenkreutz : Saladin اشار الى انه فى الربع الاخير من القرن الثانى عشر الميلادى تقارب كل من البيزنطيين والايوبيين لمواجهة عدوهما المشترك فالنورمان فى صقلية كانوا ذا خطر على مصر كما هو الحال بالنسبة لبيزنطة وسلاجقة الروم فى قونية استولوا على كثير من الاقاليم البيزنطية فى آسيا الصغرى وهددوا مصالح صلاح الدين فى شمال الشام ، وجـزيرة قبرص التى ثارت ضـد القسطنطينية تطلعت كى ترث الصليبيين فى المستقبل ٠ يضاف الى ذلك أن الصليبيين وحلفـاءهم فى غرب أوربا كونوا جبهـة عدائية ضد البيزنطيين وكذلك ضـد الايوبيين ٠ (د٠ حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٣٥ ٠

8. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 400, Cam. Med. Hist., V. IV, Part. I, p. 245.

(٩) ج م هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة د٠ رأفت عبد الحميد ، ص ١٩٩ ٠

أمثال فردريك بربروسا وفيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد فى حملة صليبية جديدة ــ الحملة الثالثة ــ عندئذ اختار فردريك الطريق البرى ، وكان قد وصل الى اتفاق مع الروم فى خريف ١١٨٨ م بخصوص مرور القوات الألمانية ووقع معهم معاهدة بهـــذا الشأن ولكن الروم ساورهم الشك • لدخول بربروسا فى مفاوضات مع أعدائهم أمثال سلطان قونية الســـــلجوقى (١٠) • بل ان بربروسا عقد تحالفا مع الصرب والبلغار ضد البيزنطيين (١١) •

ولقد صَعَّد علاقات العداء بين بربروسا من جهة وبين امبراطور الروم من جهة أخرى تلك الزيجة التى تمت بين الامبراطور الألمانى والنورمان ، فقد تم الاتفاق فى عام ١١٨٤ م / ٥٨٠ هـ بين كل من بربروسا وبين وليم الثانى النورمانى ملك صقلية ١١٦٦ ــ ١١٨٩ م على زواج ابن الأول هنـــرى السادس ، وخليفته فى حكم الامبراطـــورية الرومانية المقدسة من الأميرة كونستانس ابنة وليم الثانى والوريثة الشرعية لمملكة صقلية لذلك لم يكن غريبا أن يرتاب اسحاق الثانى فى نوايا الامبراطور فردريك حليف وليم الثانى لذا بدأ فى وضع العراقيل فى طريق الجيش الألمانى (١٢) •

بل ان لمبراطور الروم اتجه الى صلاح الدين الأيوبى الذىكانت تربطه

---

10. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 406, Cam. Med. Hist. V. IV Part. 1, p. 246,

هنا يذكر د• حامد زيان : الامبراطور فردريك بربروسا ، ص ٢٧ • أن معاهدة ١١٨٨ م التى عقدت فى نورمبرج بين اسحاق الثانى وفردريك بربروسا كانت تنظـــم العلاقة بين الجيش الالمانى الذى سيمر بأراضى الامبراطورية البيزنطية وبين الامبراطور البيزنطى وتعهد اسحاق الثانى بمقتضاها أن يقدم المؤن والعلوفات اللازمة للجيش الالمانى •

11. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 406.

(١٢) د• حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٢٩ ــ ٣١ • هنا يذكر نفس المرجع عن Tout, Finlay أن الاوامر الامبراطورية صدرت بقطع الاشجار الضخمة ووضعها فى الممرات والطرق والمسالك لتسدها وتشل تحركات الجيش الالمانى وتقدمه فى أراضى الامبراطورية البيزنطية كما وضعت الخطط لاختطاف كل من يتخلف أو يخرج عن صفوف الجيش الالمانى وفى نفس الوقت منع الامبراطور البيزنطى عن الجيش الالمانى تزويده بالمؤن والعلوفات اللازمة والتى كانت ضرورية بالنسبة للجيش الالمانى الضخم البالغ عدده مائة ألف مقاتل » •

به آنذاك علاقات ودية وتحـــالف ضد عدوهما المشــــترك سلطان سلاجقة الروم (١٣) • وجدد اسحاق الثانى انجليوس مرة أخرى المعاهدة التى كانت قد عقدها أندرونيكوس مع صلاح الدين على شرط ضرورة «تعويق مرور الجيش الصليبى الألمانى » (١٤) •

وأكثر من ذلك فقد أرسل اسحاق الثانى الى صلاح الدين يخبره بقدوم بربروسا على رأس حملة صليبية جديدة لاسترداد بيت المقدس وذلك حتى يتخذ صلاح الدين من التدابير ما يكفل له الصمود فى وجهه (١٥) •

ولكن رغم كل الاجراءات التى اتخذها الامبراطور اسحاق الثانى لتعويق

---

(١٣) د• حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٣٥ • فقد اتفق صلاح الدين الايوبى وامبراطور الروم اسحاق الثانى على اقامة الخطبـــة العباسية على منابر جـــوامع القسطنطينية وأرسل صلاح الدين المؤذنين والقراء الى القسطنطينية لهذا الغرض •

14. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 407, Cam. Med. Hist. V. IV Part. 1, p. 246.

هنا يذكر رنسيمان أن هدف اسحاق الثانى من وراء ذلك التحالف لم يكن تحطيم مصالح الصليبيين بقدر ما كان هدفه كبح جماح قوة السلاجقة
(Runciman : Op. Cit., V. 3, p. 12)

أما الدكتور حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٧ فيوضح لنـا أبعاد المعاهدة التى كانت بين اندرونيكوس وصلاح الدين والتى حالت بعض نصوصها بالاضافة الى الظروف المحيطة بامبراطورية الروم نفسها دون تنفيذها • فقد اقترح الامبراطور أندرونيكوس عن طريق سفارة أرسلها الى صلاح الدين فى صيف ١١٨٥ قيام تحـالف بينهما وأن يقوما بفتح فلسطين وأن تقسم بينهما على أن ينال الروم بيت المقدس والمدن الساحلية ما عدا عسقلان • وأنه اذا تم الاستيلاء على آسيا الصغرى فسوف تعـود للروم ، وفى مقابل ذلك وعد اندرونيكوس صلاح الدين بالمساعدة فى صراعه ضـد الصليبيين فى الشام • وهنا يضيف الدكتور ربيع أنه من المحتمل أن القسطنطينية ادعت دون وجه حق نوعا من السيادة وطالبت بتنازلات كثيرة فى فلسطين بما فى ذلك بيت المقدس ومختلف المدن الساحلية لذلك عارض صلاح الدين ذلك ولم يتلق صلاح الدين ردا جديدا على شروطه الخاصة بالتحالف الا فى عهد اسحاق الثانى ، حيث تلقى الامبراطور الجديد رد صلاح الدين بالترحاب •

(١٥) د• حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٣٥ _ ٣٦ •

الجيش الألمانى الا أن بربروسا تمكن من الاستيلاء على أدرنه عندئذ لم يجد اسحاق الثانى بدا من الخضوع والتسليم بمطالب الامبراطور الألمانى وذلك فى ١١٩٠ م (١٦) .

عندئذ لم يسع امبراطور الروم الا أن يسطر من جديد رسالة يعتذر فيها لصلاح الدين عن سماحه للجيش الألمانى بالمرور عبر بلاده وهى رسالة تحمل في طياتها التحذير من عدو مشترك يتمنى له اسحاق الثانى الهلاك « وصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة فى جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه وأنه مستمر على المودة راغب فى المحبة ويعتذر عن عبور الملك الألمانى وأنه قد فجع فى طريقه بالأمانى ونال من الشدة ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه وأنه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ويكون مصرعه هناك ولا يرجع ويموت بما به كاده وأنه قد بلغ فى أذاه اجتهاده » (١٧) .

واذا كان فردريك بربروسا قد اندفع عبر آسيا الصغرى فى اتجاه الأرض المقدسة فانه لم يقدر له مطلقا الوصول اليها (١٨) .

ولا يعنينا هنا تتبع حملة بربروسا (١٩) ، بقدر ما يهمنا أن نشير الى أن عهد صلاح الدين شهد كما سبق الذكر تحالفين بين المصريين والروم أحدهما فى عهد أندرونيكوس كومنين والثانى فى عهد اسحاق الثانى انجيلوس . وكان هذا هو سر توقف الحملات الرومية الى شواطىء مصر فى ذلك الوقت .

ويهمنا قبل أن نختتم هذه النقطة أن نشير الى أن هذا التحالف لم يكن مثمرا بالمرة وقد أشار الى ذلك صلاح الدين نفسه فى احدى رسائله الى الخليفة العباسى فى بغداد عندما قال : « ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية فى أننا ننجده على قبرس فانا انما وعدناه بالنجدة عليها لما

---

16. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 406.

(١٧) أبو شامة : الروضتين .. ، ج ٢ ، ص ١٥٩ ، حوادث ٥٨٦ هـ .

18. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 407.

(١٩) انظر كتاب الدكتور حامد زيان : الامبراطور فردريك بربروسا لمعرفة تفاصيل تلك الحملة الصليبية .

كانت بيد عدونا ، والله ما أفلح ملك الروم قط ولا نفع أن يكون صديقا ولا ضر أن يكون عدوا » (٢٠) ٠

وهكذا توقفت هجمات الروم البحرية ضد الشواطىء المصرية على عهد صلاح الدين الأيوبى ، ولم يعد الروم يشكلون خطرا قريبا أو بعيدا بالنسبة لمصر ٠

ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال ٠

تم بحمد الله

---

(٢٠) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٨ ٠

ملحــق رقم (١) ٠

كتاب هرقل (لقرة) أسقف الاسكندرية يعتذر عما بدر منه تجاهه ويطلب منه مداراة المسلمين عن :

Agapitus : Kitab Al-Unvan, Patrologia
Orientalis, V. VIII, pp. 473-474.

« أما بعد فان قوما أعطونى فيك الغشوا ورفعوا التى عنك البـــاطل فأسرعت الى القبول منهم وأجبتهم الى ما سألوا وقد علمت أن هؤلاء أرسلوا كافة على الناس وأنّ الله قد كان وعد ابراهيم بن اسماعيل أن يخرج من ظهره ملوكا كثيرة ووعيد الله حق لا مبدل له ولا مندفع ٠ فان قدرت على مداراة القوم ودفعهم عن مصر بما عز وهان فافعل واذا استطعت أن تدفع اليهم الشرط الأول الذى كتب ووافقتهم عليه فافعل ذلك فقد قلدتك أمر مصر وفوضت اليك أمرها واعمل بحسبه » ٠

ملحـــق رقم (٢)

وصف رسل المقوقس للعـرب الفاتحين

عن : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٥

« ... رأينا قوما الموت أحب الى أحدهم من الحياة والتواضع أحب اليه من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، انما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهـم ، وأميرهم كواحـــد منهـم ، ما يعـــرف رفيعهم من وضـــيعهم ولا السـّـيد فيهـم من العبـــد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم . فقال عند ذلك المقوقس ، والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد .. » .

ملحـــق رقم (٣)

خطاب أســـد الدين شيركوه الى

عمورى ملك بيت المقدس ٥٥٩ هـ (*)

عن : ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٧ ، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، ص ٢٧ ٠

« ليس لك فينا غرض ، ولا معنا مال يقنعك ، فان شاور غدر بنا ، ولم يوفنا ما شرطه لنا من المال ٠ ونحن قوم غرباء من هذه الديار ، أتينا لنصرة هذا الغـــادر والبغى له مصرع ٠ وأنت تعلم أن وراءنا مثل الملك العادل نور الدين ٠ وكأنك به وقد أطل عليك بجيوش تعرفها ولا تنكرها وأنت قصدك مال ومصر قدامك ، وهى أحب اليك من مطاولتنا بغير فائدة لك ٠ وليس بمصر مانع يمنعك عنها ٠ فان تركت البغى ، وقنعت بما فى أيدينا من فضلات نفقاتنا نفذناها اليك ، وتدعنا نرجع الى بلادنا وان أبيت فنحن والله ما يقتل الواحد منا حتى يقتل عدة منكم ٠ وبعد ذلك ، المدد واصل الينا والسلام »

(*) هنا يطلق ابن أيبك اسم مرى على عمورى ويسميه ملك الروم وهذا خطأ ٠ والراجح ان هذا الخطاب أرسل الى الملك عمورى بعد سلخ جمادى الاخرة سنة ٥٥٩ هـ وذلك بعد مقتل ضرغام ودخول أسد الدين شيركوه وصلاح الدين القاهرة فى وزارة شاور (ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب . ص ٢٧) ٠

ملحـــق رقم (٤)

مقتطفات من كتاب نور الدين الى الخليفة العـاضد

بعـد رحيـــل الصليبيين والروم عن دميـــاط
٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م

عن : البندارى : سنا البرق الشامى القسم الأول ص ٨٧ ـ ٨٨

« أطال الله بقاء فلان ، ولا زالت عوادى نعمه محدقة بأوليائه احداق الأجفان بالأحداق ، وعوادى نقمه محرقة لأعدائه احراق النيران أهل الشقاق، وأعلنت رايات النصر للدين ، وتليت آيات الذكر المبين ٠

« الخادم يهنىء بما سناه الله من الظفر الذى أضحك سن الايمان ، وحصل أهل الشرك فى شرك الخذلان ، وأعاد جيش الكفر واهى الجأش ، ويدا الضلالة بادية الارتعاش حتى عاد حزب الشيطان مخذولا ، وسيف الله فى رقاب أعدائه مسلولا ٠ وذلك ببركات الدولة التى سطع فجرها ٠ ولولا صدق اهتمامه بأهل الاسلام وحفظ الأولياء الذين يذبون عن الدين ويحافظون على الذمام ، لكان ركن الحق يميل لكيد الباطل ٠ فوفق الله فلانا وأيده بنصره، وأجرى قضائه وقدره على وفق أمره ، ورد كيد العدو والكافر فى نحره ٠

ملحق رقم (٥)

مختارات من الأشعار التى قيلت فى مدح صلاح الدين

بعد انتصاره على الصليبيين والروم فى دمياط ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م

عن أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٨٢

للشهاب فتيان الشاغورى قصيدة يقول فيها :

ولا غرو أن عاد الفرنج هزيمة   ولو لم تعد لم يبق للشرك ساحل
فقد أيقنت أعداؤه أن حظهم   لديه رماح أشرعت أو سلاسل
ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا   وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الاحصاء والعد جمعهم   ألوف ألوف خيلهم والرواجل
رأوا دونهم أسد بأيديهم القنا   وبيضا رقاقا أحكمتها الصياقل
وداروا بها فى البحر من كل جانب   ومن دونها سد من الموت حائل
رجا الكلب ملك الروم اذ ذاك فتحها   فخاف فأم الملك والروم هابل
فعادوا على الأعقاب منها هزيمة   كأنهم ذلا نعام جوافل

وللعماد الأصفهانى :

يا يوسف الحسن والاحسان يا ملكا   بجده صاعدا أعداؤه هبطوا
حللت من وسط العلياء فى شرف   ومركز الشمس من أفلاكها الوسط
هنيت صونك دمياط التى اجتمعت   لها الفرنج فما حلوا ولا ربطوا

وللعماد أيضا :

يوسف مصر الذى ملاحمها   جاءت بأوصافه تعرفها
كتب التواريخ لا يزينها   الا بأيامه مصنفها
وحطت دمياط اذ أحاط بها   من برجوم البلاد يقذفها
لاقت غواة الفرنج خيبتها   فزاد من حسرة تأسفها
أوردت قلب القلوب أرشية   من القنا للدماء تنزفها
يمضى لك الله فى قتالهم   عزيمة للجهاد ترهفها

المصـادر والمراجع

(أ) المصادر العـربية

١ - ابن الأثير الجزرى : (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)
الشيبانى الملقب بعز الدين :
أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد
(أ) الكامل فى التاريخ ، جـ ١ ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
(ب) التـــــاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (بالموصل) - تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، الطبع والنشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد .
(جـ) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، المجلد الثانى - كتاب الشعب

٢ - ابن اياس : ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م)
ابو البركات محمد بن أحمد
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، من سلسلة كتاب الشعب جـ ١ .

٣ - ابن ايبك الدوادارى : (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)
أبو بكر عبد الله : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع ، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م .

٤ - البلاذرى : (ت حوالى ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ هـ)
أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، فتوح البلدان ، حققه وشرحه عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ، ١٣٧٧ هـ / ١٢٤٤ م)

٥ - البندارى : (ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ هـ)
قوام الدين الفتح بن على ، سنا البرق الشامى ، تحقيق الدكتور رمضان ششن ، القسم الأول ، دار الكتاب الجديد ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٧١ .

٦ ـ ابن الجوزى : (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م)
أبو الفرج عبد الرحمن بن على : تاريخ عمر بن الخطاب ، تقديم وتعليق أسامة عبد الكريم الرفاعى .

٧ ـ ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)
عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ٣ ، ٤ ، ٥، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

٨ ـ الذهبى : (٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)
شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان : دول الاسلام ، جـ ١ ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، محمد مصطفى ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .

٩ ـ السيوطى : (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)
جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر :
(أ) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الجزء الأول ، دار احياء الكتب العربية الطبعة الأولى ، ١٩٦٧ م ـ ١٣٨٧ هـ ، جـ ٢ ، ١٩٦٨ م ـ١٣٨٧ هـ .
(ب) تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد المجيد ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م

١٠ ـ أبو شامة : (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م)
شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى : الروضتين فى أخطار الدولتين ، رواية الامام مجد الدين أبى المظفر يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعى جـ ١ ، ٢ دار الجيل بيروت .

١١ ـ ابن شداد : (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م)
بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق د. جمال الدين الشيال ، سلسلة تراثنا ، الطبعة الأولى ١٩٦٤ .

١٢ ـ الشرقاوى :
الشيخ عبد الله : تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين وهو هامش لكتاب فتوح الشام للواقدى ، طبعـــة المطبعة العثمانية ١٣١٥ هـ ٠

١٣ ـ الاصطخرى : توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى :
أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى : مسالك الممالك ، معول على كتاب صور الأقاليم للشيخ ابى زايد أحمد بن سهل البلخى ٠

١٤ ـ الطبرى : (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م
محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، سلسلة ذخائر العرب ، جـ ٤ ، ٥ دار المعارف بمصر ٠

١٥ ـ ابن عبد البر : (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)
أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد : الاستيعاب فى معرفة الصحابة، القسم الثانى حرف الخاء ، تحقيق على محمد البجاوى ، مطبعـة النهضة بمصر ٠

١٦ ـ ابن عبد الحكم : (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م)
أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى المصرى :
(أ) فتوح مصر وأخبارها ، طبع فى مدينة ليدن بمطبعة بريل ١٩٣٠ ـ مكتبة المثنى ببغداد ٠
(ب) فتوح افريقيا والأندلس ، حققه وقدم له د٠ عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٤ ٠

١٧ ـ العسقلانى : (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م)
شهاب الدين ابى الفضل أحمد بن على بن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ ٨ ، دار صادر بيروت ٠

١٨ ـ ابن العماد : (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م)
أبو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ ١ ، ٢ المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ٠

١٩ ـ أبو الفدا : (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)
الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، الطبعة الأولى ، المطبعة الحسينية المصرية ٠

٢٠ ـ ابن الفرات : (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م)
ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم : تاريخ ابن الفرات ، المجلد الرابع الجزء الأول ، تحقيق ونشر الدكتور حسن محمد الشماع ، مطبعة حداد ، بصرة عشار ، ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧ م ٠

٢١ ـ القزوينى : (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م)
زكريا بن محمد بن محمود : آثار البلاد وأخبار العباد ،دارصادر وبيروت ١٣٨٩ هـ ـ١٩٦٩ م ٠

٢٢ ـ القلقشندى : (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م
أبو العباس أحمد : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ٥

٢٣ ـ ابن القلانسى : (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م)
حمزة بن يعلى : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ ٠

٢٤ ـ ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م)
عماد الدين ابى الفداء اسماعيل بن عمر : البداية والنهاية فى التاريخ ، تحقيق ومراجعة محمد عبد العزيز النجار ، جـ ٧ مؤسسة دار العربى للنشر والتوزيع ٠ الرياض ٠

٢٥ - الكندى : (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)
أبو عمر محمد بن يوسف : كتاب الولاه وكتاب القضاه ، طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ .

٢٦ - أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م)
جمال الدين ابى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ٢ ، ٥ ، ٦ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر، جـ ٥ مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٥م - ١٣٥٣ هـ

٢٧ - المقريزى : (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد :
(أ) اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م .
(ب) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، دار التحرير للطبع والنشر ، طبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ .

٢٨ - ابن ميسر : (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م)
محمد بن على بن يوسف بن جلب : أخبار مصر ، جـ ٢ ،مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى الخاص بالعاديات الشرقية بمصر١٩١٩ .

٢٩ - ابن واصل : (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م)
جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ ١ تحقيق الدكتور جمال الدين الشال ، مطبوعات ادارة احيـاء التراث القديم ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣

٣٠ - الواقدى : (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م)
أبو عبد الله بن عمر : فتوح الشام ، جـ ٢ ، دار الجيل ، جـ ٢ طبعة المطبعة العامرية العثمانية بباب الشعرية ، صفر ١٣١٥ هـ .

٣١ - اليافعى : (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م)
أبو محمد عبد الله بن سعد بن على بن سليمان : مرآة الجنان وعبـرة

اليقظان، جـ ٣ الطبعة الثانية، منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ٠

٣٢ ـ اليعقوبى : (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)
أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح : تاريخه ، المجلد الثانى ، دار صادر وبيروت ، ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م بيروت ٠

(ب) المراجع العربية والمعربة :

١ ـ ابراهيم أحمد العدوى : (الدكتور)
الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، مطبعة لجنة البيان العربى ٠

٢ ـ أرنست باركر :
الحروب الصليبية ، نقله الى العربية الدكتور السيد الباز العرينى ، دارة النهضة العربية ، الطبعة الثانية بيروت لبنان ٠

٣ ـ أسد رستم : (الدكتور) :
الروم سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب جـ ١، ٢ دار المكشوف ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٥٥ ٠

٤ ـ اسمت غنيم (الدكتورة)
الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، دار المجمع العلمى بجدة ، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م ٠

٥ ـ السيد الباز العرينى : (الدكتور)
(أ) مصر البيزنطية ، دار النهضة العربية ، مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٦١ ٠
(ب) الدولة البيزنطية ، ٣٢٣ ـ ١٠٨١ م ، بيروت ١٩٨٢ ٠

٦ - ج.م. هسى :
العالم البيزنطى ، ترجمة الدكتور رأفت عبد الحميد ، الطبعة الثانية، دار المعارف .

٧ - حامد زيان : (الدكتور)
الامبراطورفردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة ١٩٧٨ .

٨ - حامد غنيم أبو سعيد : (الدكتور)
الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٧٢ .

٩ - حسن ابراهيم حسن : (الدكتور)
تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤ .

١٠ - جسنين محمد ربيع : (الدكتور)
دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .

١١ - زامبور : (المستشرق) .
معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١ .

١٢ - سعاد ماهر : (الدكتورة)
البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .

١٣ - سعيد عبد الفتاح عاشور : (الدكتور)
(أ) بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، جامعة بيروت العربية ، بيروت ١٩٧٧ .
(ب) الحركة الصليبية ، جـ ١ ، مطبعة لجنة البيان العربى ، سنة ١٩٦٣ .

١٤ ـ سيدة كاشف : (الدكتورة)
(أ) مصر فى فجر الاسلام ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ ٠
(ب) مصر فى عصر الاخشيديين ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ ٠
(حـ) العرب والبحار ، الكتاب السنوى الثانى ، كلية البنات بالرياض للعام الجامعى ٩٥/١٣٩٦ هـ

١٥ ـ عبد الرحمن الرافعى ، سعيد عبد الفتاح عاشور ٠
مصر فى العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٧٠ ٠

١٦ ـ على ابراهيم حسن : (الدكتور)
مصر فى العصور الوسطى : الطبعة الخامسة ، مطبعة السعادة ١٩٦٤ ٠

١٧ ـ قدرى قلعجى :
صلاح الدين الايوبى : قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد دار الكاتب العربى ٠

١٨ ـ نظير سعداوى :
جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ ٠

١٩ ـ نقولا يوسف :
تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ، الاتحاد القومى بدمياط ٠

٢٠ ـ وسام عبد العزيز فرج : (الدكتور)
العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية ١٩٨١ ٠

(جـ) المصادر والمراجع الأجنبية :

1. Agapitus de Menbidj: Kitab Al Unvan, Patrologia Orientalis, V. VIII (Tomus actavus).

2. Anna Comnena : The Alexiad, translated by Elizabeth. A.S. Dawes, London, 1967.

3. Bréhier (L.) : Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947.

4. Butler (A.J.), D. Litt, F.S.A.: The Arab conquest of Egypt and the Last thirty years of the roman dominion, Oxford At the Clarendon. Press 1902.

5. Daniel (N.) : The Arabs and Mediaeval Europe, Longman, London and New York, Librairie du Liban.

6. Dawsan (C.) : Le Moyen-age et les origines de L'Europe, Arthaud, France.

7. Fahmy (A.M.) (Doctor) : Muslim Sea-Power in the Eastern Mediterranean From the Seventh to the Tenth Century A.D. National Publication Printing House Cairo, U.A.R.

8. Gibb (H.) : The Life of Saladin from the works of Imad Al-Din and Baha Al-Din, Oxford. At the Clarendon, Press 1973.

9. Grousset, R. : L'Empire du Levant, Paris 1949.

10. Johnson (A.C.) and Louis C. West: Byzantine Egypt, Economic Studies, Preinceton University Press, 1949.

11. Lane-Poole (S.), M.A. : a) Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem, G.P. Putman's Sons, New York, London.
    b) A History of Egypt V. I, London 1936.

12. Larousse Encyclopedia of Ancient and Medieval History, General Editor : Marcel Dunan, Honorary, Foreward by Arnold Toynbee Hamyln, London, New York, Sydney, Toronto.

13. Lemerle (P.) Le Monde de Byzance, Histoire et Institutions, Variorum reprints, London 1978.

14. Lewis (B.) : The Arabs in History, Hutchinson of London.

15. Michel Le Syrien Recueille des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1.

16. Ostrogorsky (G.) : History of the Byzantine State, Translated by Joan Hussy, Oxford, 1968.

17. Prawer (J.) : Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, Tome 1, Paris 1969.

18. Runciman (S.) : A History of the Crusades Volume 2, 1952, V. 3.

19. Setton (K.M.) : A History of the Crusades Volume 1, Edited by Marshall W. Baldwin, the University of Wisconsin Press, Madison, London, 1969.

20. Stevenson (W.B.) : The Crusaders in the East, Cambridge University Press.

21. The Cambridge History of Islam, Volume 1, edited by P.M. Holt, A NN, K.S. Lambton, Bernerd Lewis Cambridge, At the University Press, 1970.

22. The Cambridge Medieval History (Cam. Med. Hist.) V. IV. The Byzantine Empire, Part, 1, Byzantine and its Neighbours, Cambridge, the University Press, 1966.

23. The Chronography of Gregory Abul Faraj, Commonly Known as Bar Hebraeus. Translated by Ernest A. Wallis Budge Volume 1, Oxford University Press London, 1932.

24. The New Encyclopaedia Britannica, Volume 5, (1973-1974) Helen Hemingway Benton, Published.

25. William H. McNeill : A world History, New Edition, Oxford University Press, 1979.

26. William of Tyre : A History of Deeds Done Beyond the Sea, Volume 1, 2, Translated and Annotated by Emily Atwater Babcock and A.C. Krey, New York, 1943.

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٤٩٣٤